



مطبوعات كتابي

الترجمة الأولى - المؤسسة للشوايخ - المكتبة العالمية



THE
CITADEL



بين الشرف والمال!

مأساة الصراع

القلعة

دكتور أ. ج. كرونيين

الجزء الثالث والأخير

دكتور "ا.ج. - كرونين"

القلمسقة!

الجزء الثالث



THE CITADEL
By
DR. A. J. CRONIN

الثلث ١ قروش

روعى فى ترقيم صفحات هذا العدد ، ان يستطرد
الترقيم من حيث انتهى فى العدد الثانى . . فقد وقفت
القصة فى ذلك العدد عند صفحة ٣٤٤ ، وهى تستأنف
هنا فى صفحة ٣٤٥ ، وذلك حتى يتسنى ضم الاجزاء
بعضها الى بعض ، اذا اريد تجليد القصة بأكملها فى
مجلد واحد . . وكل ما عليك هو ان تنزع الورقة الاخيرة
من الجزء الثانى ، والاربع ورقات الاولى من هذا
الجزء . .

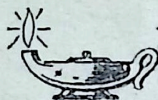
مطبوعات

كتاب

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل



الكتاب السابع والاربعون

القلعة !

(الجزء الثالث)

ترجمة : أنطون العبيدى

الإدارة : همارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابي

(الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية)

صدر حتى الآن ثلاثة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد ، في اول كل شهر .

مطبوعات كتابي

(الترجمة الكاملة الائمة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ستة وأربعون كتاب ، يضاف اليها كتاب جديد في منتصف كل شهر . وتطلب قائمة بأسمائها من الادارة .

الاشتراكات

♦ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :

ادارة « كتابي » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

♦ الاشتراكات عن ١٢ عددا من أى من المجموعتين :

في مصر والسودان ١٢٠ قرشا . وفي العراق وسوريا ولبنان والأردن والمملكة السعودية : ما يوازي ١٤٠ قرشا . وفي الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وتركيا ودول أوربا والأمريكتين : ١٦٠ قرشا ، خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوي المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

♦ ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات في مصر باذن بريد عادى . وللمشتركون في البلاد الأخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها في مصر . علما بأن سعرها في مصر ٣٧ مليما ، ومن الممكن لمن في السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

ملخص ما نشر في الجزئين الاول والثانى

♦ حصل « أندرو مانسون » - عندما اتم دراسة الطب - على منصب مساعد لطبيب اقعده المرض عن العمل ، فى بلده (بلينيللى) التى كانت من مراكز التعدين فى احد وديان (ساوث ويلز) المنعزلة بانجلترا . . وسرعان ما تبين انطبيب الشاب أن ثمة فارقا بعيدا بين رسالة الطب الانسانية ومهنة الطب كما تمارسها . . وهاله ان اكتشف ان الانشاء - فى البلدة الصغيرة - اتخذوا مهنتهم النبيلة تجارة ، وجروا فيها على « روتين » جامد ، لا اجتهد فيه . . ولم يسر عنه اساه سوى « دينى » - وهو زميل شاب سبقه الى المهنة ، وكان يعمل مساعدا لطبيب آخر ، وقد اوشك اليأس ان يهلكه من الاوضاع السائدة - كما خفقت عنه الضيق معلمة شامة فى مدرسة للأطفال ، تدعى « كريستين بارلو » .

ولكن احتمال « أندرو » بلغ اقصاه حين تبين أن « بلودوين بيندج » - زوجة رئيسه الطبيب المريض - كانت تستغل جهوده ، وتستأثر بأكبر قدر من دخل العيادة والمستوصف . . الى أن اتهمته بأنه كان يسرق رزق زوجها القعيد ، لمجرد انه تقبل هدية مالية من عميل كادت زوجته تفقد حياتها - وهى تضع المولود الذى كانا يتلهفان شوقا الى انجابه - فانقذ « أندرو » بتفانيه حياة الزوجة والوليد .

وثار من أجل كرامته ، فاستقال من منصبه . . ولم يكن يملك شيئا ، فقد كان فقيرا ، وكان مدينا لاحدى المؤسسات الخيرية بنفقات تعليمه ، فكان يقطع من مرتبه - فى كل شهر - جزءا يسعد به بعض هذه النفقات . واخذ يتتبع اعلانات المجلة الطبية بحثا عن منصب . . وارسل طلبات عديدة ، ولكنه لم يكن يتلقى ردا . . وعندما اوشك اليأس ان يستبد به ، اطلعه صديقه « دينى » على ان جمعية الاسعاف الطبي فى (ايرالو) - وهى من مراكز مناجم الفحم

— كانت بحاجة الى طبيب مساعد ، فاسرع يتقدم لهذا المنصب ، واستطاع ان يفوز به على من كانوا يستندون الى الوساطات والمحسوبية ..

وكان من الشروط الجوهرية لمن يشغل هذا المنصب ان يكون متزوجا .. وبادر « أندرو » الى « كريستين » يطلب يدها ، وسرعان ما تزوجا .. وفي اليوم الذي عقد زفافهما في صبيحته ، رحلا الى (ايرالو) ، وتسلم « أندرو » المنصب الجديد

وكم صدم « أندرو » في مثله العليا ، عندما تبين ان كبير اطباء الجمعية — « الدكتور ليولين » — كان يشغل حوالى خمسة مناصب في آن واحد ، وكان يتقاضى من مساعديه خمس دخلهم ، ضريبة استحلها لنفسه بزعم انه كان يعنى بمرضاهم .. وزاد من اساءه ان بقية زملائه كانوا يمنحون « الشهادات المرضية » جزافا للعمال الذين كانوا يريدون التحايل للحصول على اجازات او على مبالغ تعويضية من ادارة المناجم .. بل ان الاطباء كانوا يجعلون من انفسهم مطايا لاعضاء مجلس ادارة الجمعية من العمال ..

والى « أندرو » على نفسه ان يعالج هذه الاوضاع ، فاخذ العمال ينفضون عنه ، وبدأت سماء حياته تكفهر بغيوم المتاعب .. لكنه فوجئ ذات يوم بسكرتير نقابة العمال يعود لينخرط في سلك مرضاه ، بعد أن وثق من براعته في العلاج على اثر حادث اصاب فيه عامل يدعى « توم ايفانز » ، فوصف له أندرو علاجا معينا لكنه رفض استعماله واتبع علاجا اوصت به ممرضة جاهلة ، فالتوى مرفقه ولم يعد يستطيع استخدامه ، الامر الذى افقده عمله في المناجم ، كما حرم من أى تعويض نظرا لانه اصاب وهو في بيته !

وذاع في البلدة نبأ عودة سكرتير النقابة الى سلك مرضى أندرو ، فساعد ذلك على الحد من اعراض الجمهور عن الطبيب الجديد ، وارتفعت « اسهمه » في مجتمع البلدة .. فصار

يدعى وزوجته الى بيوت الاغنياء والبارزين •

وانقضى الشتاء .. وانهمك اندرو في بحث طبي تحمس له ، هو فحص أثر غبار المناجم والمحاجر على رئات العمال ، وتسببه في اصابة نسبة كبيرة منهم بالسسل الرئوى . وذات يوم اقبل لزيارته في بيته زميله القديم الدكتور « دينى » ، فعلم منه نبأ وفاة الدكتور « بيدج » رئيس اندرو القديم في (بلينيللى) ، وقرب زواج أرملته « بلودوين » من صديق لها . وذات يوم تعرف اندرو بطبيب أسنان يدعى « كون بولاند » ، فاعجب بشخصيته .. وتلاقى افكارهما عند الرغبة في التمرد على « الاتاوة » التى يفرضها الدكتور « ليولين » على أطباء البلدة . وبالفعل قاما بدعوة زملائهما الى اجتماع لتنظيم التمرد . ولكن بقية الاطباء جنوا عن تنفيذ الخطة ، وآثروا السلامة !

واحنقت الهزيمة اندرو ، وراح يفكر في الاسباب التى مكنت « ليولين » من السيطرة عليهم واستغلالهم ، فانتهى الى انه لا يمتاز عليهم الا بدبلوم التخصص الذى يحمله .. وتطرق تفكير اندرو في ذلك الى اعتزام الحصول على لقب « زميل » في كلية الطب الملكية ، رغم ما يتطلبه ذلك من دراسة طويلة مرهقة ، فضلا عن وجوب التمهيد لها بدراسة اللغات اللاتينية والفرنسية واليونانية والالمانية !

وبعد شهور من لاعتكاف والجهد الشاق ، سافر اندرو الى لندن ليؤدى الامتحان ، ثم عاد ظافرا باللقب المرموق . وبمجرد عودته استدعى لاجراء جراحة عاجلة لعامل انهار عليه سقف المنجم ، فانقذه اندرو ببتز ذرعه ، بعد مجهود كبير . وعلى أثر ذلك ارتفع قدره في البلدة كطبيب بارع ، وتقاطر عليه المرضى وعمال المناجم .

وأسرت اليه كريستين ذات يوم انها حامل ، ولكن فرحتهما بالامر لم تطل ، اذ لم تلبث الزوجة ان فقدت الجنين على اثر سقوطها وهى تعبر فنظرة متداعية بالبلدة ! .. ولم يخفف

من ألم الصدمة في نفس اندرو غير انشغاله بأبحاثه الخاصة
بأثر الغبار في إصابة العمال بالسيل . وكان يجري تجاربه على
مجموعة من الفيران اقتناها في معمله لهذا الغرض . لكن
أعداءه وحاسديه الذين احنقهم نجاحه البوا الاذهان ضده
حتى افلحوا في تقديمه الى محاكمة تأديبية ، بتهمة « تعذيب
الحيوانات » ! . . وفي تلك الاثناء جاء النبأ بمنحه درجة
« الدكتوراه » في الطب على رسالته الخاصة بأبحاث السل
الناشئ عن الغبار ، وانتهت « المحاكمة » بالفشل ، لكنه رأى
استحالة بقائه في البلدة في جو مشحون بالبغضاء . . فقدم
استقالته من منصبه ، وسافر مع زوجته الى فرنسا
للاستمتاع بأول « اجازة » حقيقية لهما . . ثم عادا الى لندن
حيث عين في منصب بمصانع الفحم والتعدين ، لكن « الروتين »
الفاقد و « غير » كبار الاطباء جعلتهم يضعفونه « على الارف » ،
في أهل لا صلة له بدؤهلاته . . فقدم استقالته !

ولم يجد مفرا من افتتاح عيادة - في شارع « تشيسبورو
تيراس » - يمارس فيها مهنته لحسابه الخاص . . لكنه
صادف كسادا يشبط الهممة ، حتى التقى بزميله القديم
الوصولي « فريدي هامبتون » ، الذي عرفه باثنين آخرين من
« عصبته » هما : « ايفوري » و « فريدمان » ، وكان ثلاثتهم
يحتالون على نساء الطبقة الراقية فيعاجونهن من أمراضهن
الوهمية او التافهة ، مقابل مبالغ خيالية من المال ! وذات يوم
أرسلت اليه « مرسميث » - صاحبة محل البدالة المجاور -
مريضة كانت تعمل بمحل « لورييه » للازياء ، فشفأها من
مرض حار فيه الاطباء ، فكان ذلك بدء صعود نجمه ، اذ ساق
الى عيادته بقية عاملات المتجر وزائراته من سيدات الطبقة
المترفة . وكم صدم اندرو حين نصحته عجوز منهن ذات يوم
بأن يذهب الى حائك مشهور للثياب ، فانه لن يبلغ النجاح
الذي يرجوه طالما كان زرى الهيئة !

والآن تستطيع أن تواصل قراءة القصة ;

— ٥ —

♦ كان اندرو مزهوا كالتلميذ ، حينما هبط بعد خمسة عشر يوما مرتديا احدى بذلاتيه الجديدتين .. كانت بذلة رمادية ، لسترتها صفان من الازرار ، وقد لبس معها - وفقا لنصح روجرز - قميصا ذا ياقة مائلة ، وربطة عنق عريضة تنسجم مع اللون الرمادى .. ولم يكن ثمة شك فى أن هذا الحائك يعرف مهنته تماما ، وقد أوصاه الكابتن ستون باندرو ، فكانت هذه التوصية كافية لان يبدع فى صنعة البذلتين .

واتفق ان كانت كريستين متوعدة - فى ذلك الصباح - ان كانت تشكو من الم فى الحنجرة ، وقد لفت رقبته ورأسها بغلالة قديمة . فتملكتها الدهشة فجأة ، وهى تصب القهوة لزوجها ، وبدا عليها الاعجاب حينما رآته فى لباسه الفاتن ، حتى لقد انقضت لحظة قبل أن تقوى على أن تقول له : « أوه ! يا اندرو ، ما أجملك ! .. اذهب انت الى مكان ما ؟ » . فأجاب : « الى مكان ما ؟! .. اننى ذاهب طبعاً الى عيادتي ، وإلى الزيارات التى تقتضيها مهنتى ! » . ثم اردف مستنكرا : « أهذا يروقك ؟ » . فقالت غير متعجلة ، بالقدر الذى كان كفيلا بأن يهدىء من روعه : « أجل ، ان هذه البذلة بديدة للغاية ! » . ثم ضحكت واردفت : « ولكنى لا أدري لماذا تبدو لى فيها وكأنك لم تهدأ أنت ! »

- لا شك فى انك تفضلين ان ابدو دائما فى هيئة صعلوك ولم تعقب بشئ .. وفجأة ، تقلصت يدها وهى تتناول قدحها ، الى حد أن ابيضت مفاصلها . فقال فى نفسه : « آه ! .. لقد ألزمتها حدودها ! » .. وأتم افطاره ، ودلف الى مكتبه .. وان هى الا خمس دقائق ، حتى لحقت به فى المكتب - ورقبتها ملفوفة - وقالت فى رجاء يخالجه استحياء :

« لا تسىء فهم ما قلت يا حبيبى .. لكم انا سعيدة اذ اراك فى هذه البذلة الجديدة الجميلة .. اننى لاتمنى ان يكون لك كل شيء .. ان يكون لك كل ما هو حسن ! .. اننى آسفة لما قلت منذ لحظة ، فانت تدرك اننى قد عرفتك دائما - وارجو أن لا تسىء فهمى - شخصا لا يكثر اطلاقا بمظهره المادى ، ولا بما يقوله الناس عن مظهره .. أتذكر رأس « ايبستين » ، الذى رأيناه معا ؟ .. أنه ما كان ليبدو لنا بالشكل الذى اعجبنا به ، لو أنه نطق ووصل ! .. » فأجاب فى خشونة : « ولكننى لست رأس ايبستين ! » ..

ولم تحرر كريستين جوابا ، فقد أصبح أندرو - منذ فترة - صريحا ، يتعذر التفاهم معه .. ولقد ساءها هذا الخلاف ، ولكنها لم تدر ماذا تقول ، فأنصرفت وفى نفسها غصة !

وبعد ثلاثة أسابيع كوفى أندرو على اتباعه مشورة مريضته - الأنسة ايفيريت - اذ أقبلت ابنة أخيها لتقيم بعض الوقت فى لندن ، فاستدعته مس ايفيريت بذريعة ما الى (بارك جاردنز) ، حيث فحصته بصرامة ، وان بدا عليها الارتياح . واحس بأنها تستقبله وكأنه مرشح تريد أن تزكيه ! .. ولم يلبث أن تلقى - فى اليوم التالى - دعوة من مسز ستون ، فالظاهر أن ذلك المرض الذى عالج عمته منه - زكام الصيف - كان قد انتشر فى الاسرة ! .. ولم يتخرج هذه المرة من حقن المريضة بالدواء عديم الجدوى ، الذى ينتجه بيت « جليكيرت » الشهير . وكان لمنظر أندرو وقع حسن للغاية فى نفس مسز ستون . وقبل أن ينقضى شهر ، استدعى الى دار احدى صديقات مس ايفيريت ، وكانت هى الاخرى تقيم فى مسكن فى (بارك جاردنز) . وأصبح مغتبطا بنفسه كل الاغتياب ، اذ راح يتقدم .. كان يمشى قدما نحو النصر ، وكانت جهوده المضنية فى سبيل النجاح تنسيه مدى تعارض هذا النجاح مع كل ما كان يؤمن به من قبل ! .. فلقد أثار التوفيق غروره ، فأصبح يقظا ،

شيطا ، تملأ الثقة جوانحه . ولم يجبل بخاطره أن نقطة لانطلاق في اقبال هؤلاء المرضى الدنيويين عليه ، انما كانت تلك الالمانية البديئة القابعة في حانوت البدالة ، بقرب السوق الشعبي في (موسلبيرج) . والواقع ان سيل هذه الطائفة من المرضى كان قد انقطع - قبل أن يفكر هو في الامر - وانفتح امامه افق آخر اوسع واروع .

وبينما كان في مكتبه ذات اصيل من شهر يونيو ، فيما بين الثانية والرابعة - وهي الفترة التي لا يحدث فيها عادة شيء ذو بال - أخذ يكتب قائمة دخله ، واذا جرس التليفون يرن فجأة ، فرفع السماعة في ثلاث ثوان ، وقال : « نعم ، نعم ، انا الدكتور مانسون ! » . وواتاه صوت يلهث جزعا : « آه ! يا دكتور ، لكم أنا سعيد اذ أجدك في دارك .. مستر (وينش) هو الذي يكلمك .. مستر وينش من بيت لورييه للأزياء . لقد وقع حادث بسيط لاحدى عميلاتنا ، فهل يهمكنك الحضور .. الحضور قورا ؟ .. »

فأجاب : « سأكون عندكم بعد اربع دقائق ! » واعاد السماع الى مكانه ، وأسرع بتناول قبعته . وما أن بلغ الشارع ، حتى قفز الى حافلة كانت مارة في تلك اللحظة . وبعد اربع دقائق ونصف ، كان يعبر الباب الدوار ، في «لورييه» . واستقبلته مس « كرامب » قلقة أشد القلق ، وسارت به في ردهة مفروشة بالابسطة الخضراء ، تحف بها مرايا وزخارف ورسوم واشكال بارزة في اطارات مذهبة . وكانت تسرع الخطى ، وهي تشرح الامر في جد واهتمام : « انها مس لى روى يا دكتور مانسون .. احدى عميلاتنا . واحمد الله انها ليست غميلي . فهي مصدر متاعب دائما . وانت تدرك يا دكتور اننى تحدثت الى مستر وينش عنك .. » . فقاطعتها

في لهجة تمنعها من الاسترسال : « شكرا لك » .. فقد كان يعرف كيف يباغت عند الاقتضاء . ثم سألها : « وماذا حدث ؟ » - يبدو يا دكتور .. يبدو أن أزمة انتابتها وهى فى « صالون البروفات »

وبلغا قمة السلم العريض ، فتركت مس كرامب الطبيب لمستر وينش الذى كان الاضطراب باديا على سحنته الوردية ، والذى غمغم له : « تفضل من هنا يا دكتور .. من هنا . آمل أن يكون فى استطاعتك عمل شيء ما ... انه لحادث تعس للغاية ! » .. وفى « صالون البروفات » - الدافئ المفروش بالابسطة الفاخرة الخضراء ، والذى ازدانت جدرانها بالاطارات المذهبة - وجدا جمعا من النساء يولوان منتحبات ، ومقعدا مقلوبا ، ومنشفة على الأرض ، وقدر ماء مسكوب ، وامارات الفوضى والهرج .. وفى وسط العويل والاضطراب ، كانت مس « لى روى » - ضحية الازمة - منطرحة على الارض ، وقد تقلصت يداها فى تشنج ، وتصلبت قدمها .. وكانت تصعد من حنجرتها المتقلصة ما يشبه النعيق ، بين آن وآخر . واذا دخل اندرو ووينش ، انفجرت امرأة مسنة - من العائلات المتجمعات هناك - فى البكاء ، وقالت وهى تنتحب : « لا ذنب لى .. اننى لم افعل اكثر من ان قلت لمس « لى روى » ان الثرب صنع وفقا للنموذج الذى وقع عليه اختيارها » .. فغمغم مستر وينش : « يا الهى ، يا الهى .. ما اشنع هذا ! .. هل اطلب الاسعاف بالتليفون ؟ » .. فقال اندرو فى لهجة غريبة : « لا .. ليس الآن ! » . ثم انحنى على المريضة الفاقدة الوعى .. كانت فى مقتبل العمر - فى نحو الرابعة والعشرين - ذات عينين زرقاوين ، وشعر فى نعومة الحرير ، مصبوغ ، وقد تناثر تحت قبعة صغيرة منحرفة . وكان تصلب أطرافها واختلاجاتها التشنجية تتزايد ..

وبجوارها في الجانب الآخر ، كانت ثمة امرأة ذات عينين سوداوين ، جاثية على ركبتيها ، بادية القلق ، ولا شك في أنها كانت إحدى صديقاتها . . وكانت تغمغم بلا انقطاع : « اواه ! . . توبى ، توبى ! » وقال أندرو بغتة : « اخرجوا من هذه الغرفة » أرجوكم . أريد أن يخرج الجميع ما عدا . . » ، وصبوب نظره الى المرأة الشابة الشقراء : « ما عدا هذه السيئة ! » .

وأنصرفت العاملات على مضض ، فقد كان في مشاهدة تشنج العميلة لون من التسلية . . وما ان خلت الغرفة - الا من أندرو والسيدة الصديقة - حتى تفاقت حالة المريضة بشكل مرعب ، فقال أندرو بصوت واضح جلى : « انها لحالة جد خطيرة ! » . ودارت مقلتا مس لى روى فى محجريهما نحوه ، بيتما استطرذ قائلا : « اعطينى مقعدا من فضلك ؟ » . فأحضرت الصديقة المقعد المقلوب ، ووضعت وسط الصالون . ورفع أندرو المريضة من ابطيها فى رفق شديد ، وساعدها على الجلوس وجعلها ترفع رأسها المائل . . ثم قال فى عطف ضاف : « آه ، هكذا ! »

وفجأة ، صفعها براحة يده على خدها صفعة مدوية . وكان هذا أجراً على أقدم عليه عند شهور عديدة ، وقد ظل كذلك أجراً ما أقدم عليه لعدة اشهر مقبلة ، للأسف !



وكفت مس « لى روى » عن النعيق ، وهذات الاختلاجات ، ولم تعد مقلتها تدوران فى محجريهما .. واخذت تتأمله فى دهشة واجمة ، كما لى كانت طفلة .. وقبل أن تعود الى تأمله مرة أخرى ، صفعها بنفس القوة على خدها الآخر . فاذا النوجوم الذى ارتسم على وجه الفتاة يدعو الى الضحك . ثم ارتعشت وبدا كأنها توشك أن تطلق من جديد صيحات مختنقة . واخذت تبكى هونا ، ثم قالت لصديقتها والدموع تترقرق فى عينها : « أريد العودة الى البيت يا عزيزتى » . فنظر أندرو الى المرأة الشابة الشقراء ، وكأنه يعتذر ، بينما راحت تتأمله فى خليط من استياء واهتمام غريب . وغمغم : « اننى اعتذر .. لم تكن هناك وسيلة أخرى . انها أزمة عصبية خطيرة .. اختلاجات تشنجية فى الاطراف ، وكان من المحتمل أن تؤذى نفسها ، وليس عندى مخدر أو أى شئ ! .. وعلى أية حال ، فقد أدى ما فعلت الى النتيجة المرجوة ! »

— أجل ، كانت النتيجة باهرة .

— دعيتها تتخفف بالبكاء ، فهو صمام أمان جيد . وستعود الى حالتها الطبيعية بعد بضع دقائق .

— ومع هذا ، أنتظر .. يجب أن تصحبها الى دارها ! فقال فى لهجة الطبيب : « فليكن ! » .. واستطاعت « تروى لى روى » أن تصلح من مظهر وجهها بعد خمس دقائق ، بعد جهد تخللته بعض تنهدات متباعدة . ثم سألت صديقتها : « احسبني لست بالغة القبح يا عزيزتى ؟ » .. ولم تعر أندرو أى انتباه !

وبرحوا « صالون البروفات » ، فأحدث عبورهم صالة العرض الطويلة تيارا من الانفعال . وبلغ من دهشة مستر وينش وارتياحه انه لم يقو على الكلام ، فما عرف ، ولا كان

بوسعه ان يعرف ، كيف أصبحت السيدة التى تصلبت اطرافها ،
قادرة على المشى ! وتبعهم ، وهو يتمم بعبارات التبجيل
والاحترام ، حتى اذا عبر أندرو الباب الكبير - خلف المرأتين -
مد اليه منفعلا يدا رطبة . . وسرعان ما انطلقت السيارة بهم
ومعهم اندرو عبر شارع (بايز ووتر) ، فى اتجاه (ماربل
آرش) .

ولم يحاولوا مجرد الكلام . فقد كانت مس « لى روى »
حائقة ، كطفل مدلل تعرض للعقاب . . وظلت مضطربة ،
يختلج وجهها ويدها - الفينة بعد الفينة - دون ما ارادة
منها . . واذا أصبحت قريبة من حائتها الطبيعية ، تبين أندرو
انها كانت جميلة رغم نحولها . . وكانت رائعة الهندام ، ومع
هذا فانها كانت تبدو أشبه بهصفور تسرى فى جسده تيارات
كهربائية متعاقبة ! . . وكان - هو الآخر - متوتر الاعصاب ،
يدرك تماما حرج موقفه ، ولكنه صمم على أن يفيد من هذا
الموقف قدر المستطاع .

ودارت العربدة حول (ماربل آرش) ، وسارت بمحاذاة
(هايد بارك) ، ثم عرجت الى اليسار ، ووقفت أمام دار فى
(جرين ستريت) ، دخلوها على الفور . وبهر اثاثها أندرو ،
فما تصور يوما كل هذا البذخ : ردهة كبيرة تزينها زخارف
خشبية ثمينة ، وصالون صغير حافل بالنقوش الاخاذة ، تزينه
لوحة زيتية غريبة فى اطار من خشب نادر ، ومقاعد مطلية
باللاكه الذهبى المائل الى الحمرة ، وأرائك عريضة ، وبسطة
قديمة الطراز ، خفيفة الالوان . . وتهالكت « توبى لى روى »
فوق أريكة عليها وسائد من « الساتان » ، وهى لا تزال غير
حافلة بوجود أندرو ، ثم خلعت قبعتها الصغيرة وألقت بها
على الارض ، وقالت لصديقتها : « اضغطى زر الجرس
يا عزيزتى ، ليحضر الخادم شيئا من الشراب لى . شكرا لله
أن عدت الى دارى ! »

وبعد هنيهة ، جاء خادم يحمل أقداح الكوكتيل ، فما ان
 برح الصالون ، حتى نظرت صديقة توبى الى أندرو بادية
 التفكير ، وقد علت شفثيها شبه ابتسامة : « أحسب يادكتور
 أنه يجب أن نشرح لك ما حدث . لقد تعاقبت الامور في سرعة
 مذهلة . اننى ادعى مسز « لورنس » ، وقد غضبت صديقتى
 « توبى » - مس لى روى - لخطأ في صدر ثوب أوصت بصنعه
 خصيصا لحفلة الرقص الخيرية للفنون و .. يا الهى ، لقد
 أرهقت نفسها كثيرا في الايام الاخيرة ، فهي جد عصبية ! ..
 وقصارى القول ، اننا جد شاكرتين لك ان رافقتنا الى هنا ،
 برغم ان توبى حانقة عليك ! .. وسأخذ قدحا ثانيا من
 الكوكتيل تعبيراً عن ذلك ! »

وقالت توبى في اكتئاب : « وأنا الاخرى ! .. يا لتلك المرأة
 اللعينة في متجر « لورييه » ! .. سأقول لابی كى يتصل
 تليفونيا بالمحل لفصلها .. ولكن ، لا ، لن أفعل هذا ! » ..
 وأشرق وجهها شيئا فشيئا ، وهى ترتشف قدحها الثانية ،
 واستطردت : « لقد سببت لهم فزعا ، على أية حال ، اليس
 كذلك يا فرانسيس ؟ .. لقد فقدت زمام أعصابى . وكان
 موقف « ماما » ووينش العجوز غاية في الطرافة ! » .. وراح
 جسمها النحيل يهتز من الضحك . ونظرت الى عيني أندرو ،
 فى غير ما ضغينة ، وهتفت : « اضحك يا دكتور ، فان الحادث
 كان مضحكا للغاية ! »

وقال أندرو : « لست أرى ان الامر كان مضحكا الى هذا
 الحد ! » .. وكانت الكلمات تتواثب من فمه ، وهو تواق الى
 أن يشرح المسألة ، ويبين موقفه ، ويقنعها بأنها كانت مريضة :
 « لقد أصابتك نوبة تشنجية شديدة . ويؤسفنى ان اضطررت
 الى سلوك ذلك المسلك معك .. لو كنت أحمل مخدوا لخدوتك ،
 فهذا أهون مضايقة لك .. وأرجو أن لا تتصورى اننى أظن
 انك تشنجت عمدا ، فان للهستيريا - وهذه في الواقع حالتك

— اعراضا محددة ، ولا ينبغي معالجتها باستهتار ، لانها حالة
تنتاب الجهاز العصبي .. اقربين يا آنسة ؟ .. انك مرهقة
غاية الارهاق ، وجميع أعصابك متوترة أشد التوتر ! »

فقالت فرانسيس لورنس مرافقة : « هذا صحيح تماما .
انك يا توبى تحملين نفسك فوق ما تطيق ، منذ زمن ! » .
وتساءلت توبى في عجب الطفلة الصغيرة : « أكنت ستخدرني
بالكلوروفورم حقا ؟ .. كان هذا ادعى للطرافة ! » . فقالت
مسز لورانس : « ولكنى — فى الحق — ارجو ان ننزله يا توبى ! » .
فقالت الفتاة وقد ولى اشراقها : « لكأننى اسمع بابا ! »

وساد الصمت فترة ، فرغ اندرو خلالها من شرب كوكتيله ،
فوضع الكأس فوق حافة المدفأة المصنوعة من خشب الصنوبر
الموشى بنقوش محفورة .. ولم يكن فى وسعه ان يفعل غير
هذا . ثم قال فى رصانة : « آن لى ان انصرف الى عملى .
اصغى الى نصحى يا آنسة ، أرجوك ! .. تناولى فى العشاء
طعاما خفيفا ، والزمنى فراشك . وبما أنه لم يعد لدى ما أفعله
لك ، فاستدعى طبيبك غدا ! .. الى اللقاء ! » . وصحبته
مسز لورنس الى الردهة فى خطى جد وثيدة ، حتى انه
اضطر الى أن يخفف من سرعة خطاه .. وكانت طويلة القامة ،
نحيلة ، عالية الكتفين شيئا ما ، ذات رأس صغير رشيق ،
وقد تخللت شعرها المدهوج — على غمط رائع — بضع خصلات
سجانية ، اصفت عليها رواء ملحوظ . ومع ذلك ، فقد كانت
صغيرة السن ، لم تتجاوز السابعة والعشرين ، كما اتضح
لاندرو بما لا مجال للشك فيه .. ومدت اليه يدها وهى تتفرس
فيه بعينيهما اللتين كانتا فى اون البندق الاخضر ، وقد ارتسمت
على شفتيهما ابتسامة رقيقة هادئة . ثم قالت : « انما أحب
ان اعبر لك عن اعجابى بطريقتك المستكرة فى العلاج ، فلا تعدل
عنها لآى سبب من الاسباب ، اذ أننى اتنبأ بأنها ستجلب لك
نجاحا باهرا ! »

وأدهشه — وهو يسير في (جرين ستريت) ليستقل الحافلة — ان تبين أن الساعة كانت قريبة من الخامسة ، وقد أنفق ثلاث ساعات مع هاتين المرأتين . وكان من حقه أن يطلب اتعابا مناسبة ، غير أنه أحس بارتباك وعدم ارتياح ، برغم ذلك الرأي الذي قيل في « طريقته المبتكرة » ! .. وراح يسائل نفسه : ترى هل أفاد حقا — الى أقصى حد ممكن — من هذه الفرصة التي سنحت له ؟ .. لقد بدا أنه راق لناظري مسز لورنس ، ولكن هل من الممكن أن يعرف المرء طوية أشخاص من هذا النوع ؟ .. وتلك الدار ، ما كان أبدعها !

وعبس فجأة ، وهو ساخط على نفسه ، فهو لم يسه عن ترك بطاقته فحسب ، بل فاته أيضا ان يذكر لهما اسمه .. وراح يلرم نفسه — وهو جالس في الحافلة المزدحمة بالركاب ، بجانب عامل مسن في لباس قدر — اذ اضاع فرصة ثمينة كهذه !

— ٦ —

♦ في الحادية عشرة والرابع من صباح اليوم التالي ، رن جرس التليفون بينما كان اندرو يهم بالخروج لاداء عيادات زهيدة الاتعاب ، حول سوق (مرسلبيرج) . وواتاه — خلال السماع — صوت خادم يسأله في أدب جم ، واحترام كثير : « السيد الدكتور مانسون ؟ .. آه ! ان مس لى روى تود ان تعرف في أى وقت سيأتى السيد الدكتور ليعودها اليوم .. آه ، عفرا يا سيدى ، استبق السماع ، فستكلمك مسز لورنس بنفسها ! » .. واستمع أندرو — في انفصال شديد — الى مسز لورنس تتحدث اليه في تلفظ ، لتقول له انهما في انتظاره ، وأنه لابد من حضوره .. وقال في نفسه مفتبطا — وهو بعيد السماع — انه لم يضيع بالامس اذن الفرصة الثمينة ! .. وعدل عن عياداته الاخرى جميعا — العاجلة منها

وغير العاجلة - ليذهب مباشرة الى (جرين ستريت) . وهناك ، رأى - للمرة الاولى - مستر جوزيف لى روى ينتظره نافذ الصبر ، فى البهو الخافل بصنوف النقوش وازخارف المذهبة . وكان رجلا بدينا ، اصلع ، ممتلىء الخدين ، غير متكلف ولا متعجرف . . . تتم طريقته فى اجتذاب الانفاس من سيجاره ، على انه ليس ممن يجدون من الوقت فسحة يضيعونها ، واستطاع بنظرة واحدة ان يفحص شخصية اندرو ، وكأنه أجرى له جراحة سريعة ، انتهت الى ارتياحه التام ، فلم يلبث أن تكلم بصوت جهورى ، ولكنه أهل المستعمرات : « اصغ الى يا دكتور ، فانا فى عجلة من أمرى . . لقد عانت مسز لورنس هذا الصباح مشقة كبرى فى البحث عنك . . ولقد قيل لى انك شاب موهوب ، وانك لا تسف ولا تحب الترهات . . أنت متزوج ، اليس كذلك ؟ هذا حسن ! . . اذن فتول شأن ابنتى ، وأعد لها صفاء حياتها ، وقوها ، وخلصها من هذه النوبات العصبية اللعينة . . افعل كل ما يلزم ، ففى وسعى ان أنفق بسخاء . . الى اللقاء ! »

كان الرجل من أبناء نيوزيلندا . . وبرغم ثرائه ، وأناقته داره فى (جرين ستريت) ، وغرابة أطرار ابنته « توبى » المدللة ، فإنه لم يكن من العسير على المرء أن يصدق أن جده الاكبر كان عاملا اميا صغيرا ، فى المزارع المحيطة بميناء (جرايموث) . . وكان هذا الجد يدعى « ميتشل كليرى » ، فاعتاد شركاؤه فى البؤس ان ينادوه - فى غير كلفة - باسم « ليرى » . . وهكذا بدأ حفيده « جوزيف لى روى » حياته باسم « جو ليرى » ، كغلام يمتحن حلب الابقار فى مزارع (جرايموث) الكبرى . بيد انه كان قد خلق لحلب ما هو خير من الابقار ، كما اعتاد ان يعبر بأسلوبه . . وكان هو عين « جوزيف لى روى » الذى وقع بعد ثلاثين عاما من ذلك

الحين - وفي أعلى طابق من أول ناطحة سحاب في (اوكلاند) - الوثيقة التي ضمت مزارع انتاج اللبن في الجزيرة في اتحاد ضخيم لصناعة اللبن المجفف . . وكان هذا مشروعاً سحرياً ، أطلق عليه اسم : « اتحاد كريموجين » . . فان اللبن المجفف لم يكن معروفاً في ذلك الحين ، ولم تكن تجارته منظمة . وكان « لى روى » هو الذى فطن الى ما لتنظيم انتاج اللبن المجفف من احتمالات ، والذى قاد الحملة في المسروق العالمية ، فقام بدعاية واسعة النطاق لهذا الغذاء الذى يعتبر نعمة من الله للأطفال والمرضى . ولم تكن « زبدة » هذا المشروع في منتجاته ، بقدر ما كانت في جرأة لى روى واقدامه . فقد كانت فضلات اللبن المنزوع القشدة - في مئات من مزارع نيوزيلندا - تلقى في القنوات ، أو تعطى للخنازير ، فأصبحت تباع بثلاثة أمثال ثمن اللبن الطازج ، في مدن العالم قاطبة ، بعد أن عُبئت في علب من الصفيح ، مغلفة بأوراق رسمت عليها صور براقية ، وقد كتب عليها : « كريموجين » ، و « كريمو » ، و « كريميفا » .

وكان المدير الثانى للاتحاد الذى انشأه « لى روى » ، ومدير فروعه بانجلترا ، هو « جاك لورنس » الذى كان قبل ان يقتحم ميدان الاعمال ، ضابطاً في الحرس الملكى ، وهذا أمر قد لا يسيغه المنطق كثيراً ! . . على أن شيئاً آخر - أكثر من المشاركة التجارية - قرب بين « مسز لورنس » ، زوجة الثانى ، وبين « توبى » ، ابنة الاول . . فقد كانت لفرانسييس لورنس ثروة خاصة ، وكانت تتألق في المجتمعات الانيقة ، أكثر مما كانت تتألق توبى ، التى كانت تشي أحياناً بأصلها النيوزيلندى . وقد أحبت مسز لورنس هذه الصبية المدللة !

وعندما صعد أندرو الى مخدع « توبى » ، عقب حديثه مع أبيها ، وجد فرانسييس لورنس في انتظاره . . والحق أنها اعتادت - بعد ذلك - أن تكون الى جانب المريضة المتوترة

الاعصاب ، الصعبة المراس ، عندما أخذ يعودها في كل يوم ، فكانت تساعد ، وتبين أى تحسن يطرأ عليها ، وتستحثها على أن تستمر في العلاج ، وتسال الطبيب عن موعد زيارته القادمة .. ومع عرفان اندرو بصنيع مسز لورنس ، فان اهتمامها بأمره بعث في نفسه شعورا غريبا محيرا ، فقد كان يعرف أن هذه السيدة الارستقراطية قد اعتادت أن تختار أصدقاءها .. بل كان يعرف - حتى قبل ان يرى صورتها في المجلات الاسبوعية المصورة - انها كثيرة التحفظ . لذلك فقد حيره أن تبدى نحوه ذلك الميل المتحفظ . كان فمها يتقلص استهجانا أزاء أولئك الذين لم يكونوا مقربين اليها ، ومع ذلك فانها لم تبد له أى استهجان او نفور ، لسبب ما .. !

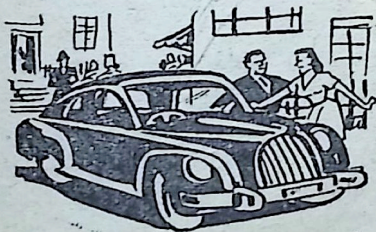
وتولته رغبة طاغية - تفوق مجرد الفضول - في أن يعرض صميم طبيعتها .. في أن يعرف شخصيتها ، فقد لاح له انه لم يكن يعرف شيئا عن مسز لورنس الحقيقية . وأصبح يجد متعة في أن يتابع تناسق حركات جسمها وهى تروح وتجيء في الغرفة .. كانت بقطة لكل حركة تصدر عنها ، وكان ذهنها يعمل دائما خلف عينيها المتحفظتين ، رغم لطف حديثها وخلوه من الكلفة !

ولم يكد يفطن الى انها هى التى اوحت بأن يعود « توبى » يوميا .. ومع انه لم يقل شيئا لكريستين - التى ظلت تراعى في ميزانية بيتها الاقتصاد التام ، فتحسب حساب الشلن والبنس - الا انه بدا يسائل نفسه في تلهف : كيف يتسنى لطبيب أن يجتذب عملاء من المجتمع الراقي ، دون أن تكون له سيارة أنيقة ؟ .. كان من المضحك حقا ، أن يتصور منظره وهو يصل الى (جرين ستريت) ، حاملا حقيسته الطبية ، وقد علا التراب حذاءه ! .. ترى ماذا يقول الخادم المتعالي ، حين يستقبل هذا الزائر الذى لا يملك سيارة ؟ .. وكانت في مؤخرة داره حظيرة للسيارات مبنية

بالطوب ، مما يوفر قيمة ايجار « الجاراج » .. كما كانت هناك متاجر تخصصت في بيع سيارات للأطباء ، وكانت مؤسسات رائعة لا تتردد في استيفاء الثمن على أقساط .

★ ★ ★

وان هي الا ثلاثة أسابيع ، حتى استقرت ذات يوم - امام المنزل رقم (٩) ، في (تشيسبورو تيراس) - سيارة « كريبه » ، بنية اللون ، ذات سقف متحرك ، وذات أجزاء معدنية براقه توحى بجدها .. وقفز منها أندرو ، فصعد السلم في عجلة ، وهو ينادى زوجته بصوت كانت الغبطة تخنقه : « كريستين ، كريستين ، تعالى وانظري ! » .. وكان قد دبر الامر بحيث يباغتها ويدهشها .. ونجح تديره ، اذ هتفت : « يا الهى ! » . ثم ارتمت بين ذراعيه دهى تتساءل : « أهى لنا ؟ ! .. اوه ! لكم هي رائعة ! » . فقال : « اتعجبك ؟ خذى حذرك يا عزيزتى من الطلاء ! » وابتسم لها كذى قبل تماما ، وهو يستطرد قائلا : « مفاجأة لا بأس بها ، اليس كذلك يا كريس ؟ .. لقد اشتريتها ، واستخرجت الرخصة ، وعملت كل ما يلزم ، دون ان اقول لك كلمة . انها ليست كالسيارة « الموريس » القديمة .. اصعدى يا سيدتى وسأريك .. انها تطير كعصفور ! »



لكم كانت شديدة الاعجاب بالعربة الصغيرة ، وهو يصحبها - عارية الرأس - في جولة حول الميدان . وعادا بعد خمس دقائق ، فظل أندرو واقفا على الافريز ، يتأمل كنزه بقى نهم .. وكانت اللحظات التي يخلو فيها كل منهما الى الآخر ، ولحظات تفاهمهما وسعادتهما ، قد أصبحت من الندرة بحيث تهنت كريستين ان لا تنتهى هذه المناسبة ، فغمغمت : « لكم سيسهل عليك التجوال الآن يا حبيبى ! » . ثم مضت تقول فى تردد : « واذا امكننا الذهاب قليلا الى الريف يوم الاحد مثلا .. الى الغابات .. اوه ! لكم يكون هذا بديعا ! » . فأجاب وذهنه منصرف الى شئ آخر : « بكل تأكيد . ولكنى اشتريتها لزيارة مرضاى فى الواقع ، فليس لنا ان ننزه بها فى كل مكان ، ونملأها وحلا ! » .. وكان ينمّل فى ذهنه ما سيكون لهذه العربة الصغيرة من أثر عند مرضاه !

على أن اثرها الرئيسى تجاوز كل تقديراته . فما ان انفلت من الباب الزجاجى للدار الانيقة رقم ١٧ (جرين ستريت) بعد أيام ، حتى صادف صديقه القديم فريدى هامبتون ، فقال فى حرارة : « هالو ، هامبتون ! » . ولم يتمالك رعشة غبطة هزته ، عندما نظر الى وجه زميله .. ذلك ان فريدى لم يعرفه تماما فى بادىء الامر ، فلما استيقن منه ذهل غاية الدهول ، وقال : « كيف ؟ .. هذا أنت ؟ .. ماذا تفعل هنا ؟ » . فأجاب أندرو وهو يومئ برأسه الى الدار رقم ١٧ : « كما ترى .. انى أعالج ابنة جو لى روى » .

« جو لى روى ! » .. ونم العجب الذى أبداه هامبتون - وهو يهتف بالاسم - عن أشياء كثيرة ، فوضع مانسون يده على عريته الجديدة الانيقة ، فى تصرف المالك ، وقال : « ما وجهتك ؟ .. هل اقلك الى مكان ما ؟ » .. فتمالك فريدى جأشه بعناء .. كان نادرا ما يضطرب ، فاذا اضطرب

فلوقت قصير . والواقع أن رايه في مانسون ، وفكرته عن الفوائد التى يمكنه تزقيها من صديقه ، تغيرا فى نصف دقيقة على نحو غير منتظر . فقال فى ابتسامة رقيقة : « اجل . . لقد كنت ذاهبا الى شارع (بنتينك) ، عند « ايدا شيرينجتون » . . كنت ذاهبا على قدمى ، على سبيل الرياضة البدنية . . بيد انى سأصعد معك ! »

وسادهما الصمت بعض الوقت ، وهما ينطلقان فى طريق (بوند ستريت) . كان هامبتون يفكر فى جد . . لقد استقبل مانسون فى لندن استقبالا حارا ، أملا منه فى أن يفيد من مرضاه ، كلما حانت الفرصة لعقد « كونصلتو » لقاء ثلاثة جنيهات فى شارع (الملكة آن) . ولكن زميله القديم قد تغير ! . . ثم السيارة . . واسم جو لى روى - قبل كل شىء - هذا الاسم الذى كانت له دلالة دنيوية لدى فريدى ، تفوق تلك التى كانت له عند أندرو . كل هذه المظاهر بينت لفريدى أنه كان على خطأ . . وكانت هناك أيضا القاب مانسون العلمية الرقيقة . . كل هذا كان مثيرا الى أقصى حد ! . . وتدبر فريدى المستقبل فى حذق ومهارة ، ففكر فى ارساء تفاهم مهنى بينه وبين مانسون ، على أساس أفضل ، أو قل على أساس أجدى وأكثر نفعا . . وكان عليه أن يعمل فى حذر ، فقد كان مانسون سريع التأثير ، لا يدرى المرء كيف يكون موقفه من أى أمر يعرض عليه . . وما لبث أن قال له : « لماذا لا تدخل معى وترى « ايدا » ؟ . . انها امرأة يجدى التعرف بها ، ولو انها تدبر أسوأ مستشفى خاص فى لندن . أوه ! . . لست أدري على أية حال . . مستشفى فى مستوى المستشفيات الأخرى . . وهو بالتأكيد اغلاها ! » . فقال مانسون : « حقا ؟ » - تعال معى لترى مريضتى ، فهى غير مؤذية . . انها مسز « رايبزن » العجوز . ونحن - ايفورى وأنا - نجرى

عليها بعض التجارب . انت ضليع في الرئتين ، اليس كذلك ؟ ..
تعال افحصها ، فسيسرها هذا كثيرا ، وستحصن على خمسة
جنيهاات !

— ماذا ؟ .. اتقصد . . ؟ لكن ما بال رئتيها ؟
فقال فريدى مبتسما : « ليس الامر ذا بال ، فلا تنزعج ! ..
الراجح انها مصابة بنزلة شعبية خفيفة ، من اثر الشخوخة .
ولكنها ستغبط برؤيتك ! .. على هذا النحو نعمل هنا ،
ايفورى وفريدمان وأنا ، وينبغى ان تحذو — انت الآخر —
حذونا ! لن نتكلم الآن في هذا .. نعم ، اول دار الى اليسار ..
سيد هسك ان ترى كيف تسير الامور على خير وجه ! »

واوقف اندرو سيارته امام الدار التى عينها له هامبتون ..
وكانت دارا عادية جدا ، مرتفعة ، ضيقة ، لم تشيد أصلا
للفرض الذى أصبحت تستخدم فيه . والحق أنك — اذ ترى
صخب الشارع ، وشدة حركة المرور فيه — لا تستطيع
تصور كيف يمكن لمريض ان يجد في هذا المكان شيئا من
الراحة .. كان مكانا ادعى الى احداث أزمة عصبية منه الى
شفائها ! .. وأبدى اندرو هذه الملاحظة لهامبتون وهو يصعد
معه درجات السلم ، فاعترف فريدى على الفور ، قائلا في
ود : « أعرف هذا ، يا زميلى العزيز .. كل هذه المستشفيات
الخاصة بسوء ، وهذا الركن الصغير من (الويست ايند) غاص
بها .. فنحن نحرض على أن تكون في موقع يلائمنا نحن ! — في
حين كان ينبغى أن تكون بعيدة عن هنا في احدى الضواحي
الهادئة ، لو أردت راحة المرضى — ولكن ، أى طبيب يقطع كل
يوم عشرة أميال ليرى مريضة لمدة خمس دقائق ؟ .. اوه !
ستتعرف في الوقت المناسب على منظمتنا الصغيرة لمرضى
(الويست ايند) .. »

وتوقف في الردهة الضيقة ، التي كانا يهربانها ، وهو يقول مستطردا : « ستجد هنا دائما ثلاث روائح منتشرة في جو المكان : رائحة مخدر ، ورائحة طعام يطهى ، ورائحة الفضلات .. الافرازات الطبيعية ! عفرا ، يا صديقى .. والآن هيا نرى ايدا ! » . ثم قاد مانسون - وهو بادى المعرفة بأشخاص الدار - الى حجرة ضيقة بالطابق الارضى ، جلست فيها الى مكتب صغير ، امرأة شابة ترتدى زى المستشفى ، وعلى رأسها غطاء ابيض . وقال فريدى في شيء من الاطراء ، وفي غير كثير من الكلفة : « طاب نهارك يا ايدا ، امشغولة انت بحساباتك ؟ » . فرفعت رأسها ، حتى اذا رآته ضحكت في سداجة .

وكانت قصيرة ، بدينة ، يكاد الدم يتفجر من تحت بشرتها .. يبدو ان وجهها الاحمر اللامع كانت تعلوه طبقة من « البودرة » كثيفة ، الى حد جعله يبدو برتقاليا ، قريب اللون من ثوبها .. وكان مظهرها ينم عن القوة المتدفقة ، واللفظ المصحوب بالمعرفة ، والنشاط ... وكانت تستعمل اسنانا صناعية غير متقنة الصنع . وكان من السهل أن ترتاب فيها ، اذا ماسهعت الفاظها النابية ، وأن ترى أنها كانت أصلح الناس لادارة ملهى ايلى من ملاهى الدرجة الثانية ! .. ومع هذا ، فان مستشفى « ايدا شيرينجتون » الخاص ، كان أقرب مستشفيات لندن الخاصة الى الذوق العام . وقد تردد عليه نصف الطبقة الارستقراطية ، فضلا عن نساء المجتمع ، ونجوم سباق الخيل ، والمحامين ، والديبلوماسيين .. وما من صحيفة الا قرأت فيها أن احدى نجوم المسرح أو السينما الشابات قد تخلصت من زائدتها الدودية في امان تام ، بين يدي ايدا التي بذلت لها رعاية الام !

وكانت تلبس كل ممرضاتها زيا برتقاليا رقيقا ، وتدفع لساقى مستشفاهما مائتى جنيه في العام ، وللطاهى ضعف هذا

المبلغ . وكانت تتقاضى من مرضاها أجورا باهظة ، فقد كان السعر الجارى عندها هو أربعون جنيها عن الحجرة الواحدة في الاسبوع ، عدا النفقات الاخرى : من ثمن أدوية ، الى أعاب العناية الشخصية الليلية ، الى رسوم حجرة العمليات .. فاذا بدا لاحد مناقشتها فى شىء من ذلك ، أجابت فى عبارات منمقة - مغلفة بالطلاقة والبساطة - بأن عليها نفقات تدفعها هى الاخرى ، وأنها تخصم مما تتقاضى نسباً مئوية تؤديها للأطباء ، وأنها كثيراً ما تشعر بغبن فادح واقع عليها !

وكانت « ايدا » تهمل بانعطاف خاص نحو الأطباء الشبان ، فاستقبلت مانسون فى ود ورقة جانب . وقال لها فريدى : « تأمليه جيداً ، فسيرسل اليك فى وقت قريب كثيراً من المرضى ، بحيث تضطرين الى اسكان بعضهم فى فندق بلازا ! » . فهزت قلنسوتها البيضاء ، قائلة : « ان بلازا هو الذى يفيض من نزلاته على ! » .. فضحك فريدى وقال : « نكتة طيبة ، يجب أن أقصها على فريدمان ، وسوف يعجب بها .. هيا نصعد يا مانسون ! »

ودلفاً الى المصعد ، الذى كان يتسع لنقاعة ذات عجلات . وبرحاه فى الدور الرابع ، فسارا فى ردهة ضيقة ، وقد اصطفت أمام الابواب صحاف الطعام ، كما كانت هناك زهرات تحوى أزهارا أخذت تدبل فى الجو الحار .. ودخلا غرفة مسر



« رايبيرن » ، فاذا بها امرأة قد تجاوزت الستين ، تجلس في مضجعها مستندة الى وسادات ، وقد أمسكت بيدها ورقة كتبت عليها بعض الاعراض التي أحست بها أثناء الليل ، واسئلة كانت تريد توجيهها .. وأدرك أندرو على الفور ، وبدون تردد ، انها كانت تشكو من وساوس الشيخوخة !

وجلس فريدى الى جانبها - على السرير - وتحدث اليها ، وجس نبضها .. وكان هذا كل ما عمله ، ثم استمع اليها ، وأخذ يطمئنها في مراحة ، ذاكرة أن مستر ايفورى لن يلبث ان يوافيها - في العصر - بنتيجة بعض التحاليل العلمية . ثم رجاها أن تأذن لزميله الدكتور مانسون - اخصائى الرئتين - بفحصها . فسرت مسر « رايبيرن » لهذا كله أيما سرور ! .. ووضح من الحديث أنها بين يدي هامبتون منذ سنتين ، وانها ثرية ، لا أهل لها ولا دار ، فهي تقيم حيناً في فنادق الدرجة الاولى ، وحيناً آخر في مستشفيات (الويست ايند) الخاصة ! .. وصاح فريدى عندما برحا الغرفة : « يا الهى ! .. انك لا تتصور اى منجم ذهب هذه العجوز ، بالنسبة لنا ! »

ولم يجب أندرو بشيء ، اذ ان جو المكان كاد يزهق أنفاسه .. فان السيدة العجوز لم تكن تشكو من شيء في رئتيها ، وما أضفى على الفحص الذى قام به صفة النزاهة والامانة سوى أن نظراتها الى « فريدى » كانت تفيض بالعرفان بالصنيع ! .. ولقد حاول أندرو أن يقنع نفسه : فيم هذا الكرب والعناء؟ .. انه لن يفوز بهال لو أنه تشبث بالصلاية ، وعدم المرونة ، والاسراف فى الاعتداد بنفسه ! .. لقد كان فريدى حسن القصد بالنسبة له ، اذ أتاح له فرصة فحص مريضته !

وقبل أن يعود أندرو الى سيارته ، شد على يد هامبتون في ود كثير .. حتى اذا تلقى في آخر الشهر من مسر « رايبيرن » اذناً مصرفياً بخمسة جنيهات - « مع أطيب الشكر » - لم

يسعه الا ان يضحك من وساوسه السخيفة . فلقد أصبح يستمرىء تلقى الاذن المصرفية ، وكلما ازدادت اشتد ارتياحه !

— ٧ —

♦ كانت أعمال أندرو تبشر — فى البداية — بازدياد مطرد ، ولكنها أصبحت تزداد وتتسع بسرعة خاطفة فى جميع الاتجاهات ، الامر الذى دفع أندرو دفعة قوية الى الامام ، فلم يلبث ان جرفه التيار جرفا ، وأصبح فريسة لاتسع نشاطه ! .. لقد كان من قبل فقيرا ، لم يجر عليه تشبته بمبادئه وشخصيته سوى المكاره . أما الآن فقد أصبح بوسعه أن يبرر مسلكه امام نفسه ، بفضل الدليل الباهر المستمد من نجاحه المادى !

ولقد دار بينه وبين مستر « وينش » — عقب الحادث الذى استدعى من أجله فى متجر لورييه — حديث ارتاح اليه ارتياحا بالغا ، وأعقبه تزايد عدد البائعات الصغيرات — بل والكبيرات — اللائى أخذن يترددن على العيادة لاستشارته . وكن — فى أغلب الاحيان — يشكين من وعكات بسيطة ، ولكنهن كن اذا ما قدمن مرة ، عدن مرات ومرات .. فلقد وجدنه رقيق الحاشية ، يبعث على الثقة والاطمئنان !

وأخذ دخل العيادة يتضاعف ويتضاعف ، فعنى بطلاء واجهة الدار ، واستعان بأحد البيوت التجارية التى تقوم بتأثيث غرف العمليات فتوفر الأجهزة اللازمة وتتولى كل ما يتعلق بتركيبها .. تلك البيوت التى تتنافس فيما بينها أشد التنافس ، لاجتذاب اطباء الشبان سعيًا وراء المزيد من الكسب .. كما عمل على تجديد اثاث عيادته ومكتب استشاراته ، فزوده بأريكة جديدة ، ومقعد وثير دوار ،

ومنضدة جميلة ذات عجل من المطاط ، وعدة خزانات علمية
انيقة ، مصنوعة من الزجاج والمعدن الابيض . وسرعان
ما عرفت الجيرة كلها بالتجديدات والتحسينات التي ادخلها
على الدار والعيادة ، والسيارة التي ابتاعها ، وبالأجهزة الحديثة
التي جلبها بها ، فعاد الى العيادة كثير من « المرضى الممتازين »
الذين كانوا يترددون على الدكتور « فوى » من قبل ، والذين
اختفروا تدريجا عندما أخذ يأفل نجم الطبيب الشيخ ، وشاءت
حالة عيادته .

وانتهت ايام الارتقاب والفراغ التي كان يعانيها اندرو ، فلم
يبق عليه - في أوقات العيادة المسائية - سوى أن يلبي
النداءات عند اثباب الكبير ، والطرقات على الباب الصغير ،
وطلبات المرضى الذين ينتظرونه في الجانبين ويضطرونه الى
الهرولة بين غرفة وأخرى . وكانت النتيجة الحتمية لهذا ،
ان اضطر الى تنظيم عمله على نحو يتيح له المزيد من الوقت .
فقال لزوجته ذات صباح : « اصغى الى ياكريس . لقد خطرت
لى - منذ لحظة - فكرة تساعدنى كثيرا في هذا الوقت الذى
تثقلنى فيه وطاة العمل . فأنت تعرفين اننى كلما فحصت
مريضا في العيادة ، اضطررت الى العودة الى داخل المنزل
لتحضير الدواء ، وهذا يستغرق - عادة - خمس دقائق ..
وفي هذا اضاعه لوقت ثمين ، يمكننى الافادة منه على نحو
افضل ، بأن افحص احد المرضى الممتازين الذين ينتظروننى
في المكتب . والان ، هل أدركت مشروعى ؟ .. ستهولين منذ
الآن تحضير الادوية لى ! »

ونظرت اليه كريستين ، مقبضة الجبين مأخوذة ، وقالت :
« ولكنى لا أفهم شيئا في تحضير الادوية ! » . فقال بابتسامة
مطمئنة : « لا عليك يا عزيزتى ، فسوف يسير الامر على خير
ما يرام . لقد أعددت مقدما بعض الادوية الرئيسية ، ولن
يكون عليك سوى ملء زجاجة ، ولصق بطاقة عليها ،

وتغليظها ! » . وقالت كريستين : « ولكن .. » ثم أمسكت
والحيرة في عينيها .. وما لبثت ان تمايلت نفسها فقالت :
« اوه ! .. لاشك في اننى سأساعدك يا أندرو ، ولكن .. هل
تعتقد حقا انى .. ؟ » . فقال وهو يتفادى ان تلتقى عيناها
بعينه : « الا ترين اننى مضطر الى هذا ؟ » .. وشرب ما تبقى
من قهوته في ضيق ، ثم قال : « أعرف اننى كنت أعطى للأدوية
أهمية كبرى في (أيرالو) ، ولكن هذا كله مجرد .. نظريات
لا غير ! لقد أصبحت .. اننى الآن طبيب عملي ! .. ثم ان
جميع فتيات منجر « لورييه » مصابات بفقر الدم ، ولن
يضرهن مزيج الحديد المقوى ! »

ولم يتسع امامها الوقت للإجابة ، فقد سمع - في هذه
اللحظة - رنين جرس العيادة ، فقفز أندرو الى هناك .. لقد
كانت كريستين - فيما مضى - تناقش وتتشبث بموقفها .
أما الآن ، فقد راحت تفكر مكتئبة ، في التغير الذى طرأ على
علاقتها ، اذ لم يعد لها تأثير على أندرو .. لم تعد توجهه ،
بل أصبح هو الذى يقود السفينة !

وأعطالات - منذ ذلك اليوم - ان تلزم الركن المخصص
لتركيب الادوية ، في ساعات اشتداد العمل ، تترقب نداءاته
السريعة وهو يهرول من « مريض ممتاز » ، الى مرضى العيادة
الآخرين : « حديد ! » ، أو « البيا ! » أو « مهدىء ! » ..
وعندما كانت تجيب احيانا بأن زجاجات الحديد قد فرغت ،
كان يصيح في حدة لها دلالتها : « أى شىء ! .. يا لعنة ! أى
شىء مهما يكن ! »

او كانت العيادة لا تنتهى - في اكثر الليالى - قبل التاسعة
والنصف ، فيعكف - بعد ذلك - على تدوين الحسابات في
السجل الضخم ، الذى لم يكن « الدكتور فوى » قد ملأ

نصف صفحاته وقت أن اشترى العيادة . وكان يقول :
 « يا الهى يا كريس ! انه ليوم طيب .. اتذكرين تلك الشلنات
 الثلاثة والنصف الاولى البائسة ، التى تسلمتها وانا ارتجف
 كتلميذ منفل ؟ .. لقد بلغ دخلنا - اليوم - أكثر من ثمانية
 جنيهات نقدا ! » . ثم يضع المبلغ - بعضه من قطع النقود
 المعدنية ، وبعضه الآخر من أوراق النقد - فى علبة التبغ
 الافريقى الصغيرة ، التى كان الدكتور فوى يضع فيها نقوده ،
 ويفلق عليها درج مكتبه الاوسط .. فلقد ظل يستعمل هذه
 العلبة - كما كان يستعمل السجل - ليستمر الحظ على
 حاله !

ونسى كل شىء عن الشكوك التى راودته فى أول الامر ، فراح
 يغبط نفسه على شراء هذه العيادة ، ويقول لكريستين فى غمرة
 من الابتهاج : « لكم نحن يا كريس محظوظان من كافة النواحي
 .. عيادة تدر دخلا حسنا ، وعملاء عديدون من الطبقة الوسطى
 .. ويتوج هذا كله ، اننى اوشك ان ادعم مكانتى كطبيب
 استشارات من الدرجة الاولى .. لسوف ترين الى أين
 نبلغ ! »

واستطاع فى أول اكتوبر ان يسألها ان تعيد تأثيث البيت .
 اذ قال لها - بعد فراغه من العيادة الصباحية - فى نهجة تنم
 عن عدم اكتراث ، أصبحت من طباعه الجديدة : « ليتك تذهبين
 اليوم يا كريس الى متجر « هدرسون » ، أو متجر « اوستلى »
 - فى (الويست ايند) - فتشتريين كل الاثاث الذى تريدين .
 اثاث لغرفتى نوم ، واثاث للصالون ، و .. كل ما يلزم ! » .
 فتطلعت اليه دون أن تفوه بكلمة ، بينما استطرد مبتسما ،
 وهو يشعل لفافة تبغ : « من متع جمع المال أن تستطيعي
 الحصول على كل ما ترومين . لا تحسبيني خسيسا ! .. كلا
 وربى ! لقد كنت يا كريس زوجة صغيرة باسلة طوال اوقات
 ضيقنا ، وها نحن الآن فى بداية استمتاعنا بالايام السعيدة ! »

— بشراء اثاث غالى الثمن ، وتاثيث ثلاث غرف وثيرة من متجر « اوستلى » ؟

ولم يظن الى ما كان فى لهجتها من مرارة ، بل ضحك قائلا : « تماما يا عزيزتى .. لقد آن لنا ان نتخلص من امتعتنا القديمة التى ابتعناها من الريحسى ! » . فقالت وقد تفرقت عيناها بالدموع : « انك لم تكن تراها فى (ايرالو) نفايات غير لائقة ، وهى ليست كذلك فى الواقع ! .. آه ! لقد كانت تلك اياما سعيدة حقا ! » . واختنق صوتها ، فأسرعت تفادى الحجرة ..

ولاحقها بعينه مشدوها .. فلقد أصبحت تبدو — منذ فترة من الزمن — برمة ، حائرة ، مهمومة ، تعاودها — من حين لآخر — نوبات مباغتة من ألم معض ، ومرارة غير مفهومة . وأحس بانهما كانا يتباعدا ، ويفقدان تلك الرابطة الخفية ، رابطة الزمالة العجيبة التى كانت دائما تجمع بينهما . وواسى نفسه بأن الذنب لم يكن ذنبه ، وبأنه كان يبذل خيرا ما فى وسعه ، بل اقضى ما فى وسعه .. وقال فى نفسه محنقا : « ان تقضى لا يعنىها اطلاقا ! »

بيد أن وقته لم يكن يتسع لاطالة التأمل فى مسلك كريستن الذى لا ينطوى على مبرر ، ولا على انصاف ، فقد كان مضطرا الى اداء زيارات كثيرة ، وكان عليه — كذلك — ان يذهب الى المصرف كعادته فى يوم الاربعاء .. فلقد درج على ان يذهب الى المصرف مرتين — فى الاسبوع — بانتظام ، فيودع مبلغا من المال فى حسابه ، اذ كان يدرك أنه ليس من الحكمة فى شيء ان يترك أمواله تتكدس فى مكتبه . ولم يكن يتمالك أن يجد متعة فى المقارنة بين هذه العمليات المصرفية الدسمة ، وبين ما وقع له فى (بلينيللى) يوما ، حين كان مساعدا بائسا ، وحين نال « انيورين ريس » — مدير مصرف البلدة — من

كرامته .. أما هنا ، فقد كان مستر « ويد » - المدير - يتسهم له في تقدير واحترام ، وكثيرا ما كان يدعو إلى تدخين سيجارة في مكتبه ، ويقول له : « هل لي أن أقول يا دكتور - في غير تطفل - أنك تسير موفقا بدرجة ملحوظة ؟ أنا هنا بحاجة إلى الطبيب المستقيم ، المجد ، الذي أوتى قدرا من الاتزان والحرص .. مثلك ، إذا جاز لي القول يا دكتور ! .. والآن ، ما رأيك في تلك الاسهم المضمونة التي كنا نتكلم عنها منذ أيام .. أسهم سكك حديد الجنوب ؟ »

وكان التقدير الذي راح « ويد » يبدیه نحوه ، مثالا للتحويل الذي طرأ على الرأي العام حيال أندرو . فقد أصبح بقية أطباء الحي يحيونه في ود كلما صادفت سياراتهم سيارته . وفي اجتماع الخريف للفرع المحلي للجمعية الطبية ، استقبل بحفاوة وإكرام ، في القاعة التي أحس فيها - حين شهد اجتماعات الفرع لأول مرة - بأنه دخیل متطفل . وقدم له الدكتور « فيري » - نائب رئيس الجمعية - سيجارا . وقال له : « نحن سعداء اذ نراك بيننا يا دكتور .. هل وافقت على خطابی ؟ .. يجب أن نثبت على موقفنا بالنسبة لاتعابنا ، وعلى الاخص بالنسبة للدعوات الليلية . ان موقفى محدد وصريح . فلقد طرق بابى ذات ليلة - منذ أيام - غلام في نحو الثانية عشرة ، وأهاب بى متلعثما : « تعال بسرعة يا دكتور ، فان أبى في عمله وأمى مريضة جدا » .. أنت تعرف دعوات الساعة الثانية صباحا هذه ! .. ولم أكن قد رأيت من قبل هذا الغلام ، فقلت له : « ان أمك ليست من مرضاى يابنى ، فاجر واحضر نصف جنيه - قيمة الاتعاب - واذ ذاك فقط ، أذهب لرؤيتها ! » . وطبعاً لم يعد ! .. اننى أوكد لك يا دكتور ان هذا الحي فظيع .. »

وفي الاسبوع التالي ، خاطبته مسز لورنس تليفونيا . وكان يسر دائما بهذه الاحاديث التليفونية الناعمة التافهة .. غير أنها في ذلك اليوم ، أخبرته بأن زوجها في رحلة صيد بايرلندا ، وأنها قد تلحق به بعد قليل ، ثم .. دعتة ، في سياق الحديث - وكما لو كان الأمر عديم الاهمية - ليتناول الغداء على مائدتها في يوم الجمعة التالي . وقالت : « ستكون هنا توبى وشخص أو شخصان .. أخف ظلا - فيما احسب - من أولئك الذين يلقاهم الانسان عادة . وقد يطيب لك التعرف بهما ! »

وأعاد السماع وقد تنازعه شعور بارتياح بالغ ، وشعور فريد بسخط وحنق . فقد غاظه - في أعماق ذاته - ان كريستين لم تدع معه . ثم قال لنفسه ان المناسبة لم تكن مناسبة اجتماعية ، وانما كانت لقاء يتعلق بالعمل .. وان من واجبه أن يخرج من عزلته ، وأن يعقد صلات مع الناس ، لا سيما اذا كانوا من طبقة أولئك الذين سيشترون في هذا الغداء . ومهما يكن من أمر ، فما كان من الضروري أن تعرف كريستين شيئا عن هذه الدعوة .. لذلك قال لها - يوم الجمعة - انه على موعد مع هامبتون للغداء ، وقفز الى سيارته مرتاحا ، وقد فاته انه لم يكن يحذف الكذب !

وكانت دار فرانسيس لورنس في (نايتسبريدج) ، في شارع هادىء بين ميدان (هانز) وميدان (ويلتون كريسينت) .. واذا لم يكن للدار رواء دار « لى روى » وفخامتها ، فان مرآها العام كان يوحى بعين المستوى من الثراء . ووصل أندرو متأخرا ، اذ كان أكثر المدعويين قد سبقوه .. كانت هناك « توبى » ، « وروزاكين » - الكاتبة القصصية - وسير « ددلى رمبولد بلين » الدكتور في الطب والزميل في كلية الطب الملكية - وكان طبيبا مشهورا ، وعضوا لمجلس ادارة منتجات « كريمو » - و « نيكول واتسون » الرحالة والاستاذ

في علم الاجناس ، وبضعة اشخاص آخرون أقل شهرة .
 وجاء مجلسه الى المائدة بجانب مسز « ثورنتن » ، التي
 كانت تقيم - كما قالت له - في (ليسيستر شير) ، وتتردد
 على لندن - من حين لآخر - فتنزل في فندق « براون » ..
 وأصبح أندرو لا يعاني أى ارتباك عند التعرف على أى غريب ،
 فأخذ بصفى صامتاً الى ثرثرتها وهى تروى له ، في حين
 الام ، قصة جرح أصاب قدم ابنتها « سيبيل » - التي كانت
 طالبة بالقسم الداخلى بمدرسة « روديان » - بينما كانت تلعب
 الهوكى ! .. وقد حملت مسز « ثورنتن » صمت أندرو ، على
 محمل الاصغاء والاهتمام بحديثها ، في حين أنه كان منصرف
 الذهن الى حديث آخر ، كان يدور حوله ، ويتسم باللباقة ،
 وحضور البديهة ، والى فكاهات « روزاكين » اللاذعة ، وطرائف
 « واتسون » عن مشاهداته في رحلة استكشافية قام بها
 أخيراً في مجاهل (باراجواى) .. وأعجب كذلك بفرانسيس
 وهى تصل جبل الحديث فى لباقة ويسر حتى لا ينقطع ،
 وتذكرى جنوته فلا يخبو ، مع احتمالها - فى كبح النفس -
 ثقل حديث جارها سير رمبولد . وأحس أندرو - مرة أو
 مرتين - بأن نظرها كان مصوباً اليه فى شبه ابتسامة ، وشبه
 استجواب .

وقال واتسون يختتم قصته : « وكان ادعى الحوادث الى
 الأسف - طبعاً - أن يعود المرء الى وطنه ، فيستقبل بنوبة
 من الانفلونزا » . فصاح سير رمبولد : « آه ! .. لقد قدر لك
 أن تكون أنت الآخر فريسة ! » . وأصلح صوته ووضع منظاره
 على أنفه الكبير ، ملفتاً أنظار الجلوس جميعاً . فقد كان يسعد
 دائماً بأن تتجه الانظار اليه ، وهو الذى تركز عليه انتباه
 الجمهور البريطانى سنوات عديدة .. فقد أدهش العالم
 - منذ أكثر من ربع قرن - باعلانه أن جزءاً من الامعاء ليس

عديم الفائدة فحسب ، بل انه ضار بالتأكيد . وقد بادر مئات من الناس الى استئصال هذا الجزء الضار (الزائدة الدودية) . . وعلى الرغم من ان سير رمبولد لم يستأصل الزائدة من امعائه ، الا ان الضجة التي أحدثتها هذه الجراحة - التي اطلق عليها الجراحون « جراحة رمبولد بلين » ، أذاعت صيته كأخصائي في الامراض المترتبة على الاغذية . . وظل - منذ ذلك الحين - في مكان الصدارة ، وقد وفق الى أن يدخل على الاطعمة القرمية الدقيق الاسمر ، واللبن الزبادى ، وحامض اللبنيك . ثم اكتشف بعد ذلك « لبان رمبولد بلين » . . وأصبح - بالاضافة الى نشاطه البارز في عهد من مجالس الادارة - يتولى وضع قوائم الطعام لمطاعم « رايلي » الشهيرة ويتصدر اسمه اعلاناتها : « هلموا ايها السيدات والسادة ، ودعوا سير رمبولد بلين - الدكتور في الطب ، والزميل في الجمعية الطبية الملكية - يساعدكم على اختيار السعرات الحرارية اللازمة لاجسامكم » . . الامر الذي أثار احتجاجات عديدة من كثير من الاطباء الذين كانوا ارسخ منه قدما في المطب ، والذين أعلنوا أنه كان ينبغي اقضاء اسم سير رمبولد من جدول الاطباء ، منذ سنوات . . فكان الجواب : « وماذا يبقى في هذا الجدول ، اذا ما خلا من اسم رمبولد ؟! »

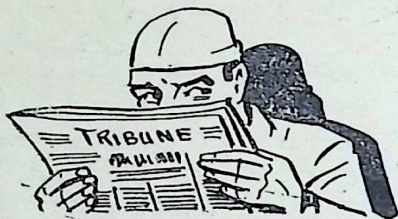
وكان يقول لفرانسييس ، وهو يرمقها بنظرة أبوية : « من أعجب الظواهر التي صاحبت هذا الوباء الحديث ، الاثر العلاجي الذي يمكن أن يكون للكريموجين . لقد آتحت لى الفرصة في الاسبوع الماضى أن أقول هذا الكلام للجمعية العامة فى شركتنا . . فليس عندنا - مع بالغ الاسف - دواء للانفلونزا . ومن هنا كانت الوسيلة الوحيدة للوقوف فى وجه هذا الداء الفتاك ، هى انماء حالة المقاومة ، وذلك بايجاد دفاع حيوى يقى الجسم من هجمات المرض . وقد خلصت من هذا الى القول بحق ، وأنا أفاخر بهذا ، اننا اثبتنا بنحو قاطع - لا

باجراء التجارب على الفئران . . ها ! ها ! ها ! ، كما يفعل
أصدقاؤنا المعلميون ، بل باجراء تجارب على آدميين - المفعول
السحري الذى للكريموجين فى تنظيم وتقوية حيوية الجسم ! «
واستدار واتسون نحو أندرو بابتسامته الفريدة ، وسأله :
« ترى ما رأيك يا دكتور فى منتجات كريمو ؟ » . وأخذ أندرو
على غرة ، فقال عفو خاطر : « انها طريقة جيدة من طرق
الحصول على لبن منزوع القشدة . » فرمقته « روزا كين »
بنظرة تحييد خاطفة ، وضحكت فى فضول ، كما ابتسمت
فرانسييس . . وأسرع سير رمبولد بالانتقال الى الحديث عن
الرحلة الاخيرة التى قام بها الى (تروساكس) ، ضيقا على
الجمعية الطبية فى الشمال .

★ ★ ★

وفيما عدا هذا ، ساد الانسجام مأدبة الغداء ، واقبل أندرو
على الاشتراك فى الحديث دون تهيب . وقبل أن يستأذن فى
الانصراف - وقد انتقلوا الى الصالون - قالت له فرانسييس :
« أنك لاعم حقا ، حتى وأنت خارج مكتب استشاراتك . ان
مسز ثورنتن لم تستطع احتساء قهوتها ، اذ انصرفت الى
الحديث عنك . وانى لاحس احساسا غريبا بأنك قد طويتها
فى جيبك - أيجوز هذا التعبير ؟ - وضمنت أنها ستكون من
عملائك ! » . وراحت هذه العبارة تتردد فى سمعه ، حتى اذا
عاد الى دأره ، رأى انه كسب الشئ الكثير ، وان كريستين لم
تخسر شيئا من هذه المفامرة !

على أنه صادق - حوالى الساعة العاشرة والنصف من
صباح اليوم التالى - مفاجأة غير سارة . فقد سأله فريدى
هامبتون بالتليفون فى مياسطة : « هل استمتعت بغداء
الامس ؟ » . كيف عرفت ذلك ؟ يالك من دابة ، ألم تقرأ
« التربيون » هذا الصباح ؟ » . . واستاء أندرو ، فذهب



لتوه الى الصالون - حيث كانت الصحف توضع ، بعد ان يفرغ وكريستين من قراءتها - وتصفح « التربيون » للمرة الثانية ، وهى من خير الصحف اليومية المصورة . وارتعش فجأة : كيف لم يقع نظره على هذا ؟ .. ففى الصفحة المخصصة للاجتماعيات ، كانت ثمة صورة لفرانسييس لورنس ، ووصف مسهب لمأدبة الغداء التى اقامتها فى اليوم السابق .. وكان اسم « مانسون » بين أسماء المدعوين .. وفى ضيق بالغ ، تناول الصحيفة فكورها وقذف بها الى المدفأة . ثم فكر فى ان كريستين قد اطلعت عليها ولا بد ، فاكفهر وجهه غيظا . ومع انه راح يوحى لنفسه بأن نظرها لم يقع على هذا النبأ اللعين ، الا أنه دلف مكتئبا الى مكتبه

ولكن كريستين كانت قد رأت النبأ ، فبهتت لحظة ثم أحست بضربة تمزق قلبها .. لماذا لم يقل لها أى شىء ؟ لماذا ، لماذا ؟ .. لم يكن يعنيها فى كثير أو قليل ، أن يذهب الى هذه المأدبة السخيفة . وحاولت أن تستعيد سكينتها ، معللة نفسها بأنه امر اتفه من أن يسبب لها كل هذا الالم ، وأن يشغلها الى هذا الحد . بيد أنها كانت ترى - والحزن يخز فؤادها - أن ما انطوى عليه هذا الامر ليس بالشىء التافه ! .. وحاولت المضى فى أعمالها المنزلية - عقب خروجه لزيارة مرضاه - ولكنها لم تستطع .. وذهبت الى مكتب الاستشارات ، ثم

الى حجرة العيادة ، والهـم والكآبة لا يفارقانها .. وراحت
تنظف الاثاث بدون وعى .

وبجانب المكتب ، عثرت على حقيبة أندرو القديمة .. اول
حقيبة ابتاعها .. الحقيبة التى كان يستعملها فى (بليـنـيلـى) ،
والتي كان يحملها متنقلا من شارع الى شارع ، أو هابطا الى
أغوار المناجم ، فراحت تتحسسها فى حنان غريب . لقد أصبح
يمتلك حقيبة جديدة ، أجمل من هذه ، تناسب هؤلاء العملاء
الجدد الذين يعمل بهذا الجهد الفائق على اجتذابهم ، والذين
كانت كريستين توجس - فى قرارة نفسها - منهم .. وكانت
تدرك أن لا جدوى من محاولة مفاتحته بمخاوفها فى هذا
الصدد ، فقد أصبح سريع التأثر - وهذه أمانة الصراع الناشب
فى نفسه - فكانت آية كلمة منها قمينة بأن تخرجه من طوره ،
وتثيره ، وتسبب شجارا . ومن ثم فقد بات عليها ان تبذل
قصارى وسعها بوسائل أخرى !

وكان اليوم يوم سبت ، وقد وعدت بأن تصطحب «فلورى»
- ابنة خادمتها - فى جولتها الصباحية .. وكانت فلورى
صبية جميلة ، تعلقـت بها كريستين . وسمعت وقع قدميها
فى أعلى سلم البهو ، وقد أرسلتها أمها غاية فى النظافة، ترتدى
فستانا جديدا ، وتمنى نفسها بمرح كثير .. وكانتا كثيرا
ما تخرجان معا - فى أيام السبت - على هذه الوتيرة ، فقد
كانت كريستين ترتاح الى الخروج ممسكة بيد الصبية، متجولة
معا فى السوق ، تحادث الباعة من ذوى العربات ، وتبتاع
فاكهة وزهورا ، وتحاول ان تجد بعض الاطعمة الشهية ،
لا سيما تلك التى كان أندرو يحبها .. غير ان الجرح ابى أن
يندمل فى ذلك اليوم .. لماذا ، لماذا لم يقل لها أى شىء ؟ ..
ولماذا لم تدع هى الأخرى الى هذه المأدبة ؟ .. وتذكرت
زيارتها الاولى لاسرة فوجان ، حينما بذلت قصارى جهدها
لتحميله على الذهاب معها ! .. لكم تبدلت الحال الآن ، فهل

نراها ارتكبت ذنبا أو خطأ ؟ .. هل تغيرت ؟ .. هل انطوت على نفسها واضحت ، على نحو ما ، عدوة للمجتمع ؟ لا ، ما كانت ترى ذلك في نفسها ، فقد ظلت تحب مخالطة الناس ، بغض النظر عن شخصياتهم أو مكاناتهم .. ولقد ظلت صداقتها مع مسز فوجان قائمة ، بفضل مواظبتها على تبادل الرسائل . ومع انها شعرت بانها جرحت في كرامتها ، وبانه لم يحترمها ، فانها راحت تتعذب من أجله - في الواقع - أكثر مما كانت تتعذب من أجل نفسها .. كانت تدرك أن لا بد للأغنياء من أن يرضوا كالفقراء ، وأن من الميسور على أندرو أن يكون طبيبا مبدعا في (جرين ستريت) بحى (مايفير) كما كان في شارع (سيفن) بأبرالو .. ولم تكن تطالبه بالدأب والجهد اللذين كان يبذلهما أيام الدراجة البخارية القديمة . ومع ذلك ، فقد كانت تشعر - في قرارة نفسها - بأن أندرو كان يتمسك في تلك الأيام بمبادئ نقية ، رائعة ، كانت تبعث في حياته وحياتها ضوءا صافيا ، أبيض ! .. أما الآن فقد بهت هذا الضوء ، وجلل السناج المصباح !

وجهدت - وهى تدخل متجربداثة « سميث » - أن تخفى ما كان بين جنيها ، وأن تزيل تقطب جبينها . وعلى الرغم من هذا ، فقد لاحظت أن المرأة العجوز كانت تتفرسها بانتباه . وما لبثت البداية أن غمغت : « أرى أنك لا تتغدين بما فيه الكفاية ياسيدتى .. أنك لا تلوحين كما ينبغى ، مع أنك قد أصبحت تملكين سيارة ، ومالا ، وكل ما يلزمك ! .. الا دعينى اذيقك شيئا شهيا ! » . وقطعت بسكينها الطويل شريحة من لحم الخنزير المسلوق ، وصنعت منه شطيرة قدمتها لكريستين ، كما أعطت فلورين قطعة من الحلوى المثلجة ، وهى لا تكف لحظة عن الكلام : « والآن يلزمك جبن . لقد أكل الدكتور أرطلا من جبنى ، وهو لا يسأله أبدا .. سأطلب منه يوما ما أن يكتب لى شهادة اعلقها فى المحل ، فان هذا النوع من الجبن

هو الذى صنع شهرتى ! » .. وهكذا راحت تثرثر وتحاول اضحاك « كريستين » طيلة فترة بقائها فى المتجر !

واذ غادرت كريستين وفلورين المتجر ، تريثتا على الافريز ، ريثما يعاونهما جندى المرور « ستروذر » على عبور الشارع . وأمسكت كريستين بيد الصبية العجول ، خشية افلاتها منها ، وراحت تقول لها : « يجب أن ترقبى حركة المرور دائما ، والا فماذا تقول امك لو أنك اصبت بسوء ؟ » ..

ورات الصغيرة فى هذا فكاهاة أضحكته وهى مليئة الفم ببقية الحلوى .. وما لبثتا ان بلغتا الدار ، فأخذت كريستين تخرج من حقيبتها الاشياء التى ابتاعتها .. حتى اذا ذهبت الى « الصالون » لتنسق الازهار التى أحضرتها ، عاودها الحزن . وبغثة ، دق جرس التليفون فى البهو ، فلبت النداء وهى مكتئبة بعض الشيء . وغابت نحو خمس دقائق ، ثم عادت الى « الصالون » مشرقة الوجه ، متألقة العينين ، تنتابها وعشة طروب .. وأخذت تطل من النافذة - بين حين وآخر - مرتقبة فى صبر نافد ، عودة أندرو ، ناسية ألما لفرط ما أسعدها النبأ الذى تلقته .. فقد كان نبأ هاما بالنسبة له ، بالنسبة لهما معا .. وأيقنت - فى غبطة - بأنه أبهج الانباء جميعا . فليس من ترياق أفعل منه لسم النجاح السهل ، فضلا عما كان فيه من تقدم لاندرى ، فهو خطوة حقيقية الى الامام .. ولم تتمالك كريستين نفسها ، حينما وصل اندرو ، فهرعت لاستقباله فى البهو ، هاتفة : « لدى رسالة لك يا اندرو ، من سير روبرت أبى .. لقد اتصل بى تليفونيا منذ قليل ! » وأشرق وجه أندرو ، بعد ان كان مكفهرا ، بينما استرسلت تقول : « أجل ، لقد اتصل شخصا ، وكان يريد التكلم معك ، فعرفته بنفسى ، واذا به غاية فى رقة الجانب ! .. آه ، لست أدري كيف انتهى اليك النبأ .. سييسند اليك عمل فى مستشفى فيكتوريا ، يا عزيزى .. وفورا ! »

ولمعت عينا أندرو تدريجا بوميض الابتهاج ، وقال : « آه ! .. هذا نبا سار يا كريس ! » . فصاحت متهللة : « اليس كذلك ؟ .. ستعود الى العمل الذى يروق لك .. وستنفسح لك فرص اجراء البحوث .. وكل ماكنت تصبو اليه فى مجلس العمل ، ولم تحصل عليه ! » .. وطوقت عنقه بذراعيها ، وضمته الى صدرها . فأخذ يتأملها وقد غلبه التأثير بحبها وكريم ايثارها .. ووخزه ضميره لحظة ، فتمتم : « لكم أنت طيبة النفس يا كريس ، و .. ولكم أنا فظ قاس ! »



♦ فى الرابع عشر من الشهر التالى بدأ أندرو عمله فى العيادة الخارجية لمستشفى فيكتوريا . وكان عليه ان يعمل من الساعة الثالثة الى الساعة الخامسة فى مساء الثلاثاء والخميس من كل اسبوع .. تماما كما كانت الحال قبلا فى مستوصف اوبرالوا ، فيما عدا أن جميع مرضاه الآن كانوا من المصابين بأمراض رئوية أو نزلات صدرية .. كما انه لم يعد مساعد طبيب — مما ملأ نفسه بفخر مستتر — بل أصبح طبيبا بمرتب فى مستشفى من أقدم وأشهر مستشفيات لندن .. فقد كان مستشفى فيكتوريا قديما — ما فى هذا شك — كان يقوم فى (باترسى) ، وسط شبكة من الشوارع الضيقة ، القريبة من نهر (التيمز) ، فلم يكد يحظى من الشمس — حتى فى الصيف — بأكثر من خيوط متناثرة .. بينما كان الضباب المتصاعد من النهر يلف — فى أكثر أيام الشتاء — شرفاته التى كان من الواجب أن تجر اليها أسرة المرضى .. وفوق واجهته المتداعية ، كانت ثمة لافتة كتب عليها — بحروف بيضاء على أرضية حمراء ، بحيث كانت تبدو جلية ، كأنها انذار — « مستشفى فيكتوريا .. آيل للسقوط » !

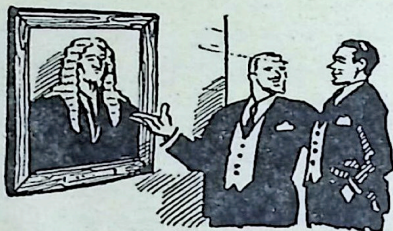
وكانت العيادة الخارجية — التى يعمل فيها أندرو — تقوم

في جزء من المستشفى ، من مخلفات القرن الثامن عشر . وكان الدليل على ذلك أن ادارة المستشفى عرضت مزهوة - في صندوق زجاجي عند المدخل - « المسطرين » وقطعة من المونة التي استخدمها الدكتور « لينتل هودجز » ، الذي كان طبيبا فخريا في هذا القسم عينه ، منذ عام ١٧٦١ الى عام ١٧٩٣ . وكانت الجدران غير المصقولة ، مطلية بلون بني قاتم امتاز به المستشفى . أما الردهات ذات الارضية الخشبية ، فكانت على جانب كبير من النظافة ، غير أنها كانت سيئة التهوية ، حتى ان الرطوبة كانت تنضح على جدرانها . وفي جميع الغرف ، كانت رائحة العفن تفوح ، موحية بقدم المكان .

وزار « أندرو » - في اليوم الاول - أقسام المستشفى ، بصحبة الدكتور « يوستاش ثورجود » ، عميد الأطباء الزائرين (١) . وكان رجلا في نحو الخمسين ، رقيق الحاشية متوسط الطول ، ذا لحية صغيرة شيباء ، وخصال سمحة ، حتى لتحسبه قس ابروشية ! . وكانت له في المستشفى عنابر الخاصة به ، كما انه - وفقا للنظام الموروث عن التقاليد القديمة - مسئول عن « أندرو » والدكتور « ميليجان » الطبيب الزائر الشاب الآخر .

واذ فرغا من الطواف بالمستشفى ، اقتيدا أندرو الى القاعة الكبرى المشتركة - في الطابق الارضى - حيث كانت المصاييح مضاعة ، رغم أن الوقت كان عصرا . وكانت ثمة نار قوية تتأجج في المدفأة المصنوعة من الحديد الزهر ، وقد علقت على الجدران صور الممتازين من أطباء المستشفى ، وبينها صورة الدكتور « لينتل هودجز » ، وقد احتلت مكان الشرف فوق

(١) الطبيب الزائر : اصطلاح يطلق على الطبيب الذي يتردد اياما معينة على العيادة الخارجية في المستشفى .



المدفأة .. وهناك ، تناول أندرو - بصحبة زملاء الآخرين في المستشفى - شايًا فاخرًا ، مع عدد من الشرائح الساخنة بالزبد . وألقى أندرو هؤلاء الزملاء شبانًا رقيقى الجانب بدرجة ملحوظة . على أنه حينما لحظ احترامهم للدكتور « نوروجود » وله ، لم يهتمالك نفسه من الابتسام ، إذ تذكر اشتباكاتة مع أولئك « الزملاء الوقحين » ، عندما كان - الى عهد قريب - يضطر الى التشاجر حتى يتمكن من ادخال بعض مرضاه أحد هذه المستشفيات العامة !

وكان الى جانبه شاب : هو الدكتور « فالانس » الذى قضى سنة في الولايات المتحدة ، يعمل في معهد « الاخوة مايو » ، فأخذًا يتحدثان عن هذه العيادة الشهيرة ، وعن أساليبها ، ثم سأله أندرو - في فضول مباغت - عما ان كان أثناء اقامته في أمريكا قد سمع شيئًا عن « ستيلمان » . فقال فالانس : « بالتأكيد ، فان القوم هناك يحفلون به كثيرًا . صحيح أنه لا يحمل درجات علمية ، غير أن الولايات المتحدة قد اعترفت به ، على سبيل الاستثناء ، نظرًا لأعماله الجليلة .. انه يحقق أعجب النتائج ! » . فسأله أندرو : « وهل رأيت عيادته ؟ » . فأجاب الشاب : « كلا .. فإني لم أذهب الى اوريجون » . وتوقف أندرو لحظة مترددًا فى الكلام ، ثم قال : « أعتقد انها أبدع مؤسسة ! .. لقد اتصلت بهستيلمان منذ بضع

سنوات ، اذ كتب لى - أول الامر - بصدد بحث نشرته لى صحيفة « الصحة العامة الامريكية » . . . ولقد رأيت صوراً لعيادته ، وقرأت بيانات عنها ، ولا أعتقد أن فى وسع طبيب أن ينشد مكاناً مثالياً يعالج فيه مرضاه خيراً من هذا المكان . . ان مصحته تقع على ارتفاع شاهق ، وسط غابة من اشجار الصنوبر . وهى منعزلة ، ذات شرفات زجاجية ، ونظام تهوية خاص يكفل نقاء الجو نقاء تاماً ، وحرارة ثابتة فى الشتاء ! « . . وتوقف اندرو ، متحرجاً من تحمسه ، اذ أن الحضور كانوا قد كفوا عن حديثهم ، وراحوا يصفون الى مايقول . وما لبث ان استطرد : « وعند ما ينظر المرء الى مؤسسة كهذه ، لا يتمالك ان يشهر - على ضوء ظروفنا فى لندن - بأنها مثل أعلى لا سبيل الى ادراكه ! »

وابتسم الدكتور « ثوروجود » فى شىء من الجفاء ، وقال : « لقد استطاع الاطباء اللندنيون دائماً ان يحققوا أسماً نجاح ، فى هذه الظروف اللندنية التى ذكرتها ، يا دكتور مانسون ! . . قد لا تكون لدينا الميزات التى تتحدث عنها ، بيد اننى أستطيع أن أقول أن أساليبنا القوية المجربة - وان لم تصب شهرة عالمية - تحقق نتائج أدعى الى الارتياح ، وربما كانت أبقى على الزمن ! » . فنكس اندرو بصره ، ولم يعترض ، اذ أحس بأنه - كقادم جديد وسط هذه الجماعة - كان خليقاً بالاً يبسط آراءه على هذا النحو العلنى . أما الدكتور « ثوروجود » ، فقد عمد الى تغيير موضوع الحديث ، لكى يبدد الجو الذى أوحاه جفاؤه ، فراح يتكلم عن طريقة الحجامة بالكؤوس التى تسحب الدم (كاسات الهواء) . فقد كان تاريخ الطب هوايته المحببة . . وقال متلطفاً لاندرو ، وهم يبرحون المائدة : « أننى احتفظ بمجموعة عتيقة من كؤوس الحجامة ، لا بد من أن أريكها يوماً . فمما يدعو الى الخجل حقاً أن تنقرض الحجامة ، وهى التى كانت - ولا تزال -

طريقة مثلى لاحداث تهيج مضاد للمرض ! » .
وفيما عدا هذه السحابة الخفيفة ، كان مسلك « ثوروجود »
مسلك الزميل الودود ، رفيق الحاشية . . وكان طبيبا كمنا
لا يخطيء التشخيص بحال ، وقد كان يسعد دائما بأن يرى
أندرو في عنابره . أما فيما يتصل بالعلاج ، فقد كان عقله
الحريص يتهيب كل ما هو جديد . ومن هنا فانه لم يكن
يطبق أى حديث عن « التبركولين » - دواء السل الحديث -
أذ انه يرى أن قيمته العلاجية لم تثبت بحال . . كما أنه لم
يكن يستعمل « البنيموتراكس » - عقار الرئة الجديد - الا
في حذر شديد ، وكانت نسبة حقن التقوية التى يعطيها
لمرضاه ، أقل نسبة فى المستشفى برمته . . يقابل هذا من
الناحية الاخرى أنه كان يأمر جميع مرضاه بتناول زيت كبد
الحوت وعصير الشعير المخمر بمقادير كبيرة !

★ ★ ★

وما أن بدا أندرو عمله الخاص ، حتى نسى « ثوروجود » ،
وراح يقول لنفسه : « لكم هو بديع أن أصل ما انقطع ، بعد
شهور من الانتظار ! » . وبدا كأنه قد استعاد تماما حماسه
وحميته السابقين . وكان عمله السابق فى ميدان السل الناجم
عن تسرب القبار مع الانفاس ، قد دفعه بطبيعته الى دراسة
السل الرئوى بصفة عامة ، فرأى - فى غير تحديد واضح -
أن يتقصى الاعراض البدنية الاولى للمرض الاصلى ، مستخدما
« طريقة بريكه » . . وكانت تحت تصرفه مادة غزيرة للملاحظة ،
تمثلت فى الاطفال سيئى التغذية ، الذين كانت أمهاتهم يحضرنهم
بأمل الافادة من السخاء الذى اشتهر به الدكتور « ثوروجود »
فى توزيع عصير الشعير المخمر . بيد أنه لم يستطع ان يقبل
على عمله بكل قلبه ، برغم الجهد الذى راح يبذله فى اقناع
نفسه . . ولم يستطع أن يستهيد تحمسه القديم أثناء أبحاثه

في استنشاق الفيار ، فقد كان باله مشغولا بأمور كثيرة ، وكان في عيادته مرضى عديدون يحتاجون الى عناية فائقة ، فلم يعد بوسعه تركيز انتباهه على الاعراض الفامضة التي قد لا يكون لها وجود ظاهر .. ولم يكن هناك من يفرقه ادراكا للوقت اللازم لفحص مريض فحسا جديا ، ولكنه كان في عجلة دائما .. وهذا سبب قاهر حمله على أن يستقر - في وقت وجيز - على رأى منطقي ، هو انه لم يعد يستطيع القيام بهذه الدراسة !

ولم يكن الفقراء المترددون على العيادة ، يطالبونه بجهد يذكر . لاسيما وقد كان سلفه - فيما بدا - فظا ، فاستطاع أندرو أن يكسب محبة المرضى باغداق الادوية والفكاهات .. كذلك استطاع أن يسير على اتم تفاهم مع زميله «ميليجان» . ولم يلبث أن حذا حذوه حيال المرضى المنتظمين . فصار يجمعهم أمام مكتبه - في بدء العيادة - ويوقع بطاقتهم .. ولم يكن - وهو يكتب بسرعة عبارة : « يكرر الدواء السابق » - يجد وقتا يتذكر فيه ثم سخر في الماضي من هذه الصيغة التقليدية .. وهكذا مضى في اتقان مهمة الطبيب الزائر ، في مستشفى عام !

— ٩ —

♦ بعد ستة أسابيع من التحاق أندرو بمستشفى فيكتوريا، جلس يتناول افطاره مع كريستين - ذات صباح - واذا به يجد بين رسائله خطابا يحمل خاتم بريد مارسيليا ، فأسرع بفضه ، وتأمله في دهشة ، ثم قال : « انه من ديني ، لقد سئم المكسيك آخر الامر ، وجاء يستقر هنا ! .. لن اصدق هذا حتى اراد بعيني . على أنه من دواعي السرور أن نعود فنراه . منذ متى برحنا ؟ .. لكأنه دهر . أمعك الصحيفة يا كريس ؟ .. أنظري متى تصل الباخرة اوريتا ! » . ولقد

سرت كريستين - هي الاخرى - بهذا النبأ المفاجيء ، ولكن
لسبب جد مختلف . فقد أصبحت تحس احساسا قويا بأنه
لا بد لها من أن تحمى زوجها !

وكانت تعرف أن لدينى ولهوب تأثيرا حسنا عليه . واذ
أصبحت قلقة ، متوجسة ، لاسيما بعد أن بدا عليه أنه قد
تغير ، فما أن وصل هذا الخطاب ، حتى أخذت تفكر وتضع
خطة للجمع بين ثلاثتهم . . . وفى عشية يوم وصول «الاوريتا»
الى (تيلبورى) ، أثارت المسألة ، فقالت : « لست أدري
يا أندرو أن كان هذا يروقك . . فقد فكرت فى دعوة دينى
وهوب للعشاء معنا فى الاسبوع القادم ! » . فتطلع اليها
مندھشا ، اذ بدا من الغريب - مع التوتر الغامض الذى كان
يسودهما - أن يسمعها تتحدث عن دعوة ضيوف للعشاء . .
وأجاب أخيرا : « من المحتمل أن يكون هوب فى (كمبريدج) .
أما عن دينى وعنى ، فيمكننا العشاء فى المطعم » . ولكنه
فطن الى تعبير وجهها ، فاستدرك قائلا : « لكن رايك بديع
جدا ، على أن يكون ذلك يوم الاحد ، فانه أنسب يوم لثلاثتنا ! »
ووصل دينى يوم الاحد التالى ، فاذا به أكثر بدانة من ذى
قبل ، وقد أحمر وجهه وعنقه ، وتقدمت به السن ، وان بدا
أقل اكتئابا وأكثر بشرا . . على أنه ظل دينى القديم الذى
عهده . . وكانت اول عبارة قالها : « ياله من مسكن بديع . .
الست محقا فى ذلك ؟ » . وأمسك ليلتفت نحو كريستين
فيقول فى رزاة : « هل هذا السيد الانيق هو الدكتور مانسون
حقا ؟ . . لو عرفت ذلك لاحضرت له كناريا ! »

وأبى أن يتناول شيئا من الخمر ، قائلا : « كلا ، فلست
أشرب الآن سوى عصير الليمون . ومهما بيد هذا غريبا ،
فانتى مصر على المضى فيه ، مهما القى من عنت ! . . ولقد
مللت الفضاء الشاسع ، والسماء المرصعة بالنجوم . ان خير
طريقة لحب هذه البلاد التى لا تكف عن لومها هى السفر الى

الخارج ! » . ورمقه أندرو في عتاب رفيق ، وقال : « الا ترى انه يخلق بك ان تستقر يا فيليب ؟ ! .. انك تقترب من الاربعين ، وبمهارتك .. » . فقاطعه ديني ، وهو يرمقه من طرف عينه : « لا تكن مأكرا هكذا يا سيدى البروفيسور ، فان بوسعى ان أريك يوما ما بعض الاعيبي ! » ..

وروى للزوجين كيف ان الحظ واتاه فعين جراحا مقيما بمستشفى (ساوث هيرتفوردشاير) ، بمرتب قدره ثلاثمائة جنيه في العام ، مع عدم تحمله نفقة ما . ولم يكن - بطبيعة الحال - يعتبر هذا المنصب غاية ما يصبو اليه ، ولكنه كان يتيح له كثيرا من العمليات الجراحية ، الامر الذي يمكنه من استثمار مواهبه كجراح .. ريثما يرى ما في مقدوره ان يفعل .. ومضى يقول : « ولست أدري كيف أسندوا الى هذا المنصب .. لا بد ان يكرنوا قد أخطأوا .. » . ولكن أندرو قاطعه قائلا ، في شيء من الغلظة : « لا ، بل مرد هذا الى لقب دكتور في الجراحة الذي تحمله .. ان دبلوما من الدرجة الاولى كهذا يصل بصاحبه الى كل شيء ! » . ففهم ديني لكريستين : « ماذا فعلت به ؟ ! » . انه لم يعد كذلك الفتى الذي نسف مجرى الفضلات معي ! »

وما لبث « هوب » ان وصل . ولم يكن قد رأى ديني من قبل ، على ان خمس دقائق كانت كافية ليفهم كل منهما صاحبه . فلما جلسا الى المائدة - بعد هذا - كانا قد أجمعا على ان يقسوا في مازحة أندرو . فقال فيليب مكتئبا وهو يبسط منشفته : « لا تتوقع ان تحظى بعشاء طيب هنا يا هوب ! .. أجل ، فانا أعرف صاحبينا هذين من زمن بعيد . اذ اتصلت بالسيد البروفيسور قبل ان يصبح طبيبا ثريا في (الويست ايند) .. لقد طردا من مسكنهما الاخير ، لانهما كانا يميّتان الفيران - التي يجريان عليها تجاربهما - جوعا ! » . فقال هوب : « اننى غالبا ما أحمل في جيبى

سريحة من لحم الخنزير ، وهي عادة أخذتها عن « بيللى لازرار » ، اثناء رحلتنا الاخيرة فى (كيتشنجينجا) ، ولكنى لا أحمل بيضا لسوء الحظ ، فان الدجاج لا يبيض فى هذا الفصل ! »

★ ★ ★

واستمر هذا المزاج طوال العشاء . وكانما اثار وجود دينى ما كان لهوب من روح الدعابة . . على ان الحديث لم يلبث ان تخذ اتجاهها جديا ، شيئا فشيئا . . فروى دينى بعض مغامراته فى أمريكا الجنوبية . وكانت فى جعبته بضع قصص عن الزوج ، أضحكت كريستين . كما أخبرهم هوب بأهم ما حدث فى المجلس . فان « هوينى » قد وفق أخيرا الى تحقيق مشروعه الذى طالما سعى اليه ، بشأن اجراء التجارب بصدد الاعياء العضلى . . وأردف هوب فى اكتاب : « وهذا هو عملى فى الوقت الراهن . ولكنى احمد السماء على اننى من أقضى فى ممارسته سوى تسعة أشهر ، ثم اعتزم ان آتى مرا . فلقد سئمت العمل وفقا لآراء الغير ، وتحت اشراف ولئك الكهول ! » . ثم قال مقلدا فى سخيرية لازعة : « كم وجدت لى من حامض اللبنيك فى هذه المرة ، يامستر هوب ؟ » . . وصاح : « اننى أريد أن أعمل لحساب نفسى . . أه ! لو كن لى معملا صغيرا خاصا بى ! »

وهكذا تحول الحديث الى المسائل الطبية ، كما كانت كريستين ترجو . . وبعد العشاء - الذى ضم زوجا من البط ، على عكس ما كان دينى يسخر - طلبت كريستين أن تظل معهم اثناء احتساء القهوة . . وعبثا قال لها هوب ان الحديث ثقيل على الاذن الانثوية ، فقد ظلت جالسة ، مسندة ساعديها الى المائدة ، وذقتها بين يديها ، وهى تصفى فى



صمت ، وقد ثبتت نظراتها على وجه أندرو .. فاذا به يبدو في أول الامر متحفظا ، اذ أحسن - برغم اغتيابه لرؤية فيليب مرة أخرى - بأن صديقه القديم لم يحفل بنجاحه ، ولم يقدره ، بل انه كان يستخف به شيئا ما .. فراح يقول انه قد نجح الى درجة لا بأس بها ، على أية حال ، ولكن .. ماذا فعل ديني ؟ .. أجل ، أين هو من بلوغ النجاح ؟ .. حتى اذا أسرف « هوب » في القاء نكاته ومداعباته ، أوشك « أندرو » أن يصيح بزميليه ان يكفا عن الهزء منه .

على ان الحديث لم يلبث أن اجتذبه دون أن يفطن ، اذ انتقلت اليه العدوى - شاء او لم يشأ - من زميليه ، فراح يتكلم بحماس يقارب حماسه المجهود . واذ تحدثوا عن المستشفيات ، انطلق فجأة يبسط رايه في نظام المهنة برمته ، فقال ممهدا لكلامه : « اليكم رأيي في هذا ! » .. وجذب نفسا طويلا ، لا من سيجارة من تبغ « فرجينيا » الرخيص - الذي اعتاد تدخينه في الماضي - وانما من سيجار من غلبة اخرجها صامدا امام نظرة « ديني » الساخرة . ثم استطرد يقول : « ان نظام مهنتنا بأسره بال عتيق . وأرجو ان تلاحظا اننى لا أحب أن تظنا - مهما يكن الامر - اننى ساخط على المستشفى الذى أعمل فيه ، فانى أحب العمل في مستشفى « فيكتوريا » ، وأستطيع ان أوكد لكما اننا نؤدى هناك أعمالا جلية .. ولكن نظام المهنة هو الملموم .. ما من أحد يرضى به

ير الاطباء الشيوخ الطيبين .. انه أشبه بحال طرقتا - مثلا -
هو فوضى تدعو الى اليأس . ان مستشفى « فيكتوريا »
يل للسقوط ، ومستشفى « سانت جون » كذلك . نصف
مستشفيات لندن متداعية ، فماذا نفعل لها ؟ .. نجمع لها
لبنسات ، ونحصل على بضعة جنيهات اجرا عن الاعلانات
لتى تلصق على واجهات مباني المستشفيات : « أفضل بيرة
هى بيرة براون » ! .. واذا واتانا الحظ - فى مستشفى
فيكتوريا - ففى وسعنا بعد عشرة أعوام أن نشرع فى بناء
جناح جديد ، أو دار للممرضات .. وخلق بكما ان تشاهدا
ين تنام الممرضات فى الوقت الحالى ! .. لكن ما الفائدة من
ترميم هذا الكوخ القديم ؟ .. ما الفائدة من وجود مستشفى
لامراض الرئة ، فى قلب مدينة صاحبة يلفها الضباب مثل
لندن ؟ .. يا للشيطان ، ان هذا أشبه بالقول بمعالجة التهاب
رئوى فى أعماق منجم فحم ! .. وما يقال عن « فيكتوريا »
ينطبق على المستشفيات الاخرى ، العامة منها والخاصة .
انها وسط ضجيج المرور ، وان حركة « المترو » لتزهها ، كما
ان أسرة المرضى ترتج عند مرور الحافلات ! .. ولر اننى
دخلتها - وأنا فى صحة جيدة - فلا بد لى من عشر حبات
من « الجاردنال » لكى انام ! .. تصوروا مريضا فى سريره ،
وسط هذا الصخب والضجيج ، أثر عملية فتح بطن خطيرة ! ..
أو مريضا بالتهاب سحائى ، تبلغ درجة حرارته الاربعين ! ..
وغمز فيليب بعينيه - على طريقته الجديدة المحرجة - وقال :
« فما العلاج ، اذن ؟ .. انشاء مجلس ادارة للمستشفيات
جميعا ، تكون انت رئيسه ؟ ! » .. فصاح اندرو مهتاجا :
« لا تنفاب ! .. ان اللامركزية هى العلاج .. انها ليست
مجرد كلمة ، وانما هى نتيجة لكل مارايت واختبرت ، منذ
وطئت قدماى لندن . لماذا لا تكون مستشفياتنا الكبرى وسط
حقول من الخضرة خارج المدينة ، كان تكون على مسافة

خمسة عشر ميلا منها ؟ .. في منطقة مثل (بينهام) ، حيث مازال هناك ريف ، وهواء ، وهدوء .. انها لا تبعد عن هنا أكثر من عشرة أميال . لا تتصور أن هناك صعوبات بالنسبة للمواصلات . ثم ، لماذا لا ينشأ خط خاص للمستشفى .. خط يتجه اليها مباشرة ، وتجري عليه مركبات لا تحدث ضجيجا ، وتقلك الى بينهام - بالذات - في ثمانى عشرة دقيقة ؟ .. أن هذا يبدو لى تقدما ، اذا عرفنا أن أسرع سيارة للاسعاف تنقل المريض - في أية حالة عاجلة - في اربعين دقيقة ، في المتوسط .. وقد يقال أننا اذا أبعدنا المستشفيات ، حرمتنا كل حى من المرافق الطبية .. يا للسخف ! إن المستوصف سيبقى فى الحى ، والذي ينتقل هو المستشفى . وأقول - ونحن فى هذا الصدد - أن إقامة مستشفى لكل حى على حدة ، ليست سوى ورطة تدعو لليأس ! فلقد حدث عندما جئت الى هنا أن تبينت ، مذهولا ، أن المكان الوحيد الذى أستطيع ادخال مرضاى فيه يقع فى شرق لندن ، فى حين اننى فى غربها .. وكذلك نستقبل فى « فيكتوريا » مرضى من كافة الجهات : من (كنزينجتون) ، ومن (ايلينج) ، ومن (ماسويل هيل) .. لم يحاول أحد تحديد مناطق خاصة ، بل أن كل شىء يتدفق على قلب المدينة . واصارحكما القول : أن هناك فوضى لا تكاد تصدق . فما الذى بذل لعلاجها ؟ لا شىء .. لا شىء مطلقا ! اننا لا نزال نسير على النهج القديم ، ننظم اياما لجمع التبرعات ، ونذيع النداءات ، وننشر الطلبة فى أزياء مختلفة لجمع البنسات . أن من ميزات الدول الاوربية الحديثة انها تعمل . أما نحن .. يا الهى ! لو أن الامر بيدى لهدمت « فيكتوريا » ، وأقمت مستشفى جديدا لمرضى الرئة فى (بينهام) ، وأنشأت خط مواصلات مباشرة خصبصا له . وأقسم أن نسبة الشفاء ستزيد ! » . ولم يكن هذا سوى مدخل لصميم الموضوع ، حمى وطيس

النقاش ، فعاد فيليب الى فكرته القديمة .. الى خطل مطالبة طبيب العام - الذى لم يتخصص فى فرع معين - بأن يكون كالمساحر ، وبأن يتحمل مسئوليات علاج كل الحالات ، الى ان يواجه تلك اللحظة التى يضطر فيها الى الاستنجد باخصائى لم يكن قد رآه طيلة حياته ، فياتيه هذا فى سيارته ، ويتقاضى خمسة جنيهات ، ليقول له ان الفرصة قد فاتت ، ولم يعد فى الامكان عمل شيء ما !

وشرح « هوب » - فى غير تحفظ أو تنميق - حالة « البكتريولوجى » الشاب ، الذى يقع بين الاساليب التجارية والروتين ، بين المؤسسة الصيدلية التى تؤجره لصنع الادوية - من جانب - وبين مجلس قوامه شيوخ مخرفون من جانب آخر ! .. وراح يقول وهو ساخط : « تصوروا اخوان ماركس يجلسون فى سيارة مهشمة ذات أربع عجلات للقيادة ، وقد زودت بعدد لا يحصى من أجهزة التنبيه ، يتصاعد منها ضجيج يصم الأذان ! .. هكذا نحن فى مجلس العمل فى مصانع الفحم والتعدين ! »

ولم يكفرا عن الحديث الا بعد منتصف الليل ، وحينئذ وجدوا على المائدة - على غير انتظار - كمية من الشطائر والقهوة . فهتف هوب فى ادب ، نم - بتعبير دينى المازح - عن نه فتى عاطفى : « أوه يا مسز مانسون ! .. لا شك اننا دهقناك كثيرا . يا للجوع الذى يحدثه الافراط فى الكلام ! .. سأقترح هذا على « هوبنى » كميدان جديد للأبحاث : تأثير الارهاق الذهنى على افراز العصير المعدى . ها ، ها ، ها ! » واذ انصرف هوب قائلا انه أمضى سهرة ممتعة ، بقى دينى يضع دقائق أخرى ، بوصفه صديقا أقدم . حتى اذا برح اندرو الفرفة ليطلب له سيارة « تاكسى » بالتليفون ، قدم دينى لكريستين شالا اسبانيا صغيرا ، وهو يقول : « الارجح ان البروفيسور سيقطع رقبتى .. ولكن هذا لك ، فلا تقولى

له شيئا قبل أن أصبح في امان ، بعيدا عن متناوله « .
وأوقفها عن المضي في عبارات الشكر ، اذ لم يكن يضايقه شيء
قدر هذا النوع من المجاملات . واستطرد يقول : « من الغريب
ان كل هذه الشالات ترد من الصين ، فهي ليست في الحقيقة
اسبانية . لقد حصلت على هذا من شنغهاي ! » . وما لبثا
ان سمعا وقع قدمي اندرو عائدا بعد التحدث بانتليفون ،
فنهض ديني . وجانبت عيناه الطيبتان عيني المرأة الشابة ،
وهو يقول لها : « لست شديد القلق من ناحيته ، ولكن علينا
أن نحاول اعادته الى الحالة النفسية التي كان عليها في بليينيلي
.. اليس كذلك ؟ »

— ١٠ —

♦ في أوائل أجازة عيد الفصح ، كتبت مسز ثورنتن الى
اندرو ترجوه الحضور لرؤية ابنتها في فندق « براون » ،
وتقول في عبارة وجيزة ان قدم « سيبيل » لم تشف ، وانها
— وقد تأثرت بالاهتمام الذي ابداه لها حينما انتقيا عند مسز
لورنس — ترد الوقوف على رأيه بصددھا . فلبى الدعوة
مزھوا بالثناء الموجه لشخصه .. ومن فحص قدم « سيبيل » ،
تبين أن الامر غاية في البساطة ، وان كان يتطلب جراحة بدون
ابطاء .

واعتمد مبتسما للفتاة التي جلست أمامه — على حافة
السرير — عازية الساقين ، وقد شرعت في ارتداء جوربيھا
الطويلين الاسودين . وشرح الحالة لامھا قائلا : « لقد تضخمت
العظمة ، وقد يظل اصبعھا مقوسا اذا لم تجر لھا جراحة على
الفور . واني أنصح بالجراحة ! » . فأجابته مسز ثورنتن ،
التي لم يدھشھا هذا الرأي : « هذا ما قاله طبيب المدرسة ،
ونحن على استعداد لذلك ، ومن الممكن ادخال « سيبيل »
أحد المستشفيات الخاصة في لندن . ولكن .. اننى أثق بك

يا دكتور ، واكون شاكرة لك لـ اتخذت بنفسك التدابير اللازمة . من الذى تشير على أن اتصل به ؟ »
وأربك هذا السؤال المباشر أندرو ، فقد كان يمارس الطب العام ، وقد مكنه هذا من أن يتعرف بعدد من كبار الاطباء ، ولكنه لم يكن على صلة بأى جراح فى لندن . وبغته اتجه تفكيره الى « ايفورى » ، فقال فى ابتهاج : « قد يستطيع مستر ايفورى أن يتولى الامر .. ان كان لديه متسع من الوقت ! »
وكانت مسز ثورنتن تعرف مستر ايفورى بالشهرة .. بالتاكيد . أليس هو الذى تحدثت عنه الصحف - فى الشهر الماضى - لانه ذهب الى (القاهرة) فى طائرة ، لعلاج مريض أصيب بضربة شمس ؟ ! .. لقد كان رجلا معروفا ، وانها لفكرة رائعة أن يعهد اليه بالامر . ولم يكن يعيب هذه الفكرة سوى أنه لابد لسيبيل من أن تنزل فى مستشفى « ايدا شيرينجتون » الذى يرتبط به ايفورى . على ان كثيرين من أصدقاء الام كانوا قد عولجوا فى هذا المستشفى ، فلم تر داعيا لارسال انتهيا الى سواه !

واذ عاد أندرو الى داره ، اتصل تليفونيا بايفورى مترددا ، كرجل يتلمس طريقا للتقارب . على أن لهجة ايفورى الودية العذبة طمأنته . فاتفقا على الذهاب لرؤية المريضة فى اليوم التالى . وقال ايفورى أنه مع علمه بأنه لم يكن ثمة سرير خال فى مستشفى « ايدا شيرينجتون » ، الا أنه سيسعى جهده - ان لزم الامر - لاقتاعها بايجاد مكان لمس ثورنتن .
وفى صباح اليوم التالى ، نقلت سيبيل الى المستشفى ، بعد أن أقر ايفورى تماما كل ما قاله أندرو ، مضيفا أنه لابد من الجراحة فورا .. وبعد يومين أجريت العملية . وكان أندرو هناك ، فقد الح عليه ايفورى - فى ود وتلطف - كى يحضر الجراحة .. ولم تكن ثمة صعوبة فى الامر .. ولو أن هذه الحالة عرضت لاندرو أيام كان فى (بلينيللى) ، لاجرى الجراحة

بنفسه ، فى الواقع .. وبالرغم من أن ايفورى لم يكن يميل الى التعجل ، الا انه أجراها بمهارة فائقة .. وكان - فى معطفه الابيض - متزنا ، قويا ، صارم الوجه .. كان « تشارلز ايفورى » مثالا لتلك الصورة التى تجول فى مخيلة المرء لجراح كبير ، فقد كان ذا يدين دقيقتين ، ثابتتين ، كتينك اللتين يرسمهما الخيال لابطال الموضع . وأخذ أندرو - الذى وقف فى الجانب المقابل من المائدة ، مرتديا هو الآخر المعطف الابيض - ينظر اليه فى حسد واحترام !

وعندما غادرت « سيبيل » المستشفى - بعد خمسة عشر يوما - دعى أندرو للغداء مع ايفورى فى نادى « ساكفيل » . وكان الغداء شهيا جدا ، وأثبت الجراح انه محدث ممتع - فى غير ما كلفة - يعرف تماما حوادث الساعة التى تثير ضجة ، ومن ثم فقد كان قديرا على أن يعادل سواه من رجال المجتمع .. وكانت قاعة الطعام العليا - فى « ساكفيل » - قد تألفت فيها الثريات ، وغصت بالشخصيات البارزة ، فاخذ ايفورى يذكر لاندرو اسماء هذه الشخصيات .. وتاه أندرو فخرا بأن يكون فى عين المكان الذى ضمهم .. وهذا ما كان ايفورى ينتفيه !

وقال الجراح : « يجب أن تسمح لى بأن اقترح على جمعيتنا العامة - فى اجتماعها القادم - قبورك فى عضوية اننادى . فسوفك تلتقى هنا بأصدقاء عديدين : فريدى ، وبول ، وأنا ! .. وبالمناسبة ، ان « جاكى لورنس » عضو .. ان زواجه طريف حقا ، فهو وزوجه على أكمل ود ، غير أن كلا منهما يمضى فى الحياة وفقا لهواه ! .. يسعدنى باخلاص أن أزورك لدى الجمعية العامة . الواقع يا عزيزى اننى أحسست أنك كنت على شىء من الارتياح نحوى ، ولعل مرد تشككك الى طبيعتك الاسكتلندية الحذرة .. اليس كذلك ؟ .. اننى

لا أعمل في أي مستشفى ، كما تعلم ، إذ انني اوثر الاستقلال .
 هذا الى اني يا صديقي العزيز جد مشغول . ان بعض
 الشيوخ الذين يعملون في المستشفيات لا يحظى بمريض واحد
 في الشهر ، خارج المستشفى ، أما أنا ، فأحظى بعشرة في
 الاسبوع ، في المتوسط ! .. وبهذه المناسبة ، سنتلقى قريبا
 انباء من آل ثورنتن ، فدعني أدبر كل شيء .. انهم اناس من
 الطراز الاول ، وما دمنا نتكلم في الموضوع ، الا ترى انه يجب
 استئصال اللوزتين لسببيل ؟ .. هل فحصتهما ؟ »
 - كلا .. لم افحصهما .

- أوه ! كان يجب أن تفعل يا صغيري ، فهما متضخمتان ،
 تفرزان افرازات سامة . لقد سمحت لنفسى - وأرجو الا
 يفضبك هذا - بأن أقول انه يمكننا استئصالهما لها عندما
 يجيء الصيف !

وفيما كان اندرو عائدا الى داره اخذ يفكر في نفسه :
 « يالايفورى من فتى جذاب ، لا بد لي من أن أشكر هامبتون
 إذ عرفنى به . لقد نجحت هذه الجراحة بنحو يدعو الى
 الاعجاب .. وان أسرة ثورنتن لمقبطة بذلك أيما اغتباط ،
 وهذا خير تقدير يرتجى ! »

وبعد خمسة عشر يوما ، كان أندرو يتناول الشاي مع
 كريستين ، واذا بخطاب من ايفورى يقول فيه :
 « عزيزى مانسون : لقد تكرمت مسز ثورنتن بتسوية
 الحساب . واني إذ أرسل لاختصاصي التخدير ما يخصه ،
 فاني أرسل لك - انت الآخر - حصتك لقاء ما قدمت لي من
 عون صادق في الجراحة .. ولسوف تحضر « سيبيل »
 لزيارتك في نهاية هذا الفصل من العام ، فأرجو أن تذكر لوزتيها
 اللتين حدثتك عنهما قبلا .. وان مسز ثورنتن لمقبطة
 بنتيجة العلاج .

صديقك المخلص : ت . ا . «

وكان مع الخطاب اذن مصرفى بعشرين جنيهًا ، فتأمله اندرو مندهشا ، اذ انه لم يكن قد عاون ايفورى فى الجراحة بشيء . ولكن ، شيئًا فشيئًا ، عاودته حتى حب المال . وفى ابتسامة رضى ، أعطى كريستين الاذن والخطاب ، قائلا : « بديع هذا من ايفورى ، ليس كذلك يا كريس ؟ .. أراهن ان دخلنا سيبلغ فى هذا الشهر رقما قياسيا » . فقالت كريستين : « ولكنى لا أفهم .. » ، وبدا عليها الارتباك ، وهى تمضى قائلة : « أهذه قيمة أتعابك من مسز ثورنتن ؟ » . فضحك قائلا : « كلا ، يا بلهاء ! بل هو مبلغ أضافى صغير ، لقاء الوقت الذى اقتضتنيه الجراحة ! »

— اتعنى أن منستر ايفورى يعطيك جزءا من أتعابه ؟

فاحمر وجهه ، وقد وجد نفسه بفتة فى موقف الدفاع ، وقال : « يا لله ، كلا ! .. هذا محظور حظرا تاما ، فلا يمكن أن نفكر فيه ! .. أنت اذن لا تدركين .. لقد حققت لى هذه الأتعاب لوجودى هناك ، ولحضورى الجراحة .. تماما كما تحقق لزميل تولى تخدير المريضة . ان ايفورى يدخل فى الحساب الذى يقدمه لمريضه كل شيء ! .. وأراهن انه كان حسابا باهظا ! » . فوضعت الاذن على المائدة فى تخاذل وأسى ، وقالت : « يبدو أن هذا مبلغ جسيم ! » .. فختم النقاش بآدى الغضب ، وهو يقول : « ولم لا ؟ .. ان اسرة ثورنتن عريضة الثراء ، وهذا المبلغ هو — على الأرجح — بمثابة ثلاثة شلنات ونصف بالنسبة لآى مريض فى عيادتنا » .

وظلت بعد خروجه تحملق فى الاذن المصرفى فى وجل مرير ، اذ انها لم تظن الى أن هناك تفاهما مهنيا بين ايفورى واندرى . وبفتة ، عاودتها ضيقها القديم كله . فميم اذن كانت السهرة مع دينى وهوب ، وآى أثر كان لها فى نفسه ؟ .. لكم أصبح متكليا على المال ، يحبه بنهم شديد ! .. كأنما كان عمله فى مستشفى فيكتوريا شيئًا لا يذكر بجانب تطلعه القاتل الى

النجاح المادى ! .. وكانت قد لاحظت انه أصبح يلجأ - حتى في عيادته الخاصة - الى الادوية الجاهزة بازدياد مطرد ، وانه بات يعطى تذاكر طبية لاشخاص لم يكن بهم اى مرض ، ملحا عليهم في أن يعودوا لاستشارته مرارا .. وراحت الرساوس تخامر كريستين وهى جالسة امام الاذن الذى أرسله ايفورى ، وقد أخذت مشاعرها تتجلى في اختلاجات وجهها .. وتضاعدت الدموع وتبدأ الى مقلتيها ، وهى تقول في نفسها ان من واجبها أن تفضى الى أندرو بذات صدرها ، دون امهال !

وفي ذلك المساء ذهبت اليه بعد انتهاء العيادة ، وهى تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، وبادرتة قائلة : « هلا اسديت لى صنيعا يا أندرو ؟ .. ليتك تصطحبنى الى نزهة بالسيارة فى الريف ، فلقد وعدتنى بهذه النزهة يوم اشتريت السيارة ، ولكن الظروف لم تمكننا من ذلك طوال فصل الشتاء ! » . فرمقها بنظرة غريبة ، ثم قال : « اذن .. أوه ! نعم ، حسن ! »

وجاء الطقس - فى يوم الاحد - بديعا كما كانت كريستين ترجو .. كان اليوم من أيام الربيع المشرقة . وفرغ أندرو - قرب الحادية عشرة - من عياداته التى لم يكن منها بد ، فبرحا الدار ومعهما - فى صندوق السيارة - بساط صغير ، وسلّة بها لوازم الرحلات الترفيهية . وأحست كريستين - حينما عبرا جسر (هامرسميث) ، وانطلقا فى طريق (كينجستون) ، نحو (سورى) - بأن روحها المعنوية أخذت تصفو ، وانها بدأت تتخفف من عبء كان يثقل نفسها . فمئذ زمن طريل لم يستمتعا معا بجمال الريف .. بنسيمه المعطر ، وخضرة حقوله الزاهية ، وفتنة زهره المتفتح ، وشجره الباسق .. وقالت له فى حنان لم تبده منذ أسابيع : « لاتسرع هكذا يا حبيبى ، فلکم تبهرنى هذه البقعة ! » .. فلقد كان كمن

لا هم له سوى أن يسبق كل السيارات الأخرى .. وبلغا (شبر) حوالى الساعة الواحدة ، فاذا القرية - بأكوأها القليلة ذات القباب الحمراء ، وجدولها ينساب فى هدوء ، وقد أنتشرت على جانبيه الطحالب - لم تكتظ بعد بأفراج السياح الذين يفدون إليها صيفا .

وصعدا إلى غابة فوق الهضبة ، فتركا السيارة قرب درب نبتت فيه الأعشاب ، وفرشا البساط الصغير فى العراء ، ونعما بعزلة لم يكن يقطعها عليهما سوى تغريد الطيور .. فأكلا الشطائر تحت أشعة الشمس ، وشربا القهوة من « التيرموس » الذى جاء به .. وكانت أزاهير الربيع تنمو حولهما فى خمائل بديعة ، فتأقت كريستين إلى أن تقطف باقة منها ، تدس وجهها فى نضرتها العذبة ، وتتملأ رثتها بعطر شذاها . أما أندرو ، فقد استلقى مغمضا عينيه شيئا ما ، ورأسه إليها . وكان الضيق - الذى أثقل نفس كريستين - قد انقشع ، فغمرت السكينة روحها . ليت حياتهما معا تشبه دائما هذه اللحظات !



ومكث أندرو برهة يتأمل السيارة بعينين يداعبهما النوم ، ثم قال بغتة : « لا بأس البتة بسيارتنا القديمة هذه ، أليس كذلك يا كريس ؟ .. أعنى بالنسبة لما أنفقناه عليها . ولكننا بحاجة إلى سيارة غيرها سأشتريها من المعرض ! » . فارتجفت

لما سمعت ، وتجدد قلقها اذ تبينت أنه كان ماضيا في طريقه .. وقالت : « ولكننا لم نشتر هذه الا منذ وقت قليل .. وهذا فيما يبدو لى كل ما يمكننا التطلع اليه ! »
 - أوه ! انها بطيئة جدا . ألم تلحظي كيف سبقتنا تلك السيارة « البويك » ؟ أريد سيارة من « الصالون » ذات « الفتييس » !

فهمت متسائلة : « ولماذا ؟ » . وكان جوابه : « بل .. ولم لا ؟ ان امكانياتنا تسمح بهذا . أتعرفين يا كريس اننا نسير سيرا حسنا ؟ » وأشعل سيجارة ، مبديا كل اغتباط ، وهو يمضي قائلا : « اذا لم تكونى قد أدركت هذا يا عزيزتى المعلمة الصغيرة فى (بلينيللى) ، فاعلمى اننا فى طريقنا بسرعة الى الثراء ! » . ولم تجب على ابتسامته ، اذ سرت برودة قارسة فى جسمها الهادىء ، الدافىء . وانتزعت قبضة من الحشائش ، فمضت تفتتها فى حركة عصبية ، وتلقى بفتاتها فوق البساط . ثم قالت فى تودة : « اترانا فى حاجة يا حبيبى الى أن نكون ثريين ؟ .. اما عنى ، فانى أعرف جيدا أن الجواب : « لا » . فقيم الحديث بلا انقطاع عن المال ؟ .. أواه ! لكم كنا سعيدين حين لم يكن عننا منه سوى النزر اليسير ! .. ولم تكن نتكلم عنه فى أى وقت . اما الآن ، فلا حديث لنا الا المال ! » .

وابتسم مرة أخرى ، ابتسامة المستعلى ، وقال : « بعد أن قضينا سنوات نخوض فى الوحل ، ونقتات بغث الطعام ، ونبتلع السباب الذى تقذفنا به لجان من البلهاء ، ونعالج نساء فى غرف تتقزز منها النفس .. بعد هذا كله ارى للخروج من هذه الحال أن نرقى بمستوانا ! .. فهل هناك أى اعتراض ؟ » .. فقالت : « لا تسخر منى يا حبيبى ، فما عهدتك - قبل الآن - تتكلم هكذا . أواه ! .. انت اذن لا ترى انك تحترق بلهب الاسلوب الذى طالما هاجمته وفزعته منه ؟ ! » . وكانت بادية التأثير ، يشى بذلك امتقاع وجهها على نحو كان يعتمر

الفؤاد : « أنت اذن لا تذكر كيف كنت تتكلم عن الحياة ، وكيف كنت تراها صراعا ضد الجهول وتسلفا لجبل ، وكان الانسان مضطر الى أن يستولى عنوة على قلعة ينتملها قائمة على القمة ولا يراها ! » .

قال وقد أخذ الضيق بخناقه : « آه ! لقد كنت اذ ذاك غرا ، ابله ، أهرف بأراء خيالية . أجيلى بصرك حولك ، ترى أن كل الناس على هذه الحال يجمعون ويكدسون ما وسعهم الجهد والطاقة .. ليس هناك من عمل غير هذا ! » .. وكانت تلهث لهثا خفيفا ، وهى تشعر بأنها اذا لم تتكلم - فى هذه المناسبة - فلن تتكلم أبدا . وقالت : « ليس هذا فلفظ يا عزيزى .. اصغ الى ! أن هذا التبدل .. هذا التبدل الذى طرأ عليك ، جعلنى فى غاية التعاسة . وقد لحظ دينى - هو الآخر - هذا .. أن هذا التبدل يباعد بيننا ، فأنت لم تعد أندرو مانسون الذى تزوجته ! .. آه ! ليتك تعرد الى ما كنت عليه ! »

وصاح فى غيظ : « ما الذى صدر منى ؟ .. هل ضربتك ؟ هل أدمنت الخمر ؟ هل قتلت انسانا ؟ .. اذكرى لى جريمة اقترفتها ! » . فقالت فى يأس : « ليس الامر أمر وقائع محددة ، وانما هو يتصل بمسلكك بوجه عام يا عزيزى .. خذ مثلا هذا الاذن المصرفى الذى أرسله اليك ايفورى . قد يكون الشأن تافها فى الظاهر ، ولكنه فى الحقيقة والواقع .. أوه ! لو اننا نهمقنا الاشياء ، لوجدنا انه امر بفيض ينطوى على الجشع ، ويجانب الامانة والشرف ! » .. وأحست بأعصابه تتوتر ، ثم استوى فى جلسته ، وحملق فيها باستنكار .. وهتف : « بحق السماء ، ما الذى يثير هذا الموضوع ثانية ؟ .. أى سوء ارتكبته يقبولى ذلك الاذن ؟ »

واستبدت بها كل الانفعالات التى ازدحمت فى نفسها طيلة الاشهر الاخيرة ، فأحست بها تخنق حججها ، وهتفت : « اذن ،

فانت لا ترى فيه سوءا ؟ » . ثم انفجرت بغتة في البكاء ، وصاحت في عصبية : « بالله لا تبع نفسك يا حبيبي ! » . فصر على أسنانه في حنق ، ثم تكلم متثددا ، في لهجة حازمة : « لآخر مرة ادعوك الى التخلي عن هذا الغباء العصبى . الا تستطيعين مساعدتى والكف عن تعويق تقدمى ، وعن التذمر بلا انقطاع ؟ » . فقالت منتحجة : « اننى لا أشاكسك ، وقد أردت أن اكلمك من قبل ، ولكنى لم استطع ! » . وعيل صبره ، فصاح فجأة : « اذن فالزمنى الصمت ! .. اتسمعين ؟ كفى . انك تعانين أزمة نفسية ، وتتكلمين كما لو اننى كنت وغدا سافلا ! .. لست أبغى سوى الوضول ، واذا كنت راغبا فى المال ، فانما أرغب فيه لبلوغ هدف معين ! .. ان الناس يحكمرون عليك بما انت عليه ، وبما تملكين ، فاذا كنت معدمة ، كان عليك أن تخضعى لاوامر سواك . .. لقد عرفت هذا بالقدر الكافى فيما مضى ، ولسوف اكون انا الامر فى المستقبل . .. افهمت أخيرا ؟ .. لا تكلمينى بعد الآن عن هذه السخافات للعينة ! » . فاجابت باكية : « حسن جدا ، حسن جدا . لن أقول شيئا بعد الآن ، ولكنى أؤكد لك انك ستندم على هذا يوما ما ! »

وأفسد عليهما هذا النقاش العنيف نهارهما . .. أفسده على كريستين بنوع خاص . ومع أنها جففت دمعها ، وقطفت كثيرا من أزهار الربيع . .. ومع أنهما قضيا ساعة أخرى على السفح المشمس ، وعرجا - فى العودة - لتناول الشاي فى مشرب « ذى لافاندر - ليدى » ، وتكلما عن أشياء تافهة فى وداد مصطنع . .. مع كل هذا ، فان بهجة يومهما تلاشت . وكان وجه كريستين - وهما يعودان بالسيارة ، وقد أخذ الليل يسدل أستاره - شاحبا مكتئبا . واستحال غضب أندرو شيئا فشيئا الى شعور بأنه قد أهين . .. والا ، فلماذا تنفرد

« كريس » دون الجميع بالثروة عليه ؟ .. كم من نساء غيرها ، نساء فانتات ، يعجبن بنجاحه السريع !

بعد بضعة أيام اتصلت به فرانسييس لونس تليفونيا .. وكانت قد قضت الشتاء في (جمايكا) ، وقد تلقى منها عدة مرات - خلال الشهرين الاخيرين - خطابات تحمل عنوان فندق « ميرتل بانك » . أما وقد عادت ، فقد كانت مشوقة الى أن ترى اصدقاءها ، وتشع عليهم ما استرعبته من أشعة الشمس ! .. وقالت له مازحة - في التليفون - انها كانت تواقه الى أن تراه قبل أن تفقد سمرتها !

وذهب ليتناول الشاي معها .. وكانت - كما ذكرت له - قد اكتسبت سمرة فاتنة . وضاعف من ابتهاجه برؤيتها ترحيبها الذي كان يقرأه في عينيها ، تينك العينين اللتين لم تكونا تكثران باناس كثيرين ، واللتين كانتا تحتفلان به في ود فائق . والواقع انهما تكلما كصديقين حميمين ، فراحا يتحدثاه عن رحلتها ، وعن حداثق المرجان ، وعن الاسماك التي رأتها خلال قوارب ذات قاع من الزجاج ، وعن المناخ البديع .. وتحدث اليها بدوره عن تقدمه . ولعله أبان من خلال كلماته عن شيء من أفكاره الحقيقية ، اذ أنها لم تلبث أن قالت له في خفة : « يالك من عبوس ، جاد الى درجة مخجلة ! .. أهذا ما يحدث لك حينما أغيب ؟ .. كلا ، الحق اننى أعتقد ان هذا راجع الى انك تعمل كثيرا . أيجب حتما أن تظل أبدا تؤدى هذا العمل الكلينيكى ؟ .. أما أنا فأحسب أن الوقت قد حان لتتخذ لك مكتبا في غرب لندن .. في شارع (ويمبول) مثلا ، أو شارع (ويلبيك) ، تقدم فيه المشورات الطبية ! » . وأقبل زوجها في تلك اللحظة .. وكان طويل القامة ، مغنيا بمظهره وحر كاته . وأوما محيا أندرو - الذي أصبح

يعرفه بعد ان لعبا البريدج معا مرة او مرتين في نادى « ساكفيل » - وقبل بسرور قدحا من الشاي قدمته اليه زوجته . وبالرغم من أنه قال متلطفا انه لم يكن يحب أن يقطع عليهما حديثهما ، الا انهما تحولوا عن هذا الحديث فعلا ، وراح ثلاثتهم يتحدثون متفكهين عن آخر مبتكرات الدكتور « رمبولد بلين » !

على أن أندرو شغل ، وهو عائد بسيارته بعد نصف ساعة الى (تيراس تشيسبورو) ، بالفكرة التى أوحى بها مسز لورنس : لماذا لا يستأجر مكتبا للاستشارات فى شارع (ويلبيك) ؟ .. لا ريب أن الوقت قد حان لذلك . وهو لن يترك بحال عملاءه فى (بادنجتون) ، اذ ان دخل عيادته أكثر من أن يضحي به فى غير تبصر ، ولكن من الميسور التوفيق بين العيادة ومكتب يتخذها فى (الويست ايند) ، والافادة من هذا العنوان البراق المغرى فى مراسلاته ، اذ يطبعه على ورق خطباته وقوائم الحساب التى يبعث بها الى مرضاه !

واخذت الفكرة تختمر فى نفسه ، وتحفزها الى غزوات أروع . بالفرانسييس من امرأة عالية القدر، تواقا الى مساعدته - كما كانت مس ايفريت - وان فاقتها جمالا وفتنة .. ثم أنه كان على أتم وفاق مع زوجها ، وليس ثمة ما يخلجه أمامه ، فلا حاجة به الى أن يأتى الى دارهما وكأنه لص جاء يسرق الزوجة من زوجها ! .. آه ! ان الصداقة شئ جميل ! وأخذ يبحث عن مكتب يلائمه - فى (الويست اند) - دون أن يصارح كريستين بشئ . حتى اذا وجد ما ينشد ، بعد نحو شهر من البحث ، قال لها يوما ، وهو يتأمل صحيفته الصباحية فى ارتياح بالغ وفتور كثير : « قد يعينك أن تعرفى اننى استأجرت فى شارع (ولبيك) مكتبا ، أستقبل فيه المرضى من الطبقة الرفيعة ! »

— ١١ —

♦ أحس أندرو — بعد أن استقر في مكتبه الجديد ، في (٥٧ شارع ولبيك) — بشعور جديد بالانتصار . وقال لنفسه مزهوا : « لقد وصلت .. أخيرا وصلت ! » .. ولم تكن الحجرة كبيرة جدا ، ولكنها — بفضل شرفتها — كانت وفيه الضوء ، الى جانب الميزة الهامة التي تمثلت في أنها كانت تقع بالطابق الاول . فان أكثر المرضى يكرهون صعود السلم . وكانت قاعة الانتظار مشتركة بين أندرو وعدد من الزملاء الذين كانت لافتاتهم تلمع الى جانب لافتته على الباب الخارجى . ولكن المكتب كان له وحده .. وما أن وقع عقد الايجار — فى التاسع عشر من ابريل — حتى صحبه فريدى هامبتون لاستلام مقره الجديد .

وكان فريدى جزيل العون له فى اتخاذ التدابير الاولى ، فقد عثر له على ممرضة لائقة — من صديقات الممرضة التى تعمل عنده فى شارع (الملكة آن) — وتدعى « شارب » . ولم تكن جميلة ، بل كانت متوسطة السن ، ذات محيا يرحى بالخشونة ، ولكنه ينم عن كفاءة ومقدرة . وقد برر فريدى اختياره اياها بهذا الايجاز : « أن الممرضة الجميلة هي آخر ما يلزم لطبيب ، وأنت تدرك — أيها الزميل الكهل — ما أعنى ! .. العيش عيش ، والجد جد ، ولا يمكن الجمع بينهما » . فليس منا من يمارس المهنة لذاته ! .. انك تدرك هذا بدكائك .. وبنفسى شعور بأننا سنعمل معا فى تعاون اوثق ، بعد أن أصبحت قريبا منى ! »

وبينما كانا يتجادلان فى أمر تنسيق المكتب ، ظهرت مسز لورنس بغتة .. كانت مارة بالمبنى ، فدخلت مرحلة لتتفقد اختيار أندرو .. هكذا كانت لها طريقة لطيفة فى الظهور مصادفة — فى أى وقت — دون أن تفرض نفسها او تتطفل ! ..



وكانت - في ذلك اليوم - رائعة الحسن بنوع ملحوظ ، ترتدى « تاير » اسود ، وعلى كتفها فراء بديع . ولم تمك طويلا ، بيد أنها أبدت - فيما يتعلق بالزخرف وستائر النافذة وبالطلاء الذى خلف مكتبه - آراء تنم عن ذوق أرفى بكثير من ذوق فريدى واندرو معا !.. ثم انصرفت الشاية المفورة الجبوية ، فبدت الغرفة خالية موحشة . وقال هامبتون : « إذا كنت قد رأيت في حياتى فتى سعيدا ، فهو أنت !.. أنها امرأة غضة جميلة ! » . وارتسمت على وجهه امارات الحسد ، واستطرد قائلا : « ما الذى قاله جلادستون في سنة ١٨٩٠ ، عن أمثل طريقة لدفع الانسان قدما في مهنته ؟ » - لست أدري ما الذى ترمى اليه !

بيد أنه - حين تم ترتيب الغرفة - اضطر الى الاقرار مع فريدى ومع فرانسيس ، التى جاءت تتفقد نتيجة ارشاداتها ، بأن المكتب أصبح يبدو حديث الطراز ، يوحى بالجود المنشود ، بحيث يستطيع مع هذا الزخرف أن يحدد اتعابه بثلاثة جنيهات ، كمستوى معقول .

وكان عدد الرواد قليلا في البداية . غير أنه - بفضل خطابات الرقيقة الى الأطباء الذين كانوا يرسلون له مرضى في مستشفى فيكتوريا - ما لبث أن نسج لنفسه شبكة من الأطباء المعارف ، امتدت الى جميع أحياء لندن ، فجلبت له

مرضى ، وأصبح جد مشغول ، ينطلق بسيارته السريعة من (تيراس تشيسبورو) الى مستشفى فيكتوريا ، ومنه الى شارع (ويلبيك) ، فضلا عن جولة كان يعود خلالها قائمة طويلة من المرضى في بيوتهم .. وأخذت عيادته تزدهم - في كل وقت - بالمرضى ، حتى بات مضطرا الى العمل يوميا حتى العاشرة مساء .

وأصبح دخله - بعد هذا النجاح - يغطي كافة نفقاته ، ويسرى في عروقه كالأكسير . وبالرغم من كثرة مشاغله ، فانه استطاع أن يذهب الى « روجرز » ليعد له ثلاث بذلات جديدة ثم الى صانع أقمصه في شارع (جارميني) أرشده اليه هامبتون . وزادت شهرته في المستشفى . ولاشك أن الوقت الذي كان يخصصه لمرضى العيادة الخارجية قل عن ذي قبل ، بيد انه كان يعلل نفسه بأن خبرته كانت خير عرض عن الوقت الذي اقتطعه ! .. وحتى مع أصدقائه ، كان كثيرا ما يبدو متعجلا ، وكان يعتذر عن ذلك قائلا برقة أخاذة ، وبابتسامة يحذقها : « يجب ان اذهب يا صديقى ، فان الظروف تدفع ساقى دفعا ! »

بعد خمسة أسابيع من استقراره في مكتبه الجديد ، جاءت - ذات مساء - امرأة مسنة تستشير لالم في حنجرتها . ولم يكن لديها سوى التهاب بسيط في الحنجرة ، بيد أنها كانت متشككة ، فرغبت في استشارة طبيب ثان . وجرح هذا كبرياء أندرو شيئا ما ، فأخذ يفكر في طبيب يوصيها بالذهاب اليه .. ورأى من السخف أن يضع بها وقت رجل مثل سير روبرت آبي . وبغثة ، اشرق وجهه اذ فكر في جاره هامبتون . فلقد أبدى فريدى نحوه في الايام الاخيرة الكثير من رقة الجانب ، ومن ثم صار أجدر بالجنهات الثلاثة

من أى شخص غريب ، فأرسلها اليه بعد أن زودها بخطاب خاص . وان هى الا ثلاثة أرباع الساعة ، حتى عادت اليه وقد تغير مزاجها كل التغير وبدت هادئة ، معتذرة ، راضية عن نفسها ، وعن هامبتون ، وعنه هو بوجه خاص . وبادرته قائلة : « اغفر لى يا دكتور عودتى ، فانما أردت أن اشكرك لما بذلته لى . وقد قابلت الدكتور هامبتون وأقر كل ما قلته أنت ، وذكر أن ما تضمنته تذكرتك الطبية هو خير دواء يعطى لحالتى ! »

وفى شهر يونيو ، أجريت لـ « سيبيل ثورنتن » عملية استئصال اللوزتين ، وكانت متضخمتين بعض الشيء . . وكانت صحيفة « الجورنال » قد نوهت — فى الفترة الاخيرة — بالاطار التى تنشأ عن تضخم اللوزتين ، وعلاقته بافراز مواد ضارة تسبب الروماتزم . وقد أجرى « افورى » الجراحة بعناية فائقة . . وقال لاندرو وهو يغسل يديه بعدها : « اننى أفضل التبصر والتمهل كلما تعلق الامر بالانسجة اللمفاوية . لابد أنك زابت زملاء ينتزعونها بضربة واحدة من الموضع ، ولكنى لا أحذو حذوهم ! »

وكان فريدى مع أندرو حينما تلقى الاخير الاذن المصرفى الذى وصله بالبريد ، كالمرة الاولى ، من افورى . وكان الاولان قد أصبحا كثيرى الالتقاء ، سواء فى مكتبيهما ، أو خارجهما ، وقد رد هامبتون لاندرو الصنيع ، اذ أحال اليه مريضة تشكو من ألم فى المعدة ، فى مقابل المريضة التى أرسلها له أندرو وهى تشكو من التهاب الحنجرة . . وموجز القول أن مرضى عديدين تنقلوا فى تلك الحقبة من شارع (ويلبيك) الى شارع (الملكة آن) وبالعكس . . وقال له فريدى وهو يحملق فى الاذن المصرفى : « أتعرف يا مانسون اننى مسرور لعزوفك عن خطتك القديمة ، ومسائرتك ركبنا ؟ . . ومع ذلك فأنت لا تزال — حتى الآن — فى أول الطريق ، لم تمتص من عصير البرتقالة

سوى بعضه . اتفق معى يافتاى تجد الفاكهة اغزر عصاره ! »
 وضحك أندرو . . وفيما كان عائدا الى داره - فى ذلك
 المساء - احس بأنه مرتاح على نحو ملحوظ . وكانت سجاثره قد
 نفدت ، فعرج على حانوت فى شارع (اكسفورد) يتاع علبة .
 وعند خروجه ، لمح فجأة امرأة تنسكع أمام نافذة متجر
 مجاور . . واذا بها بلودوين بيدج ! . . وعرفها على الفور ،
 برغم انها كانت قد تغيرت كثيرا عما كانت عليه فى (برينجور) .
 فقد أصبحت هزيلة القوام ، مفككة الاوصال ، تشى عيناها -
 اللتان رفعتيهما اليه حينما وجه اليها الخطاب - بالتبدل
 والانهياء ! . وهتف مقبلا عليها : « مسز بيدج . . أو مسز
 ريس الآن ، فيما أحسب ! . . الا تعرفيننى ؟ انا الدكتور
 مانسون ! »

وتأملت بذلته الانيقة ، ومظهره الدال على الثراء ، ثم
 قالت : « أذكرك تماما يا دكتور . آمل أن تكون فى صحة
 جيدة ! » . وتحولت عنه وكأنها لم تكن تستطيع البقاء طويلا ،
 فسارت الى حيث كان فى انتظارها - على بضع خطوات -
 رجل طويل أصلع ، بعد أن قالت له فى وجل مختمة الحديث :
 « يجب أن أنصرف يا دكتور ، فان زوجى ينتظرنى ! »
 ورأهما أندرو يتعدان على عجل . . وسمع ريس يؤنبها
 قائلا : « ما معنى أن تتركينى أنتظر هكذا ؟ » . فنكمت
 رأسها فى خنوع . واحس أندرو - لحظة - بنظر مدير البنك
 مصوبا اليه ، ثم اختفى الزوجان وسط الجمع !
 ولم يستطع أندرو أن يقضى هذه الصورة عن ذهنه . .
 وعندما بلغ داره ، ودخل «الصالون» الصغير ، وجد كريستين
 تعمل فى حيك الصوف « التريكو » ، والى جانبها الشاى
 الذى كانت قد طلبت من الخادم احضاره - من أجله - حينما
 سمعت صوت السيارة . والقى عليها نظرة مستجوبة عاجلة ،
 وهو يود أن يقص عليها ما حدث ، وقد جاشت فى صدره

رغبة مفاجئة في ان يصلح مافسد بينهما . غير انها لم تلبث ان قالت له في هدوء ، وهى تقدم له قدح الشاي : « لقد سألت عنك مسز لورنس بالتليفون مرة أخرى بعد ظهر اليوم . . . ولم تذكر أية خدمة ترجوها منك ! » . فقال وقد احمر وجهه : « آه ! . . ما الذى تعنيه بعبارة : مرة أخرى ؟ »

— انها تسأل عنك للمرة الرابعة ، فى هذا الاسبوع .

فتساءل : « ثم ماذا ؟ » . وكان جوابها : « لا شيء . . ثم اقل شيئاً ! » . فقال : « ولكن منظرک يقول الكثير . . ماذا املك اذا كانت تسأل عنى ؟ » . فصمتت وعيناها تتأملان الصوف . . ولو انه أدرك ما كان يشغل هذا الرأس الخفيض الصامت ، لما غضب على هذا النحو . ولكنه استرسل قائلاً : « لكأنى فى نظرك زوج لاثنتين ! . . انها من خيرة النساء ، وزوجها من صفوة اصدقائى ، وهما زوجان جديران بالاعجاب ! . . انهما — على الاقل — لا يديان مثل هذه الكتابة ! . . اواه ، يا للجحيم ! »

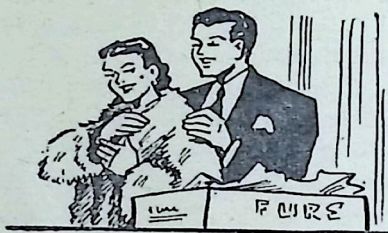
واحتسى مابقى من شايه ونهض . على انه لم يكمل يرح الغرفة ، حتى أحس بالندم ، فدلف الى عيادته ، وأشعل سيجارة ، ثم راح يفكر فى كيف راحت الامور بينه وبين كريستين تسير من سىء الى اسوأ ، رغم انه لم يكن يريد لها ان توغل فى السوء ! . . كان الجفاء — الذى فرق بينهما — يثقل على نفسه ، ويهفو باعصابه ! . . كان بمثابة السحابة الوحيدة السوداء فى سماء نجاحه !

لقد كان ينعم — مع كريستين — بسعادة غامرة منذ ذكريات خطبتهما فى (بلينيللى) . انه لم يعد « يعبد » كريستين كما كان فيما مضى ، لكنه . . لا يزال مشقوقاً بها !

— وان كان قد أساء اليها مرة أو مرتين في الاسابيع الاخيرة ! وراودته رغبة طاغية في تنقية الجو بينها وبينه ، وفي ان يدخل السرور الى نفسها ، وفي أن يهدى روعها . واستغرق في هذه الفكرة ، وفجأة ، أومضت عيناه ، ونظر الى ساعته فتبين انه لم يزل باقيا نصف ساعة بالضبط قبل أن يغلق متجر « لورييه » ابوابه . وان هى الا دقيقة واحدة ، حتى كان داخل سيارته في طريقه الى هناك . وما ان شرح لمس كرامب ما كان ينبغي ، حتى أبدت أحسن استعداد لخدمته . فتحدثا في جد ، ثم ذهبوا الى قسم الفراء ، حيث قدمت للدكتور مانسون أنواعا مختلفة منها ، راحت تداعبها بأصابعها الخبيرة ، مينة ميزاتها ومحاسنها . .

وأخيرا ، وقع اختياره على فرو أقرته عليه تماما ، فذهبت تبحث عن مستر « وينش » ، ثم عادت بعد لحظة مشرفة الوجه لتقول له : « لقد أمر مستر وينش بأن تأخذ هذا الفرو بشهنة التكلفة ! » — فان شفتى أية بائعة لدى لورييه كانتا تعفان عن عبارة « ثمن الجملة » ! — وأردفت فائلة : « وعلى هذا ، يكون الثمن خمسة وخمسين جنيها . صدقنى يادكتور ان هذه هى قيمته ! .. انه فرو رائع ، رائع حقا ، وسوف تزهو زوجك بارتدائه ! »

وفي الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ، تناول اندرو الصندوق الاخضر المصنوع من الورق المقوى ، والذي نقشته عليه علامة « لورييه » التجارية ، ودخل الصالون مناديا : « كريستين ، تعالى لحظة ! » .. وكانت فى الطابق الاعلى ، تساعد مسز بنيت فى تنسيق المخدعين . بيد أنها جاءت على الفور لاهثة شيئا ما ، وهى فى دهشة لهذا النداء . فلبادرها قائلا : « انظرى يا حبيبتي ! » .. واحس — وقد اقترب الموقف من ذروته — بحرج وارتباك خائق . ولكنه أردف : « لقد اشتريت لك هذا . أعرف .. أعرف جيدا اننا لسنا على



تفاهم تام في الفترة الاخيرة ، ولكن هذا خليق بأن يثبت لك . . ! » . وأمسك عن الكلام ، وقدم لها الصندوق في ارتباك ، ففتحته جد شاحبة ، وقد أخذت يداها ترتجفان ، ثم صاحت مبهورة : « يا للفرو الجميل الرائع ! » وتناولته في سرعة ، وداعبه - كما فعلت مس كرامب - وقال في تأثر : « هل يهوق لك يا كريس ؟ .. جريبه ! لقد ساعدتني « الهافباك » العجوز في اختياره . انه لا يفضل نوع آخر في فخامة النزع ، وفي الثمن أيضا . اترين تلك الوبرات الماسية ، واللون الفضي على الظهر ؟ .. ان هذا بالذات هو الذي ينشد في الفراء ! » . فاستدارت اليه في انفعال ، والدمع يجري على وجنتيها ، وهتفت : « انك تحبني ، الست كذلك يا حبيبي ؟ .. ان هذا هو الشيء الوحيد الذي اتشبهت به في هذه الدنيا ! » .

واستعادت أخيرا هدوء نفسها ، وجربت الفرو ، فالفته رائعا . واحسنت لذلك ببغطة بالغة . . . ولم يقنع أندرو بذلك ، بل اراد أن يبلغ الصلح تمامه ، فقال مبتسما : « اصغى الى يا كريس ! .. تعالى نحتفي بهذه المناسبة ، ولنتناول

غداءنا في الخارج .. سأكون في انتظارك بعد ساعة في مطعم بلازا ! » . « بادرت قائلة : « حسنا يا جيبى ! » . ثم أردفت في تردد : « ولكنى .. كنت قد أعددت للغداء « فطير الراعى » الذى تحبه كثيرا ! » . فقال وهو يضحك في سعادة غامرة ، كما لم يضحك منذ شهور : « لا ، لا ، لا .. لا تكونى من الصجائر اللاتى يبقين في الدور . بعد ساعة تلحقين بالحبيب الاسمر المليح ، في « البلازا » . لاداعى لان تضمي قرنفل حمرء ، فانه سيصرفك عنى الفور ! »

وقضى فترة الصباح وهو صافى المزاج مبتهج . لكم كان ابله ! كيف استطاع ان يهمل كريستين ؟ ! .. ان كل النساء يحبن ان يكن موضع رعاية ، وان يظهرن الى جانب رجالهن خارج الدور ، وان يحظين بأسباب الترفيه ! .. ولقد كان مطعم « بلازا » مكانا بديعا ، تلتقى فيه - بين الساعتين الواحدة والثالثة من بعد الظهر - بكل ، أو معظم ، ذوى المكانة في لندن !

وانقضى الموعد ولم تصل كريستين - على خلاف عاداتها - مما بحث في اندرو شيئا من القلق ، وهو يجلس في « صالون » المطعم ، يوقب الموائد - من خلال الفاصل الزجاجى - وقد أوشكت أنضلها موقعا ان تشغل . واضطر الى ان يطلب قدحا ثانيا من النبيذ .. وكانت الساعة الواحدة والثلاث حينما دخلت كريستين مندفة ، مأخوذة بالصخب والجلبة ، والجمهور - والسقاة في لباسهم الانيق ، فضلا عما اعتراها من ضيق لأنها مكثت نصف ساعة في بهو آخر . وقالت لاهثة : « آسفة يا جيبى ، لقد سألت كثيرا عنك ، وانتظرت طويلا في بهو المطعم قبل أن أفطن الى انك تنتظر في الصالون ! » ولم يجد السقاة لهما سوى مائدة رديئة الموقع ، بجانب عمود

قريب جدا من المطبخ . ولم يكن في القاعة موضع لقدم ،
والوائد متقاربة - حتى لكان القوم يجلسون بعضهم على ركب
بعض - والسقاة يروحون ويحيئون ، ويأتون بحركات
بهلوانية . وكان القيظ خائفا للانفاس ، والضجيج يعلو
وينخفض ، اشبه ما يكون بالهتاف في مباراة بجامعة أمريكية .

**وقال أندرو : « والآن يا كريس .. ماذا تودين من ألوان
الطعام ؟ » . « فأجابت بصوت خافت : « اختر أنت لى
يا حبيبى ! » . فطلب غداء فاخرا : « كفيار » ، وخضرا ،
ودجاجا ، وفاكهة ، وزجاجة نبيذ ! .. وضحك - وهو يصر
على أن يكون مرحا - وقال : « اننا لم نكن نعرف شيئا من
هذا أيام (بلينيللى) ! .. ليس أبهج من هذا يا حبيبتى ،
سوى أن يسودنا التعاطف ! »**

وحاولت وسعها أن تجامله ما استطاعت ، فأطرت « الكفيار » ،
وبذلت جهدا بطوليا فى احتساء الحساء الدسم ، وتظاهرت
بالإهتمام حينما ذكر « جلين روسكو » النجمة السينمائية ،
و « مارفيز يورك » الامريكية التى اشتهرت بزواجها من
سنة أزواج ، وشخصيات دولية أخرى لم تكن تقل شهرة .
وبدا لها هذا المكان - بما سادته من تظاهر مصطنع - بؤرة
بشعة . فقد كان الرجال مسرفين فى التأنق والتنعيم والترهف
.. وكانت كل امرأة وقعت عليها عينا كريستين شقراء فى
ثوب أسود ، وشبيقة ، مصبوغة الوجه بصنوف الساحيق ،
بادية الاستهتار الى درجة الاسترجال !

وسرعان ما شعرت كريستين بصداع خفيف ، وبدأت تفقد
اتزانها النفسى . وكانت طباعها - فى العادة - تتسم بالبساطة
وعدم التكلف ، غير أن أعصابها عانت توترا شديدا فى الفترة
الاخيرة .. ولم تلبث ان فطنت الى عدم التناسق بين الفرو
الجديد وفستانها الرخيص ، فخيّل اليها أن النساء الاخريات
كن يحقدن فيها ، وأنها - وسط هذا الجمع - فى غير مكانها ،

فكانها زهرة فطرية في بستان للزهور الثمينة . وسألها أندرو فجأة : « ماذا بك ؟ ألا يروق لك المكان ؟ » . فلهتفت ، وهى تحاول جاهدة أن تبتسم ، دون أن تطيعها شفتاها : « بلى طبعاً » . وكادت لا تقوى على ابتلاع الطعام ، بله ان تذوق الدجاج المحشو بالقشدة ، فى طبقها !

وغمغم أندرو ممتعضاً : « انك لا تصفين الى شىء مما أقوله لك . بل انك لم تمسى نبذك .. يالشيطان ! ان الرجل حين يصطحب زوجه الى مطعم .. » . وأمسك ، فسألته فى صوت خافت : « هل من قليل من الماء ؟ » . وتمنت لو استطاعت أن تصرخ ! .. انها لم تخلق لبيئة كهذه . فما كان شعرها مصبوغاً ، ولا وجهها مكسواً بالمساحيق ، فلا عجب أن راح يحملق فيها كل انسان ، حتى السقاة أنفسهم ! .. وتناولت شيئاً من الخضر فى ارتباك ، فانسكب على القرو الجديد واطخه بالصلصة .. ونظرت الشقراء - الجالسة الى المائدة الملاصقة - الى رفيقها متسهمة ، فلاحظ أندرو ذلك . وعزف عن الحديث المرح ، وفرغاً من العشاء فى صمت كئيب . وعادا الى دارهما أكثر اكتئاباً . وسرعان ما برح أندرو الدار مهرولاً لاداء عياداته ، وقد أصبحا متباعدين كما لم يتباعداً فى أى وقت مضى ، وقد عصف الألم بكريستين . وبدأت تفقد كل ثقة فى نفسها ، وتتساءل : أهى المرأة التى تليق بأندرو ؟ .. على انه لم يكد يعود فى تلك الليلة حتى طوقت عنقه بذراعيها ، وقبلته ، وشكرته مرة أخرى من أجل الفراه والعشاء .. فأجابها بلهجة جافة : « يسعدنى ان سرك هذا ! » . ثم انصرفت الى مخدعه !

— ١٢ —

♦ وحدث فى ذلك الحين أمر صرف انتباه أندرو - بعض الوقت - عن متاعبه الداخلية . فقد وقع نظره مصادفة فى

صحيفة « التربيون » على نبأ وصول مستر « ريتشارد ستيلمان » بيولوجى (بورتلاند) الذائع الصيت فى الولايات المتحدة ، قادما على ظهر « الامبريال » ، ونزوله فى فندق « بروك » .. ولو أن شؤونه المنزلية كانت تسير سيرتها الاولى ، لجرى نحو كريستين مبتهجا غاية الابتهاج ، ممسكا الصحيفة بيده صائحا : « انظري يا كريس ، لقد جاء ريتشارد ستيلمان الى انجلترا منذ قليل ! .. أتذكرين ؟ .. لقد كنت اراسله فى هذه الأشهر الاخيرة . وانى لاتساءل : هل يستقبلنى ؟ .. احق اننى سأكون سعيدا جدا لو استطعت ان أقابله ! » . ولكنه كان قد عزف عن عادة الجرى الى كريستين . وبدلا من هذا ، راح يطيل التفكير محققا فى الصحيفة ، وهو سعيد اذ يفكر أن فى امكانه التعرف بستيلمان ، لا كمساعد متواضع ، بل كليب استشارات فى شارع (ويلبيك) ! **وبعناية فائقة ، كتب خطابا على الآلة الكاتبة ، يذكر فيه العالم الأمريكى بنفسه ، ويدعوه للفداء - يوم الاربعاء - فى مطعم بلازا .**

وفى صباح اليوم التالى ، اتصل به « ستيلمان » تليفونيا .. وكان صوته رضىنا ، ولهجته ودية ، وكلماته واضحة : « يسعدنى ان أتكلم معك يادكتور مأنسون ، ويسرنى ان أتفدى معك ، على ان لا نذهب الى « بلازا » ، فانى أكره هذا المكان .. لماذا لا تأتى انت فنتناول الغداء معا هنا ؟ »

ووجده أندرو فى « صالون » الجناح الذى كان يشغله بفندق « بروك » . وهو نزل هادىء ، بديع الاثاث ، يطفى بجوه المحترم على فندق « بلازا » الصاخب ! .. وكان الجو قائظا ، وقد تعب أندرو كثيرا فى الصباح ، فما أن وقع نظره على مضيفه حتى أوشك ان يتمنى لو أنه لم يحضر ! .. كان الأمريكى قصيرا ، نحىلا ، ذا رأس ضخيم غير متناسب القسما وفك بارز .. وكان فى الخمسين من عمره ، ولكنك حين ترى لونه الابيض المشرب بالحمرة ، تحسبه فى ريعان الشباب .

وكان شعره الاشيب مفروقا عند وسط الراس .. واذ رأى
أندرو عينيه الصافيتين ، الثابتتي النظرات ، اللتين اوتيا
زرقة هادئة باهتة ، أدرك القوة الدافعة الكامنة في هذا الجسم
الضئيل الذي بهت عند ما رآه !

وقال ريتشارد ستيلمان في رصانة الرجل الذي ألف من
الناس أن يروا في سعيهم اليه مسرة ومتعة : « أمل ألا يكون
القدوم الى هنا قد ضايقتك .. لقد كان المفروض أن نجيب
— نحن الامريكيين — بالبلازا ، ولكن رواد ذلك المكان من وغاد
القوم ! » . واعتدل في مجلسه ، ومضى يقول : « الآن وقد
سعدت برؤيتك ، اسمح لى ان اهنئك ببحثك القيم عن الغبار
الذي يتسرب الى الرئتين مع الهواء .. وماذا تراك فعلت في
المدة الأخيرة ؟ »

وهبطا الى المطعم ، حيث عنى كبير الخدم شخصا بخدمة
« ستلمان » ، الذي قال لاندرو دون أن ينظر الى قائمة الطعام
المكتوبة بالفرنسية : « ماذا تطلب ؟ .. أما أنا فساطلب عصير
البرتقال ، ثم ضلعين من الضأن الصغير ، وقهوة ! » ..
وأملى أندرو ماطاب له ، ثم استدار نحو صاحبه في احترام
متزايد .

وكان من المستحيل أن تبقى طويلا في مواجهة ستلمان دون
أن تلمس جاذبية هذه الشخصية . والحق ان تاريخه —
الذي عرف أندرو خطوطه العريضة — كان فريد في نوعه : فقد
كان ينحدر من أسرة عريقة من أهل ولاية (ماساتشوستس)
الامريكية ، شغلت منذ أجيال في (بوسطن) مراكز في القضاء
والمحاماة . غير أن الفتى ريتشارد ستلمان — برغم هذا
التقليد — أبدى رغبة قوية في تكريس نفسه لمهنة الطب ،
وإذن له أبوه أخيرا — وهو في الثامنة عشرة من عمره — أن

بدأ دراساته في جامعة « هارفارد » . . فتابع الدراسة سنتين ثم توفي أبوه فجأة، تاركاً إياه وأمه وأخواته في ضنك . واذ لم يكن ثمة بد من إيجاد وسيلة للوفاء بمطالب الأسرة ، فقد ألح الرجل الطاعن « جون ستلمان » - جد ريتشارد لاييه - في أن يترك ريتشارد الطب ويلتحق بالحقوق ، جرياً على تقاليد الأسرة . .

ولم تجد أية مناقشة ، فقد أصر الجد على رأيه وأبى أن يتزحزح عنه . فاضطر ريتشارد إلى الحصول على درجة في القانون ، بدلاً من الشهادة الطبية التي كان يتمناها . وقد استغرق في ذلك ثلاث سنوات ، ثم التحق - في سنة ١٩٠٦ - بمكتب الأسرة ، وكرس نفسه للأعمال القانونية لاربع سنوات . على أنه لم ينصرف إليها بكل اهتمامه ، إذ أن « البكتريولوجيا » - ودراسة الميكروبات بوجه خاص - كانتا قد اجتذبتاه منذ بدأ يدرس الطب ، وكان قد أنشأ لنفسه معملًا كيميائياً صغيراً في مخزن بيته ، في (بيكون هيل) ، فراح يقضي كل أوقات فراغه ، يعاونه أحد كتبة المكتب على إرضاء ميله . وكان هذا المعمل نواة معهد ستلمان في الواقع !

ولم يكن ريتشارد ستيلمان هاوياً ، بل إنه لم يكن ذا مهارة فنية فائقة فحسب ، وإنما كان ذا أصالة تنبع عن عبقرية . . وفي شتاء سنة ١٩٠٨ ، ماتت أخته « ماري » - التي كان يحبها ويحنو عليها كثيراً - إثر مرض صدرى لم يمهله طويلاً ، فكان ذلك سبباً في تركيزه كل جهوده على ميكروب السل . ورجع إلى المؤلف القديم الذي وضعه « بير لويس » وتلميذه الأمريكي « جيمس جاكسون » . وقادته دراسته لحياة « لايناك » إلى دراسة الرئتين من الناحية الفسيولوجية ، واخترع نموذجاً جديداً للمسماع الطبى . ثم بدأ محاولاته الأولى لتركيب مصل دموى ، بما كان لديه من أجهزة قاصرة .

وكان قد توصل الى شفاء سسل الفئران ، عندما توفي جده « جون ستلمان » ، في سنة ١٩١٠ ، فكانت لهذين الحدين - الموت والشفاء - نتائج مباشرة : فلقد كانت أم « ريتشارد » راضية عن أبحاث ابنها العلمية طيلة الوقت ، فلم يشق عليه كثيرا أن يقنعها بتخليه عن المؤسسة القانونية . . وبفضل الاموال التي ورثها عن جده ، اشترى في (بورتلاند) - بولاية (اوريجون) - ضيعة ، لم يلبث أن انغمس فيها في ممارسة العمل الحقيقي الذي وقف عليه حياته .

وكان قد أضع سنوات ثمينة عديدة من حياته ، فلم يحاول أداء امتحان للحصول على إجازة الطب ، اذ كان يصبو الى اكتشافات . . الى نتائج . . وسرعان ما استخرج مصلا للخيول ، ونجح - عن طريق الحقن - في تحصين قطيع من الإبقار بولاية (جيرسي) ضد السسل ، وهو يطبق - في الوقت ذاته - النتائج الجوهرية التي توصل اليها « هيلمولتز » و « ويلارد جيبس » - من جامعة ييل - وغيرهما من أهل الطب الذين أعقبوهما ، مثل « بيزاليون » و « زينكس » ، في علاج امراض الرئة . ومن ثم اتجه مباشرة الى العلاج . وصادفت طريقة العلاج المبتكرة - في معهده الجديد - نجاحا كبيرا ، فشفيت بفضلها حالات كثيرة . على أن ما أصابه فيما بعد من نجاح علاجي - فاق نجاحه في الأبحاث العملية - كان العامل الاول في شهرته وذبوع صيته . وكان اغلب مرضاه من المصدورين الذين تنقلوا بين مختلف المصحات ، وبات معروفان لا سبيل الى شفائهم . وكان من نتيجة النجاح الذي أحرزه في علاج هؤلاء المرضى ، أن وجهت اليه الاتهامات ، وان ناصبته الهيئة الطبية عدااء سافرا . واذا ذلك ، بدأ - بالنسبة لستلمان - صراع من نوع آخر ، صراع طويل من أجل الاعتراف به . وكان قد انفق في تأسيس معهده كل ما يملك ، حتى آخر دولار . . كما ان صيانه كانت تقتضيه

مبالغ طائلة . وكان يكره الاعلان كرها شديدا ، ويقاوم كل دعوة توجه اليه لتحويل أعماله الى أعمال تجارية . وكثيرا ما بدا أن المتاعب المادية - الى جانب المرارة التي أخذ يحسها لما كان يلقي من معارضة عنيفة - قد أوشكت أن تنال منه . ولكن ستلمان كان يجتاز جميع الازمات بشجاعة نادرة ، حتى ان الحملة الشعواء التي شنتها عليه إحدى الصحف الامريكية ، لم تفت من عضده أو توهن عزيمته .

وما لبثت زوبعة الافتراءات ان مرت وخفت حدة المقاومة . وشيئا فشيئا أنصف المعارضون ستلمان . . وفي عام ١٩٢٥ ، زارت لجنة من واشنطن المعهد ، وقدمت تقريرا حارا عن أعماله . واذ اعترفت الهيئات بستلمان ، أصبح يتلقى هبات كبيرة من الاشخاص ، ومن مديري الشركات ، بل ومن الهيئات العامة . فخصص هذه الاموال لتوسيع وتحسين المعهد الذي أصبح قبلة الانظار في ولاية (اوريجون) ، بفضل اجهزته واثاثاته الرائعة ، وموقعه ، وقطعان ماشيته المستوردة من (جيرسي) ، والدم الايرلندي النقي للمصل . . واذا كان ستلمان لم يتخلص تماما من أعدائه - فلقد أدت الحزازات

التي ترتبت على طرد أحد غلمان المعمل ، في سنة ١٩٢٩ ، الى اشغال حملة جديدة للتشهير به - الا انه اكتسب ، في القليل ، حق مواصلة العمل الذي كرس له حياته . ولم يبدله النجاح ، بل ظل نفس الرجل الهاديء المتحفظ ، الذي قام قبل خمس وعشرين سنة بدراساته الاولى في قبو منزل في (بيكون هيل) ! وها هو ذا يجلس في مطعم فندق بروك ، يرمق أندرو - الجالس في مواجهته - في ود ضاف ، ثم يحدثه : « ما أبهج أن يكون المرء في انجلترا . ان بلادكم تروق لى ، والصيف عندكم اللطف منه عندنا ! » . فقال أندرو : « احسب أنك قدمت لإلقاء بعض المحاضرات » . واجاب مبتسما : « كلا ، لم أعد



لقى محاضرات .. ايكون من الخيلاء أن أقول انى ادع النتائج
تحدث بدلا منى ؟ .. الواقع اننى جئت التماسا للراحة .
واتفق أن مواطنك مستر « كرانستون » - أقصد « هيربرت
كرانستون » الذى ينتج هذه السيارات الصغيرة الرائعة - كان
قد زارنى فى أمريكا منذ ما يقرب من عام ، وكان يعانى طوال
حياته من مرض الربو ، وقد تمكنا أخيرا - فى المعهد -
من شفاؤه . فلم يكف - منذ ذلك الحين - عن الإلحاح على
فى الحضور الى هنا ، وإقامة مصبح صغير من نوع مصبح
(بورتلاند) . وقد وافقت منذ ستة أشهر مضت على ذلك ،
فوضعتنا التصميمات ، واخترنا المكان .. وقد اطلقنا عليه
« بيلفى » .. ان البناء وشيك الانتهاء ، فوق (شيلترنز) ،
بالقرب من (هاى ويكومب) . وسابقي الى أن افتتحه ، ثم
أكل امره الى « مارلند » ، أحد مساعدى . اننى أرى فيها
تجربة بحق ، تجربة تبشر بخير كثير بالنسبة لناهجي ،
خصوصا من ناحية المناخ والجنس .. فإن الجانب المالى
لا أهمية له !»

فقال أندرو وهو يميل نحوه : « انه لامر يبدو عظيم القيمة .
وما الذى تركز عليه جهودك بوجه خاص ؟ .. لكم أحب أن
أرى مؤسستك ! » . وأجاب ستلمان : « يجب أن تأتى بعد
أن يتم كل شيء .. لسوف نعنى فى المؤسسة بعلاج الربو
بطريقتنا الحاسمة ، فلقد أصر كرانستون على ذلك . ثم اننى

تخصصت في بعض حالات السل الاولية بنوع خاص ، واقول « بعض الحالات » لاننى لا انسى اننى لست سوى مشغل بالطبيعة الحيوية ، اوتى بعض المعلومات عن الجهاز التنفسى . غير أنه من العسير علينا - فى أمريكا - ان نتفادى أن يجرفنا التيار . . ماذا كنت أقول ؟ آه ! نعم . . ان حالات السل الاولية هذه تثير اهتمامك . وانا أعالج هذه الحالات بطريقة مبتكرة ، سأشرحها لك عندما تزور المصح ! »

وتطرقا الى حديث فنى حول هذا الموضوع ، فلم يمسكا الا حينما نظر ستلمان الى ساعته ، وفطن الى أنه قد تأخر نصف ساعة عن موعد مع كرانستون .

غادرو أندرو فندق بروك نشطا مبتهجا . غير أنه ما لبث أن أحس باضطراب وعدم رضى عن عمله ، نتيجة لما سمعه ، فراح يقول فى نفسه وهو محقق : « لقد تركت هذا الزميل يمسك بزمامى ويقودنى » . . ومن ثم فانه لم يكن صافى المزاج ، حين بلغ (تيراس تشيسبورو) ، على أنه جهد - عندما وقف أمام داره - فى أن يبدو فاترا ، غير مبال بشئ . اذ أن علاقاته بكريستين كانت تقتضيه - فى تلك الفترة - أن يظهر أمامها بهذا المظهر ، فقد أصبحت تبدو له منصاعة ، غير مبالية ، مما رأى معه أن من الخلق به أن يجيبها بالمثل ، ورغم أنه كان - فى دخيلة نفسه - مهتاج المشاعر . ولقد لاح له أنها نظوت على نفسها ، ولأذت بحياة خاصة لم يكن له من سبيل للنفاد إليها !

ذلك أنها أصبحت تكثر من القراءة وكتابة الرسائل . . ولقد وجدها مرة أو اثنتين - عند وصوله الى الدار - تلاعب « فلورين » بلبب الاطفال . كما أصبحت تتردد على الكنيسة بانتظام وزغبة صادقة ، وهذا ما أغضب أندرو أكثر من كل

شيء آخر !.. لقد كانت تصحب مسز وتكينز - في
 بليينيللى - الى كنيسستها ، في يوم الاحد من كل اسبوع ، فلم
 يكن يجد داعيا للشكوى او التذمر . اما وقد تبدلت الحال
 بينهما غير الحال ، فقد أصبح يرى في ذلك مزيدا من التهوين
 من امره ، ومظهرا للتقوى موجهها الى فكره المضنى . واذ
 دخل « الصالون » في ذلك المساء ، وجدها جالسة وحدها ،
 وقد اسندت مرفقيها الى المائدة ، ووضعت نظارتها - التى
 أصبحت تستعملها منذ فترة - على عينيها .. وامامها كتاب ،
 فبدت - بحجمها الصغير - كتليمة تستذكر دروسها .
 وأحس فجأة بالدم يغلى في عروقه ، ومال فوق كتف زوجته ،
 فتناول الكتاب الذى حاولت - بعد فوات الوقت - أن تخفيه
 عنه ، وقرأ فى أعلى الصفحة : « انجيل القديس لوقا » . فهتف
 متلعثما ، مهتاجا بعض الشيء : « يا الهى !.. أهذا ما انتهى
 اليه امرك ، أن أصبحت تقنعين بقراءة الكتاب المقدس ؟ ! »
 - ولم لا ؟.. لقد كنت اقرؤه قبل أن التقى بك !
 - آه !.. اكنت كذلك حقا ؟

فأجابته وفي عينيها نظرة غريبة ، طافحة بالالام : « أجل ..
 قد لا يقر هذا أصدقاؤك من رواد « بلازا » ، بيد أنه - على
 أية حال - أدب رفيع ! » . فقال : « أهو كذلك ؟.. حسنا ،
 دعيني أقل لك شيئا قد تكرنى تجهلينه : انك تتحولين الى
 امرأة عصبية ، سريعة الانفجار ! » . وكان جوابها : « قد
 يكون الامر كذلك ، هذا ايضا ذنبى وحدى ، ولكن دعنى
 أقل لك شيئا بدورى : لخير لى أن أكون امرأة عصبية ذات
 روح حية ، من أن أكون رجلا ذا نجاح باهر ، ولكنه ذو روح
 ميتة !.. » . وأمسكت فجأة ، وعضت على شفتيها ، وكبحت
 دمعها . واستطاعت بمشقة ان تسيطر على نفسها ، ثم قالت
 وهى تحديق فيه بعينين مليئتين بالالام ، وقد اختنق صوتها :
 « أندرو ، الا ترى أنه من الخير لكينا أن أتغيب بعض

الوقت ؟ .. لقد كتبت لى مسز فوجان تدعونى لقضاء اسبوعين او ثلاثة معها . فقد استأجرت وزوجها « فيلا » فى (نيوكاى) يقضيان الصيف فيها .. الا تعتقد اننى احسن صنعا لو ذهبت الى هناك ؟ » . فصاح : « بلى ، اذهبى . ياللعنة ! .. اذهبى ! » . ونكص على عقبيه ، وغادر الغرفة

— ١٣ —

♦ كان سفر كريستين الى (نيوكاى) — بالنسبة لاندرو — تخففا وتحررا ممتعين . ولكنهما لم يدوما لاكثر من ثلاثة ايام ، ثم بدأ يستعيد الماضى ، واخذ يسائل نفسه : ماذا تراها تفعل ، وهل تفتقده ؟ .. واصبح يترقب — فى غيرة — اليوم الذى تعود فيه . وعبثا راح يعلل نفسه بأنه قد اصبح حرا طليقا ، اذ بان يحس بان شيئا ما كان ينقصه .. وعأوده ذلك الاحساس الذى كان يعوقه عن الانصراف الى عمله فى (ابرالو) ، حينما ذهبت كريستين الى (بریدنجتون) وتركته يستعد لامتحانها .. وراح طيفها ينتصب أمامه : لا طيف كريستين الفتاة الفضة التى عرفها فى ذلك الوقت ، وانما طيف وجه أشد شحوبا وأكثر نضجا ، ذى خدين ذابلين شيئا ما ، وعينين كليتين خلف عدستين مستديرتين .. صورة لم تكن جميلة ، بيد انها اتسمت بلون من الحزن الهادىء راح يمض نفسه !

واخذ يكثر من الخروج ، ولعب البريدج مع ايفورى وفريدى وفريدمان فى النادى .. وبالرغم من الاثر الذى خلفه فى نفسه حديثه مع ستلمان ، فانه كثيرا ما كان يلتقى به ، فقد كان ستلمان كثير التنقل بين فندق « بروك » وعيادته فى (وايكومب) التى اوشك اعدادها ان يتم . وكتب الى « دينى » يرجوه الحضور لرؤيته فى لندن ، غير أن ذلك استحال على فيليب لحدثة عهده بمنصبه الجديد . أما

هوب ، فلم يكن يغادر (كمبريدج) . . وحاول أندرو - في بعض الفترات - أن يستغرق في أبحاثه الكلينيكية بالمستشفى ، ولكنه لم يستطع ، فقد كان جد مضطرب .

وبحث - وهو على هذه الحال - مع « ويد » ، مدير المصرف ، مركزه المالى . فاذا به يبعث على الرضى ، اذ كان كل شيء يسير على ما يرام . فأخذ يرسم خطة لشراء دار في شارع (ويلبيك) - وكانت عملية تحتاج الى مال كثير ، ولكنها كانت مربحة الى أقصى حد - وبيع دار (تيراس تشيسبورو) ، مع الاحتفاظ بالجنح الملحق بها ، والذي جعل عيادته فيه . . وكان في وسع أية شركة عقارية أن تساعد على تحقيق هذه العملية . . واصبح يستيقظ من نومه - في هذه الليالى القائظة ، الهادئة - ورأسه مزدحم بالمشروعات ، ملء بأعماله المهنية . . وأعصابه متوترة ، مرهقة . . فكان يفتقد كريستين ، ويمد يده بحركة آلية الى المنضدة القريبة من سريره ، فيتناول سيجارة .

وفي غمرة هذا العناء والحنين ، اتصل تليفونيا بفرانسييس لورنس ، قائلاً : « اننى وحيد هنا في هذه الآونة ، فما رأيك في جولة ليلية بالسيارة ؟ ان البحر شديد في لندن ! » . . واحس في صوت فرانسييس الرصين عذوبة سرت عنه بدرجة ادهشته : « ما ابدع هذا ! . . كنت آمل أن تتصل بى . اتعرف (كروسوايز) ؟ . . انه مكان يرجع الى عهد الملكة اليزابيث ، وأحسب أن الاضواء تفرمه للأسف ، ولكن منظر النهر هناك بديع للغاية ! »

وفي مساء اليوم التالى ، فرغ على عجل من فحص مرضاه في أقل من ساعة . . وقبل الثامنة بكثير ، التقى بفرانسييس في (نايتسبريدج) ، وانطلقا في سيارته نحو (تشيرتسى) ،

خلال بساتين الفاكهة الممتدة خارج (ستينز) ، في ضوء الفروب الحالم . وكانت فرانسيس تجلس بجانبه قليلة الكلام ، بيد انها كانت تملأ العربية بوجودها العذب . وكانت ترتدى ثوبا خفيفا فاقع اللون ، وقبعة قمحية .. وراح يحس - على نحو خلب له - بفتنتها ، واناقتها الفائقة ، ويدها العارية الى جانبه وقد تجلت رقتها وبياضها وجمالها .. كان كل اصبع من أصابعها متوجا بظفر بياض مازى شديد الحمرة !

وكانت (كروسوايز) - كما قالت فرانسيس - دارا بديعة ، ترجع الى عهد الملكة اليزابيث ، وتطل على نهر (التيمز) ، وقد أقيمت وسط حديقة فيحاء ، قديمة التخطيط ، بها بحيرات تطفو على سطحها نباتات مائية . ولم ينقص من هذا الجمال سوى تحويل القصر الى « دار للضيافة » تتوافر فيها أحدث أسباب الترف ، وتعزف فيها فرقة « جاز » غير واسعة الصيت .. واتجه اندرو وفرانسيس صوب فناء غص بالسيارات الفاخرة . وكانت قوالب الطوب القديمة تلمع خلف الكرم البكر ، والمداخن الشامخة ترتفع في هدوء نحو السماء .

ودخلا المطعم وقد عج بالرواد الذين جلسوا حول موائد صفت على جوانب أرضية مربعة لامعة ، وقد أشرف على الخدمة فيه كبير للخدم على نسق كبير خدم « بلازا » . وكان اندرو يكره كبيرى الخدم ، بيد أنه تبين - في ذلك اليوم - ان ذلك كان راجعا الى أنه لم يواجههم من قبل بصحبة امرأة كفرانسيس . وبعد نظرة خاطفة اقتيدا باحترام بالغ الى افضل مائدة في القاعة ، وقد حف بهما جمع من الخدم ، بسط أحدهم منشفة اندرو ووضعها في تجلة على ركبتيه .. ولم تطلب فرانسيس من الطعام الا قليلا : سلطة ، وشطيرة .. ولم تشأ ان تتناول خمرا بل اقتصرت على الماء المثلج فحسب .

وبدا ان كبير الخدم قد رأى في هذه القناعة دليلا على علو مكانتها ، فثنين أندرو - في استيلاء مفاجيء - أنه لو جاء الى هذا المكان مع كريستين ، وطلب مثل هذه الوجبة البسيطة ، لاقصوه بازدراء الى الشارع .

واستعداد صفاء مزاجه حينما رأى فرانسيس تبتمم له ، وتقول : « تصور اننا تعارفنا منذ وقت ليس بالقصير ، ومع ذلك فهذه أول مرة تدعوني فيها للخروج معك ! » . فقال : « آسفة انت لهذا ؟ » . وكان جوابها : « ان المسألة لم تبلغ مبلغ الاسف .. على ما أرجو ! » . ومرة أخرى ، أحس بان الود الصادق الذى عبر عنه هذا الوجه الصبوح الباسم ، كان يرفعه الى مكانة اعلى .. ولم يكن هذا مجرد ادعاء أو زهو مضحك ، فان طابع نشأتها وأصلها امتد - بطريقة ما - حتى شمله . وفطن الى أن الاشخاص الذين كانوا يجلسون الى الموائد المجاورة ، وراحوا ينظرون اليه في اهتمام ، وأن الرجال منهم كانوا يتطلعون الى فرانسيس باعجاب تلقته في عدم اكتراث ، فلم يتمالك نفسه من أن يتمثل ما قد يحدثه ظهوره معها باستمرار ، من أثر .

وقالت : « أترى من التملق ان أقول لك اننى أضطرون الى العدول عن سهرة فى المسرح - كنت قد ارتبطت بها - فى سبيل الحضور الى هنا ؟ .. كان « نيكول واتسون » - هل تذكره ؟ - قد اعتزم ان يصطحبنى لمشاهدة حفل « باليه » ، وهو من أحب الاشياء الى نفسى . فماذا انت قائل فى مزاجى الصبائى ؟ » . فقال أندرو : « اننى اذكر واتسون ورحلته فى (باراجواى) .. انه شخصية بارزة » . فهتف : « انه مفرط الظرف » .. وعاد يقول : « أتراك خشيت أن يكون الجو شديد الحرارة فى المسرح ؟ » . فابتسمت دون أن تجيب بشيء ، وتناولت سيجارة من علبتها المعدنية الانيقة ، بينما استطرد أندرو قائلا : « أجل ، لقد بلغنى أن واتسون يلاحقك .

فما رأى زوجك في هذا ؟ » .. فظلت صامثة ، مكتفية بغمرة عين ، وكأنما قد ساءها - بعض الشيء - هذا الفضول .

وبعد هنيهة قالت : « انك تدرك ولا ريب اننى وجاهى خير صديقين ، ولكن لكل منا أصدقاءه الخاصين . انه الآن لدى « جوان » ، ولست أسأله تبريرا ! » .. واردفت في لهجة رقيقة : « هلا رقصنا ، ولو مرة واحدة ؟ » .. ونهضا ، فراحتا تتحرك بنفس الرشاقة الفاتنة العجيبة ، وهى بين ذراعى أندرو . وقال وهما يعودان الى مائدتهما : « اننى لست راقصا ممتازا ! » . وكان يتكلم على طريقتهما .. لقد ولى الزمن الذى كان يغمر فيه ، فى مناسبة كهذه : « يالاشيطان يا كريس ، اننى لم أخلق لأسير على طرفى قدمى ! » .. ولم نرد فرانسيس على قوله . كان هذا الصمت - على ما خيل اليه - من الامور التى تتميز بها ، ولو أن امرأة غيرها فى مكانها ، لاحتجت على قوله ، فى رياء يضايقه !

ودفعه فجأة نوع من الفضول ، فصاح : « أرجو ان تصارحينى : ما الذى حدا بك الى أن تكونى لطيفة معى بهذا القدر ، والى أن تساعدنى .. على نحو ما فعلت طيلة هذه الاشهر ؟ » . فتأملته فى شيء من العجب ، وان لم تحاول ان تروغ من نظراته ، ثم قالت : « انك ذو جاذبية خارقة للنساء ، ومما يضاعف سحر ك انك لا تفتن اليه ! » .. فاحتج وقد تضرع وجهه : « كلا ، بل الحق .. » . ثم غمغم : « آمل ان اكون طبيبا ذا نفع كذلك ! »

وضحكت وهى تبدد دخان سيجارتها بيد واهنة : « انك لمن تقتنع اذا قلت لك انك طبيب رائع فى الواقع . لقد كنا نتكلم منك منذ أيام فى (جرین ستريت) . اذ بدأ « لى روى » يضيق بأخصائى الاغذية فى الشركة . مسكين « رمبولد » .. ما كان ليسر لو انه سمع « لى روى » يصيح : « يجب أن نوقف نشاط هذا الجد المسن » ! .. وجاهى أيضا يرى هذا

الرأى . انهما يريدان - فى مجلس الادارة - رجلا أصفر سنا وأكثر مواظبة على حضور الجلسات . . . ويبدو ان الشركة تفكر فى القيام بحملة واسعة النطاق فى الصحف الطبية ، لاثارة اهتمام الاطباء من اتاحية العلمية ، على ما يقول لى روى . . . ومن الطبيعى أن « رمبولد » أضحوة بين زملائه ! لكن . . . لماذا أروى لك كل هذا ؟ انه يفسد علينا سهرتنا . هيا لا تقطب جبينك هكذا ، وكأنك تفكر فى قتلى ، او قتل الساقى او رئيس الاوركسترا ! . . . ليتك تقتله فعلا ، لا تراه بشع المنظر ؟ . . . انك تبدو تهاوما كما كنت فى ذلك اليوم المشهود ، يوم دخلت « صالون البروفات » شامخا ، مزهوا ، عصبيا ، بل ومضحكا الى حد ما ! . . . مسكينة توبى ! كانت هى الجديرة بأن تكون هنا ، وفقا للعرف المألوف ! » . فقال محققا فى المائدة : « لكم يسرنى انها ليست هنا ! »

— لا تحسبنى متبذلة ، فلست أطيق هذا . ان كل منا على قدر كاف من الذكاء فيما أحسب ، كما ان كلا منا . . . او أنا — فيما يختص بنفسى — لا اومن بالعاطفة المشبوبة . . . أليس هذا التعبير واضحا ؟ . . . ولكنى أرى ان الحياة تصبح أكثر بهجة عندما يكون للانسان . . . صديق . . . وان يستطيع ان ينطلق بعض الشيء ، مع هذا الصديق ! » . ولمعت عينها مرة أخرى بأضواء مريحة وهى تستطرد : « هكذا ابوح بما لم اكن أود ابوح به ، فياللعار ! . . . على ان الجو هنا خائق ، وأود ان أشهد القمر ينعكس على صفحة النهر ! »

ودفع الحساب ، ثم تبعها الى باب الشرفة الزجاجى الكبير ، الذى شقه التنظيم الحديث فى الجدار العتيق ، مضيعا بذلك روعة القدم . وكانت أنغام الموسيقى الراقصة تصل خافتة الى الشرفة . . . وأمام نظريهما امتد بساط سندس هريص ،

يؤدي الى النهر الجارى بين ضفتين معتمتين ، متناسقتين ..
 وكان القمر - كما قالت - يعكس ظلالات كبيرة للاشجار ، ويلمع
 خافتا فوق مجموعة من أهداف الرماية بالقوس ، اقيمت على
 الارض المعشوشبة ، وبدا خلفهما وميض صفحة الماء الفضية .
 وهبطا حتى النهر ، ثم جلسا فوق مقعد على حافة
 الضفة .. وخلعت فرانسيس قبعتها ، وراحت تتأمل - في
 صمت - انسياب الماء الوئيد ، يمتزج خريره الخالد امتزاجا
 غريبا بصوت يصم الأذان ، صدر عن سيارة كانت تسير
 بعيدا بأقصى سرعة ! .. وقالت : « ما أغرب هذين الصوتين ،
 في جوف الليل .. الحديث والقديم ! .. ثم هذه الكشافات
 يتقاطع ضوءها مع أشعة القمر ! .. هكذا عصرنا ! »



وقبلها اندرو ، فلم تبد ما ينم عن شعورها .. كانت
 شغفتها دافئتين جافتين . وقالت بعد دقيقة : « ما أعذبها
 من قبلة ، ولكنك أسأت توقيعتها ! » . فغمغم وهو ينظر أمامه
 دون أن يتحرك : « استطيع أن أوفق في محاولة أخرى ! »
 .. كان هبابا ، مترددا ، مستحييا ، عصبيا .. وراح يقول
 في نفسه - وهو مضطرب - ان من الرائع أن يكون في ذلك المكان،
 في أمسية كهذه ، مع امرأة لها هذا الجمال والفتنة ، فكان لزاما
 عليه - وفقا لكل التقاليد القمرية والروائية - أن يحتويها بين

ذراعيه في شفف .. واشتد شعوره بما كانت جلسته تحدثه من توتر في عضلاته ، وبرغبة في التدخين ، وبخل السلطة يثير متاعبه المعوية القديمة !.. وفضلا عن ذلك ، فان وجه كريستين راح ينعكس أمام ناظره في الماء على نحو غامض : وجه متعب - أو على الأصح - مرهق ، تلاوث أحد خديه ببقعة من الطلاء أحدثتها الفرشاة التي أعادت بها طلاء الأبواب الثقيلة ، حين وفدا على (تيراس تنيسپورو) !

وازعجه هذا واهاج ثأثرته .. لقد جاء الى ذلك المكان بحكم الظروف . ولقد كان رجلا ، في عنفوان الشباب ، وليس من عملاء « فورونوف » ! .. وعاد يقبل فرانسيس ، متحديا ذلك الطيف ، فقالت : « حسبت انك محتاج الى عام لتتخذ قرارك !.. الا ترى يا دكتور انه قد آن لنا أن نعود ؟.. ان هواء الليل هذا .. الا تراه خطرا على عقل متدين ، متزمت ؟ » . وساعدها على النهوض ، فاستبقت يده ، ممسكة اياها في رفق ، وهما ييممان شطر السيارة . ومنح الحارس « شلن » ، وادار المحرك ، ثم انطلق في اتجاه لندن . وكان صمت فرانسيس - اثناء العودة - يشي بسعادتها .

أما هو ، فلم يكن سعيدا . بل أحس بأنه وغد ، إبله ، وبقدر ما كره نفسه ، واستاء لمشاعره ، فانه كان يمقت العودة الى غرفته الخائقة الجو ، والى سريره الممض ، الموحش .. وكان قلبه مقرورا ، ورأسه مليئا بأفكار مضنية ، اذ غشيته ذكرى الالم المستعذب الذي كان يعانيه في حبه الاول لكريستين ، وتلك النشوة التي كان يحقق بها قلبه في تلك الايام الخالية في (بليينيللى) .. وما لبث أن اقصى هذه الذكريات عن باله في حنق وسخط !

وبلغا بيت فرانسيس ، ولم يكن عقله قد حل بعد لغزها .. وترجل ، ففتح لها باب السيارة . ومكثا لحظة على الافريز ، ريثما نبشت حقيبة يدها بحثا عن المفتاح . ثم تساءلت :

((ستصعد معي . . اليس كذلك ؟ . . أخشى أن يكون الخدم قد ناموا !)) . ففهم مترددا : « أن الوقت متأخر . . اليس كذلك ؟ » . وتظاهرت بأنها لم تسمعه ، وصعدت درجات المدخل ، والمفتاح في يدها . . وفيما كان يتبعها في خطى حذرة ، تراءى له طيف باهت . . طيف كريستين تبتاع حاجياتها ، وحقيبة السوق في يدها !

— ١٤ —

♦ بعد أيام ، كان أندرو في مكتب استشاراته بشارع ويلبيك ، والاصيل قائظ ، وصخب المرور يصم أذنيه منسابا اليه مع الهواء الساخن من خلال ستار نافذته المفتوحة . وكان متعبا ، مرهقا ، يترقب عودة كريستين آخر الاسبوع في خوف ، وينتظر — متوتر الاعصاب — أن يدعو التليفون في أية لحظة . . وكان العرق يتفصد من جبينه ، وهو يجهد في أن يفرغ في ساعة واحدة من ستة من المرضى — بواقع ثلاثة جنيهات عن كل مريض — وأن يفرغ كذلك من مرضى العيادة بسرعة ، ليصطحب فرانسيس للعشاء في المطعم . وتطلع بصبر نافذ حينما دخلت ممرضته — « مس شارب » — وهي أكثر عبوسا منها في أى وقت ، وقالت : « هناك شخص يريد أن يراك ، شخص فظيع . . ليس مريضا ، وليس مسافرا — كما يقول — وليست لديه بطاقة ! . . انه يدعى بولاند » . فردد أندرو ، في غير اكتراث : « بولاند ؟ ! » . ثم أشرق وجهه فجأة ، وهتف : « لعله كرن بولاند ! . . ادخله فورا ! »

— ولكن هناك مريضا ينتظرك . . وبعد عشر دقائق ، موعد مسز « روبرتس » .
فصاح متضايقا : « أوه ! . . افعل ما قلت لك ! » . وتخرج وجه الممرضة لهذه الكلمات ، وهمت أن تقول له انها لم تعتد



ان يخاطبها احد بمثل هذه اللهجة ، غير انها آثرت ان تكتفى بهز رأسها ، وخرجت .. وبعد دقيقة أدخلت « بولاند » . فهتف أندرو وهو يستوى على قدميه : « أهلا بك يا كون ! » فقال كون وهو يسعى اليه بخطى واسعة ، وعلى شفثيه ابتسامة صادقة : « هالو ! هالو ! هالو ! »

انه بعينه طبيب الاسنان ، ذو الوجه الاحمر ، في بذلته الرثة الزرقاء اللامعة الفضفاضة ، وحذاءيه البنيين السميكين ، وكأنه خارج لغوره من الحظيرة الخشبية التي كان يؤوى سيارته فيها .. ولعل السن تقدمت به بعض الشيء ، غير ان شاربه ظل احمر ، وشعره كثيفا .. وكان لا يزال مرحا ، ثريارا كالعهد به .. وراح يدق ظهر أندرو براحته ، فرحا بلقائه وهو يقول : « أقسم بالله يا أندرو ، انى جد سعيد لرؤيتك .. انك تبدو فى أتم صحة ، وبوسعى أن اتعرف عليك وسط مليون شخص . يا للذكريات ! .. ان مكتبك هذا من أحدث طراز ! » .

وحدق فى « مس شارب » العابسة ، التي كانت لا تزال فى الغرفة ، تنظر اليه كأنها تخمن شخصيته . ثم أردف : « ان هذه السيدة - ممرضتك - لم تشأ أن تدعنى أدخل ، الى أن قلت لها اننى من ابناء المهنة . انه الحق الصراح يا سيدتي ، فان هذا السيد المدهش ، الذي تعملين عنده ،

كان معي منذ زمن غير بعيد ، في مؤسسة طبية مفعورة ،
في (أيرالو) . واذا قدر لك ان تمرى بتلك البلدة ، فاطرقى
بابنا . . وسنكون - زوجى وأنا - سعيدين بأن نقدم لك
قدحا من الشاي ، فانى ارحب بكل صديق لصديقى القديم
مانسون ! »

ورمقته الممرضة بنظرة حادة ، ثم برحت الغرفة . على ان
بولاند لم يابه بهذا ، فقد كان فى ابتهاج بالغ سرى فى كيانه ،
وراح يشع من عينيه . وتحول الى اندرو قائلا : « انها ليست
جميلة يا مانسون . . ولكنى أشهد بانها امرأة طيبة ، واغبطك
عليها . . حسنا ! كيف انت الآن ، كيف انت ؟ » . ولم يترك
يد اندرو بل أخذ يحركها وهو يبتسم فى حبور . . وكانت
مفاجأة سارة لاندرو أن يرى كون فى هذا اليوم المقبض . .
وجلس أخيرا على مقعده الدوار ، واستعاد هدوءه ، ودفع
علبة السجائر نحو كون ، الذى راح يقول :

- كان من حقى يا فتاى أن احظى بعطلة قصيرة ، وكانت
ثمة مسألتان أو ثلاث فى حاجة الى التسوية ، فأشارت على
زوجتى بأن أعد حقيبتى وأبرح . . ذلك اننى كنت قد شغلت
بابتكار لتقوية « الفرامل » الضعيفة فى السيارة . وعكفت على
هذا العمل بكل ما منحنى الله من ذكاء . ولكن ، ليأخذهم
الشیطان ! . . ان أحدا لا يريد الاهتمام باختراعى . لا بأس ! . .
دمنا من هذا ، فهو عديم القيمة اذا قيس بالامر الآخر !

وأسقط رماد سيجارته فوق البساط ، وبدأ عليه الجدد ،
وهو يقول : « أعرنى سمعك يا عزيزى مانسون ، فالامر يتعلق
بابنتى «مارى» . . انك تذكرها بلا شك ، ودعنى أؤكد لك انها
لم تنسك . انها ليست فى صحة جيدة هذه الايام ، وقد
عرضناها على ليولين فلم يستطع أن يفعل شيئا ! » .
واشتدت حرارة لهجته ، وهو يمضى قائلا : « لقد انتهى الى
القول بأن لديها أعراضا من السل . . وكأنها لم تنقطع علاقة

آل بولاند بهذا الداء منذ دخل عهدا « دان » أحد المصحات ، قبل خمسة عشر عاما . والآن يا مانسون ، هل لك - بحق صداقتنا القديمة - أن تفعل شيئا ؟ .. نحن نعرف أنك الآن رجل عظيم ، ولا حديث للناس في (ابرالو) الا عنك . فهلا فحصت مارى ؟ .. أنك لا تتصور كم تثق هذه الصغيرة بك ، ونحن ايضا ، مسز بولاند وانا .. من أجل هذا قالت لى : « اذهب وقابل الدكتور مانسون عندما تسنح الفرصة ، واذا رأى فحص الفتاة ، أرسلناها اليه بدون ابطاء ! » .. فماذا ترى يا مانسون ؟ اذا كنت مشغولا جدا ، فما عليك الا أن تقول ذلك ، فلا أزيد حرفا ! »

فاحتج اندرو قائلا : « لا تقل شيئا كهذا يا-كون ، فما احسبك تدري كم انا سعيد اذ اعود فأراك ؟ .. اما مارى الصغيرة المسكينة ، فأنت تعرف اننى سأبدل من أجلها كل ما فى وسعى ! » .. ولم يعبا بظهور « مس شارب » - المرة بعد المرة - وراء الباب ، تدفعه دفعا خفيفا له معناه ! بينما راح هو يبدد وقته فى الحديث مع كون ، الى أن نفذ صبرها ، فقالت : « هناك خمسة من المرضى ينتظرون يا دكتور مانسون ، وانت متأخر اكثر من ساعة عن مراعيك التى ارتبطت بها . لست أعرف كيف اعلمهم بالصبر ، فانا لم أعتد معاملة المرضى على هذا النحو ! »

وبالرغم من هذا ، فانه استبقى كون ، ثم صحبه حتى الباب الخارجى ، ملحا عليه فى البقاء ، قائلا : « لن ادعك تعود الى البلدة بهذه السرعة . كم من الوقت ستمكث هنا ؟ .. ثلاثة أيام أو أربعة .. حسنا ! وأين نزلت ؟ فى (ويستلاند) ؟ .. ناحية (بيزووتر) . انه مكان غير مريح اطلاقا ، فلم لا تاتى وتقيم عندى ؟ .. ان لدينا غرفا كثيرة ، وستعود كريستين يوم الجمعة فتغبط برؤيتك يا كون .. وسيكون فى وسعنا أن نتكلم من الماضى ثلاثتنا ! »

* * *

واحضر « كون » حقييته الى (تراس تشيسبورو) ، في اليوم التالي . وبعد عيادة المساء ، اصطحبه أندرو ليحضرا الحفلة الموسيقية الثانية في « بلاديوم » ، واستمتعا معا بسهرة طيبة ، دوى خلالها ضحك « كون » في القاعة فضاقت به الحضور في البداية ، ثم انتقلت عدواه اليهم ، وراحوا يرمقونه وهم يبتسمون في ود . . وفي اثناء الاستراحة ، ذهبوا الى مشرب المسرح . . وقال « كون » وقد دفع قبعته الى خلف ، وتناثر زبد البيرة على شاربه وحذائه البني : « اننى لعاجز يا عزيزى مانسون عن أن أوفيك حقك من أجل معاملتك لى ! . . حقا انك الطيبة ذاتها ! »

وذهبا بعد الحفلة الى « كادرو » ، حيث التهما شرائح الشواء ، وشربا مزيدا من البيرة ، ثم عادا الى الدار ، فاشعلا النار في مدفأة « الصالون » الصغير ، وجلسا يتحدثان ويدخان ويشربان . . ونسى أندرو - ولو للحظات - تفقد الحياة الموهنة في التخنمر ، وارهاق المهنة ، واحتمال انضوائه في خدمة « لى روى » ، وفرصة ترقيته في مستشفى « فيككنوريا » ، ورصيد حسابه في المصرف ، وفتنة فرانسييس لورنس ، والخوف من الاتهام الذى كان يتمثله في عيني كريستين ، برغم بعدها . . كل هذا تلاشى ، بينما كان « كون » يزار : « اتذكر حينما هاجمنا ليولين ، فراجع أوركهارت والآخرين ؟ . . لقد مكثنا معا بعد انصرافهم ، واتينا على بقية البيرة ! . . ان أوركهارت لم يتغير ، ولا يزال بصحة جيدة ، ويبعث اليك بأطيب تحياته ! »

وجاء الغد ، وجاءت معه الساعة المحتومة لمواجهة كريستين . .
وجرحص أندرو على أن يجر الى المحطة « كون » ، الذى كان

خالى البال ، فلم يفتن الى أن اندرو كان مضطربا ، وقد ايقن أن وجود « بولاند » خليك بأن ينقذ موقفه .. وراح قلبه يخفق في عنف ، حين وصل القطار ، وقد استبد به القلق .. وأحس بالم يمزقه ، وبوخز الضمير ، حينما لمح وجه كريستين الصغير الاليف ، وهى تتقدم وسط جمع من الغرباء .. وكانت - هى الاخرى - تتحرق الى رؤيته .. وسرعان ما نسى كل شيء ، وجهد فى أن يبدى الود .. وهتف : « هالو كريس ، حسبت انك لن تعودى أبدا ! .. نعم ، لك أن تنظرى اليه .. انه « كون » بلحمه وعظمه ، ولم يكبر يوما واحدا . لقد نزل عندنا يا كريس ! .. سنشرح لك كل هذا فى السيارة ، فهى معى هنا . هل استمتعت برحلتك ؟ .. أوه ! اسمعى ، لم تحملين حقيبتك ؟ »

وفوجئت كريستين بهذا الاستقبال على المحطة ، فقد كانت تخشى الا يكون أحد فى انتظارها . فتفريت سحنتها ، واحمرت وجنتاها شيئا ما .. كان لديها هى الاخرى ما تخشاه ، فكانت متوترة الاعصاب لفرط تطلعها الى وصل ما انقطع من ودهما القديم .. وجلست مع « كون » فى المقعد الخلفى للسيارة ، وراحت تتكلم فى حماس ، محدقة فى اندرو الذى كان يقود السيارة . وما أن دخلت الدار ، حتى تنفست ملء رئتيها ، وقالت : « ما أجمل أن يعود المرء الى داره ! » . ثم أردفت فى حرارة : « هل أوحشتك يا اندرو ؟ »

- أعتقد ذلك .. لقد أوحشتنا جميعا ، أليس كذلك يا مسز بنيت ؟ أليس كذلك يا فلورى ؟ .. يا للشيطان يا كون ، ماذا نفعل بهذه الامتعة ؟

وخرج على الفور يساعد « كون » - دون داع - فى نقل الحقائق ، ثم أسرع الى جوالته المألوفة لعيادة مرضاه - قبل أن يتسع الوقت لقول أو عمل - واعدا بأن يكون فى الدار فى موعد الشاي . وغمغم لنفسه وهو يتخذ مكانه فى سيارته :

« الحمد لله ، لقد مزت المسألة بسلام ! .. لا يبدو انها افادت كثيرا من رحلتها . أوه ! انى على يقين من انها لم تلحظ شيئا ، وهذا هو المهم ، فى الآونة الحاضرة ! » .

وعاد متأخرا ، بيد أنه اصطنع مرحا مبالغا فيه . وسر « كون » أيما سرور لصفاء مزاجه ، فقال : « الحق يا مانسون العزيز ، أنك مشرق كما لم تشرق فى أى وقت ! » .. وفطن أندرو = مرة أو مرتين = الى أن نظر كريستين كأن مصوبا اليه ، وكأنها تلتهمس إشارة ، أو التفاتة معبرة . وخيل اليه ان مرضى مارى قد شغلها واقلق بالها ، اذ قالت فى سياق الحديث انها طلبت الى « كون » أن يبرق لمارى بالحضور على الفور .. بل فى اليوم التالى ان أمكن .. كانت مهمومة من أجل مارى ، وراحت تأمل ان يستطيع أندرو ان يفيدها بنفع ، فى أسرع وقت مستطاع !

وكان تدبير الاقدار أفضل من تدبير أندرو . فقد ابرقت مارى معلنة انها قادمة قبيل الغداء فى اليوم التالى ، فشغلت كريستين باعداد كل ما يلزم لاستقبالها .. بل ان الحركة التى سادت الدار طغت على ضيق أندرو . على أنه سرعان ما تمالك نفسه عندما وصلت مارى .. كانت نظرة واحدة تكفى للحكم بأنها مريضة . فقد كانت فى العشرين ، طويلة القامة ، نحيلة الجسم ، مقوسة الكتفين قليلا . وكان لونها نضيرا على نحو غير طبيعى ، أدرك منه أندرو على الفور كل شيء .. وكان السفر قد اتعبها ، وبالرغم من رغبتها فى ان تظل بينهم ، وان تتحدث اليهم ، لعميق شوقها الى رؤيتهم جميعا ، فقد اقنعوها بأن تأوى الى فراشها عندما اقتربت الساعة من السادسة . واذا ذاك ، صعد أندرو ليفحصها . ولم يمكث معها سوى ربع ساعة ، بيد أنه حينما عاد الى « كون » وكريستين فى « الصالون » كان بادى الهم . وقال : « لا سبيل الى الشك ، فيها أخشى .. القمة اليسرى .. ان

ما قاله ليولين صحيح تماما يا كون ، ولكن لا تخف ، فالبدء في المرحلة الاولى فقط ، وستنقلب عليه ! » . فتساءل كون مكتئبا ، قلعا : « أتعنى أن من الممكن شفاءها ؟ » . فهتف اندرو : « أجل ، استطيع أن أقول هذا . ولكنه يتطلب العناية بها ، وملاحظتها بصفة مستمرة ، واتخاذ كافة الاحتياطات » ثم عبس قليلا ، وقال : « يلوح لى يا كون ان (ابرالو) أسوأ مكان بالنسبة لها . ان مرضا كهذا ، لا يزال فى بدايته ، يقتضى الانسان أن يبرح داره . . هلا سمحت لى بادخالها مستشفى فيكتوريا ؟ . . ان علاقتى بالدكتور ثوروجود حسنة جدا ، ومن المؤكد اننى استطيع وضعها فى عنبره ، وسألاحظها عن كثب » . فصاح توم متأثرا : « هذا دليل قوى على صداقتنا ، يا مانسون . . ليلتك تعرف كم تثق ابنتى فيك . ان كان فى وسع انسان ازالة ما بها ، فهو انت ! »

وبادر اندرو الى الاتصال تليفونيا بثوروجود ، ثم عاد - بعد خمس دقائق - يعلن أن ماري ستقبل فى « فيكتوريا » فى آخر الاسبوع . واستعاد كون سكينته بوضوح ، اذ تضاعف تفاؤله بدخول ماري مستشفى الامراض الصدرية ، وعناية اندرو ، وملاحظة ثوروجود لها !

وقضوا اليومين التالين فى انشغال تام ، فلما كان عصر



يوم السبت - وقد استقرت ماري في المستشفى ، واستقل
 كون القطار الى بادنجتون - الفى اندرو نفسه في مركز ساعده
 على مواجهة الموقف ، فشد على ذراع كريستين ، وهتف في
 رفق وهو يتأهب للخروج : « حسن يا نريس أن تكون هنا مرة
 أخرى .. يا الهى ، أى أسبوع قضيناه ! » . وكانت لهجته
 معبرة عن الواقع أصدق تعبير .. وكان من الخير أنه لم ير
 ملامح وجه زوجته ! .. أما هى فجلست وحيدة في غرفتها ،
 وقد احنت رأسها شيئا ما ، ويدها الى ركبتيها ، لا تبدى
 حراكا .. كان الامل يملأ نفسها ، في بداية عودتها ، اما الآن ،
 فإن سؤالاً ثقيلاً راح يتردد في نفسها : متى وكيف ينتهى كل
 هذا ؟ !

- ١٥ -

♦ أخذ تيار نجاح اندرو يشتد يوماً بعد يوم ، فيجرفه دون
 أن يقوى على مقاومته . وازدادت صلته بهامبتون وايفورى
 توثقاً وأحكاماً ، واصبحت احدى عليه منها في أى وقت ، فضلاً
 عن أن فريدمان طلب اليه أن ينوب عنه في معالجة بعض حالات
 في فندق « بلازا » أثناء غيابه أسبوعاً في « توكيت » ..
 وامرأبا عن شكره له ، قاسمه الالعاب مناصفة .. وكان
 هامبتون هو الذى اعتاد ان ينوب عن فريدمان ، غير أن
 اندرو لحظ - منذ بعض الوقت - ان فتورا قد دب في
 علاقتهما .. وما كان أعظم ازدهاء اندرو ، حينما كان يدخل
 - مباشرة - مخدع احدى نجوم السينما ، فيجلس على
 فراشها الناعم ، ويداعب - بيد مطمئنة - جسمها الفض ..
 وقد يدخن سيجارة معها اذا اتسع وقته لذلك !
 وكان أكثر زهواً بأن يكون موضع رعاية « جوزيف لى روى » ،
 الذى تغدى معه مرتين في الأشهر الأخيرة . وكان يعرف أن
 « لى روى » يفكر في أمور هامة .. ولقد قال له أثناء مقابلهما

الاخيرة ، وكأنه يجس النبض : « أتعرف يا دكتور اننى فكرت فيك ؟ .. اننى أعد مشروعا ضخما ، وقد أكون فى حاجة الى كثير من الآراء السديدة فى الشؤون الطبية . ولست أريد - بعد اليوم - أحدا من أولئك الكبار المرائين .. ان رمبولد الكهل لا يساوى ما فى جسمه من وحدات حرارية ، وسنتخلص منه بدون إبطاء ... ثم اننى لم أعد أطيق هذا الحشد من أدعياء الخبرة ، الذين يختلفون فيما بينهم ويديرون رأسى .. انما أريد مستشارا طبيا متزنا ، وأحسب أنك الرجل الذى يلزمنى ، فأنت تدرك اننا أوصلنا الى قسم كبير من الجمهور منتجاتنا المصنوعة على أساس شعبى ، بيد اننى أرى مخلصا أن الوقت قد حان لتوسيع نطاق عملنا ، والمضى قدما فى ابتكار منتجات الالبان بالاساليب العلمية .. كفصل العناصر المكونة للبن وكهربتها وصنعها اقراصا : كريمو مع فيتامين « ب » ، و « كريموفاكس » ، و « ليتيسين » ضد سوء التغذية والانيميا والارق ! .. أفهمنى يا دكتور ؟ .. وفوق هذا ، اعتقد اننا اذا فعلنا ذلك على أسس طبية صحيحة ، استطعنا أن نطمئن الى مساعدة وتشجيع الهيئة الطبية كلها ، فيكون لنا من كل طبيب بائع لمنتجاتنا ، ان جاز هذا التعبير .. وهذا يحتاج الى حملة اعلانية علمية واسعة النطاق ، والى نشرات علمية .. وفى هذا المجال ، لا بد لنا - فيما ارى - من طبيب شاب موهوب ، ذى عقل علمى ، نلحقه بالمشروع .. والآن ، احب أن تفهم تماما ما اعنى .. الواقع اننا فى سبيل النهوض بمستوى صناعتنا ، واذا تأملنا المستحضرات عديمة القيمة التى يرضى بها الاطباء - مثل « ماروبين سى » .. و « فيجاتوج » ، و « بونبيران » - فاننى ارى اننا بتحسين الحالة الصحية العامة ، انما نسدى خدمة جليلة للشعب ! »

ولم يحاول اندرو أن يتذكر أن حبة واحدة من البازلاء الخضراء ، قد تحتوى من الفيتامينات اكثر مما تحتويه عدة

علب من « الكريموفاكس » . فهو لم يفتبط بفكرة الاتعاب التي سيتقاضاها اذا ما عين عضوا في مجلس الادارة ، بقدر ما اغتبط بفكرة الرعاية التي كان لى روى يؤثره بها . . .
ولقد كانت فرانسيس هى التى بينت له كيف يستطيع أن يفيد من عمليات « لى روى » فى السوق . آه ! ما أبدع الذهاب اليها ، وتناول الشاى معها ، والشعور بأن هذه المرأة الفاتنة الراقية تنظر اليه نظرة خاصة ، وتبتسم له ابتسامة ودية خلابة . . . كانت علاقاته بها تسمو به هو أيضا ، وتبعث فى نفسه الثقة والاطمئنان ، وتزيده رواء وإشراقا ، ولقد أخذ - دون أن يعي - يتأثر بفلسفتها ، ويتعلم بتوجيهها كيف يتجه الى صفوف التراف عديمة الجدوى ، ويهمل الأمور الجديدة !
ولم يعد يرتبك ازاء كريستين ، فقد بات فى مقدوره أن يعود الى داره فى حالة طبيعية تماما ، بعد أن يكون قد قضى ساعة مع فرانسيس ، ولم يكن لديه متسع من الوقت للتفكير فى هذا التغير المذهل الذى طرأ عليه ، فاذا فكر فيه مصادفة ، فانما يفكر لكى يقنع نفسه بأنه ليس عاشقا لمسز لورنس ، وبأن كريستين لا تفتن الى شىء ، وبأن كل رجل لابد بالغ - فى وقت ما من حياته - هذا المأزق . ففيم يزعم انه مختلف عن الآخرين ؟ . . . وكان - فى مقابل هذا - يجتهد فى أن يبدو ملاطفا لكريستين الى أقصى حد ، فكان يحدثها باحترام ، بل ويتدارس معها مشروعاته . . . وعرفت انه كان يعتزم أن يشتري - فى الربيع القادم - دار شارع (ويلبيك) ، فليبرحان (ثراس تشيسبورو) فور اتمام الترتيبات اللازمة . ولم تعد تتشاجر معه أو تقذفه بالاتهامات فى وجهه . . . فاذا توجهم وجهها فى بعض اللحظات ، فانه لم يكن يلحظ هذا التغير .
وقصارى القول انها كانت تلتزم جانب السلبية ، بينما كانت الحياة تدفع آندرو بسرعة لا يستطيع معها أن يقف للتفكير والنزوى . . . وكان ينتهى به شهادة سباق الزمن هذا ، فينتابه

شعور خاطيء بأنه قوى ، ملئ بالحياة .. وقد اخذ هذا الشعور يستفحل يوماً بعد يوم ، ويسيطر على نفسه وعلى مصيره !

ثم .. ومن كبد السماء ، انقضت الصاعقة !.. ففى مساء الخامس من نوفمبر ، أقبلت زوجة تاجر صغير - من الجيرة - الى (تيراس تشيسبورو) تستشير أندرو .. وكانت مسز فيدلر لندنية اصيلة ، قصيرة ، فى اوسط العمر ، ذات حيوية ، وعينين براقيتين ، لم تبرح الحى الا لما .. وكان أندرو يعرف أسرة فيدلر تمام المعرفة ، فقد عالج - فى بدء عهده بالحى - ابنهم الصغير من احد امراض الاطفال . كما انه اصلح عندهم بعض احذيته ، فى تلك الايام الاولى . ذلك ان هؤلاء الناس الطيبين ، النشيطين ، كانوا يديرون - فى شارع (بادينجتون) - حانوتاً ذا شطرين ، يحمل لافتة تقول فى شيء من الادعاء : « شركة التجديد ، ليتمد » ! .. فكانوا يمارسون فى أحد جزئيه اصلاح الاحذية ، وفى الآخر تنظيف وكى الملابس ! وكثيراً ما كان أندرو يرى « هارى فيدلر » . وكان رجلاً قوياً ، شاحب الوجه ، يرتدى قميصاً بغير ياقة ، ويشمر عن ساعديه ، وقد أمسك - بين ركبتيه - قالب حذاء ، او انصرف فى الحانوت المجاور الى كى الثياب ، برغم المساعدين الذين كان يستعين بهم .. وكان « هارى » هو الذى جاءت مسز فيدلر تتحدث الى الطبيب عنه . فقالت بحيويتها المعتادة : « ان زوجى ليس فى صحة جيدة . انه منذ اسابيع يتحامل . وقد ألححت عليه فى أن يعرض نفسه عليك ، ولكنه أبى . فهل تستطيع الحضور الى المنزل ؟ .. سأحمله على ان يلزم الفراش ! »

ووعدها أندرو بالذهاب . وفى صباح اليوم التالى ، وجد « فيدلر » فى فراشه يشكو من آلام باطنية وتضخم متزايد . وكان الجزء الاوسط من جسمه قد تضخم - منذ بضعة

اشهر - على نحو شاذ ، فأخذ - كأكثر المرضى الذين نعموا طيلة حياتهم بصحة جيدة - يفسر الامر تفسيرات مختلفة ، فيعزوه الى اسرافه - بعض الشيء - في احتساء البيرة ، او الى قلة حركته ! .. بيد ان اندرو اضطر - بعد فحصه - الى ان يعارض تفسيراته ، اذ اقتنع بأن عنده تورما باطنيا . ومع انه لم يكن في الامر خطورة ما ، فانه كان يحتاج الى عملية جراحية .. وطمأن فيدلر وزوجه قدر ما وسعه الجهد ، قائلا أن تورما بسيطا كهذا قد يتفاقم في الداخل فيسبب متاعب تتلاشى بمجرد استئصال الورم . ولم يخامرهُ اى شك في نتيجة الجراحة ، فاقترح ادخال فيدلر الى المستشفى . غير أن مسز فيدلر لم تكد تسمع ذلك ، حتى بسطت يديها وهتفت : « كلا يا دكتور ، لا أريد أن يذهب هارى الى المستشفى » . وراحت تصارع انفعالها ، محاولة التماسك ، وهى تقول : « لقد كنت أتوقع أن يحدث له هذا ، لفرط ما يرهق نفسه في العمل . أما الآن وقد حدث ، فنحن والحمد لله في مركز نستطيع معه مواجهة الامر . اننا - كما تعلم يا دكتور - غير أثرياء ، على اننا نملك بعض المال المدخر ، وهذا وقت الافادة منه .. لست أريد أن يسعى هارى وراء خطابات توصية ، أو أن يريق ماء وجهه ليدخل عنبرا عاما في مستشفى ، كما لو كان معدما ! » . فقال اندزو : « لكن يا سيدتى ، فى وسعنى أن اتخذ التدابير .. »

- كلا .. لك ان تدخله أحد المستشفيات الخاصة وهى كثيرة هنا ، وان تحضر جراحا خاصا لاجراء العملية له . اقطع لك يا سيدى أن هارى فيدلر لن يذهب الى مستشفى عام ، طالما كنت من أهل هذه الدنيا !

وأحس أندرو منها اصرارا ، فضلا عن أن « فيدلر » اخذ برأيها ، منذ اقتنع بالضرورة غير السارة ، فرغب فى أن تبذل له كل عناية ممكنة .. وفى المساء عينه ، اتصل أندرو

تليفونيا بايفورى ، فلقد أصبح الاتصال بايفورى مهمة آلية بالنسبة إليه ، لا سيما وقد كان - فى هذه المرة - يسأله خدمة . فقد قال له : « أود يا ايفورى أن تؤدى الى صنيعة . فان لدى حالة ورم باطنى يقتضى الاستئصال . . انهم أناس طبيون ، مجدون ، ولكنهم غير أثرياء ، وأخشى الا تثير هذه الحالة اهتمامك كثيرا ، بيد اننى أكون شاكرا اذا قبلت اجراء العملية لقاء . . . يمكن ثلث اتعابك العادية ! »

وأبدى ايفورى شهامة ، فقال انه ما كان يسره شىء اكثر من أن يؤدى لصديقه مانسون أية خدمة فى مقدوره . وتحادثا عن المرض بضع دقائق ، ثم اتصل اندرو تليفونيا بمسز فيدلر ، وقال : « لقد تكلمت منذ لحظة مع مستر تشارلس ايفورى الجراح فى (ويست اند) ، وهو من أعز أصدقائى . وسيأتى معى لرؤية زوجك . . غدا فى الحادية عشرة ، فهل يناسبك هذا ؟ . . وهو يقول - أسمعيني يا مسز فيدلر ؟ - انه يقول انه سيجرى الجراحة ، اذا لم يكن منها بد ، لقاء ثلاثين جنيها . فاذا عرفنا ان اتعابه مائة جنيه عادة - وقد تزيد - فانى أرى اننا محظوظون جدا ! » . فقالت ولهجتها تشى بالضيق « وان جهدت فى أن تبدو مرتاحة : » نعم يا دكتور ، نعم . . هذا كرم منك بلا شك . أحسب انه فى مقدورنا - بشكل أو بآخر - دفع هذا المبلغ ! »

وفى صباح اليوم التالى ، فحص ايفورى المريض مع اندرو . . وفى اليوم الذى اعقبه ، دخل « هارى فيدلر » مستشفى « برينسلاند » الخاص ، الذى يقع فى الميدان الذى يحمل نفس الاسم . . وكان مؤسسة قديمة الطراز ، وان كانت نظيفة ، غير بعيدة عن (تيراس تشيسبورو) . وهى إحدى مؤسسات عديدة من نوعها فى الحى ، معتدلة النفقات ، قليلة

الاثاث والاجهزة . فان معظم النزلاء لم يكونوا يحتاجون لكثر من العناية الطبية . والواقع أن هذا المستشفى - ككل المستشفيات الاخرى التى عمل فيها أندرو فى لندن - لم ينشأ بحال للفرض الذى أصبح يستخدم فيه . فلم يكن به مصعد ، وكانت غرفة العمليات صغيرة ضيقة . بيد أن مس « بكستن » - صاحبه - كانت تحمل شهادة التمريض ، وكانت امرأة نشطة . وكيفما كان الامر بالنسبة لعيوب المستشفى ، فان كل ما فيه كان مطهرا ، حتى أصفر أركان ارضه المفروشة بالمشمع اللامع !

وحدد لاجراء العملية يوم الجمعة . ولم يكن فى وسع ايפורى ان يحضر قبل الساعة الثانية بعد الظهر ، برغم أنها ساعة متأخرة جدا . . . ولقد وصل أندرو أولا ، ثم قدم ايפורى فى الموعد تماما ، ومعه طبيب التخدير ، ووقف يراقب سائقه وهو ينقل الى المستشفى حقيبة ادواته ، فما كان يرضى أن يستعمل أدوات أخرى ، حرصا على دقة جراحته . . . ومع أنه لم يرتح الى المكان ، الا انه لم يبد شيئا من الامتعاض ، بل طمان مسز فيدلر - التى كانت ترتقب قدومه فى قاعة الانتظار - واستولى على قلب مس بكستن وممرضاتها ، ثم ارتدى معطفه وقفازيه ، وغدا على أتم استعداد لبدء العمل . . . فتقدم المريض فى عزم واستبشار ، وخلع ثوب الحجرة (الروب دى شامبر) ، ثم اعتلى المنضدة الضيقة . . . وكان فيدلر يدرك تماما أن لا بد له من اجتياز هذه المحنة ، فأثر أن يخوضها بشجاعة . وقبل أن يضع الطبيب المخدر القناع على وجهه ، ابتسم لاندر و قال : « لسوف تنحسن صحتى بعد العملية ! » وان هى الا ثانية حتى اغمض عينيه ، واستنشق انفاسا طويلة من « الاثير » ، وكأنه منهوم اليها . . . ورفعت «مس بكستن» الرباط ، فظهرت المنطقة المطلية باليود متضخمة جدا فى تورم لامع . . . وبدأ ايפורى الجراحة . . . فعمد أولا الى ايلاج حقن

في أعماق العضل ، وهو يقول في رصانة لاندرو : « هذه
طريقتي دائما لمقاومة رد فعل الجراحة ! »
ثم بدأ العمل الحقيقي ، فشق وسط البطن شقا طويلا ،
وإذا الداء يتكشف على الفور ، اذ برز الورم من خلال الفتحة ،
أشبه ما يكون بكرة قدم منتفخة على آخرها ، ومبتلة .
وتضاعف ارتياح أندرو ، اذ اطمأن الى صحة تشخيصه .
وفكر في أن صحة فيدلر لن تلبث أن تتحسن حالما يتخلص
من هذا الورم اللعين .. وطافت بخياله الزيارة التي ينتظرها
مريض آخر من مرضاه ، فألقى نظرة عاجلة على ساعته ..
غير أن **ايفوري راح** - وهو ثابت الجأش كالعادة - **يهز الكرة** ،
وهو يحاول في دأب أن يضع يده على نقطة الاتصال ، فلا
يفلح .. وكان كلما جهد أن يتحكم في الورم ، أقفلت منه هذا !
وبذل عشرين محاولة على الاقل ، وأندرو يرقبه متوتر
الاعصاب ، ويسائل نفسه : « ماذا تراه يعمل ؟ » .. ولم يكن
في البطن فراغ كبير يعمل فيه ، ولكن أنفراغ كان مناسباً .
ولقد رأى ليولين وديني وكثيرين غيرهما - في مستشفى
العتيق - يعملون بمهارة في فراغ أقل ، فان مهنة الجراح هي
أن يحرك أدواته في أماكن دقيقة . وخطر له - فجأة - ان هذه
أول عملية يجريها **ايفوري** لفتح البطن ، بناء على طلبه ، فأعاد
ساعته الى جيبه - في تراخ - واقترب من المنضدة بوجه
صارم ، وكان **ايفوري** سادرا في محاولة القبض على الورم من
خلف ، محتفظا بهدوئه ، واتزانه ، ودقته ، وممس « بكستن »
وممرضة شابة تقفان الى جانبه ، مطمئنتين ، وان لم تعرفا
من الامر سوى القليل . وكان طبيب التخدير - وهو رجل
أشيب - مستغرقا في تفكير عميق ، وهو يفرك سداة
زجاجة .

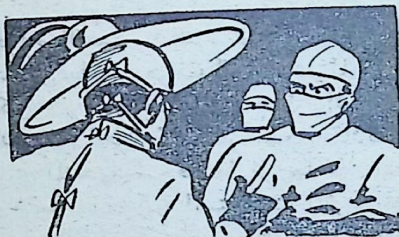
كان جو الغرفة الصغيرة - ذات السقف الزجاجي والجدران
العارية - هادئا تماما ، وليس ثمة ما يوحى بالقلق ، أو ينذر

بمأساة وشيكة الوقوع . . كل ما هنالك ان ايفورى راح يرفع
أحدى كتفيه ، ويحرك يديه محاولا بلوغ مؤخر الكرة اللزجة . .
بيد أن أندرو أحس بقشعريرة لم يدر لها سببا ! . . والفى
نفسه فجأة مقطب الجبين ، يرقب ما يجسرى بانتباه . . ثم
يخاف ؟ لم يكن هناك داع الخوف ، فهي جراحة غاية في
البساطة ، وإن تلبث أن تتم في بضع دقائق !

وعدل ايفورى ، في ابتسامة واهنة - كما لو كان مرتاحا -
عن محاولة العثور على نقطة الاتصال . وتطلعت اليه المريضة
الشابة في تواضع حينما طلب سكينها ، ثم آتته بها ، فتناولها
بحركة وثيدة . لعله لم يبد طوال حياته العملية أشبه ما يكون
بشخصية الجراح الكبير - التي ترد في الروايات - منه في
هذه اللحظة ! . . وقبل أن يعرف أندرو شيئا مما يفعل ، أحدث
ايفورى بالسكين ثغرة عريضة في جدار الورم اللامع ، وإذا
كل شيء يحدث على الفور : انفجر الورم قاذفا في الهواء كتلة
من الدم الوريدي المتجمد ، وقاذفا كل ما كان يحتويه في فراغ
البطن . . وفي ثانية واحدة ، استحالت الكرة المنتفخة الصلبة
الى كيس رخو من الانسجة ، يسبح في دم رقيق . فاحضرت
مس بكستن - وهي مذعورة - محابس لتضغط العروق فلا
ينساب الدم في نزيف . . وجلس طبيب التخدير فجأة وقد
جمدت مفاصله ، وبدا ان المريضة الشابة توشك أن يغمر
عليها . أما ايفورى ، فقد قال في رصانة : « محابس من
فضلك ! »

واستولى الفزع على أندرو ، فقد رأى أن ايفورى حين
أخفق في الإمساك بنقطة الاتصال ، ليتر الكيس المتورم ، عمد
الى شق الكيس في غير تبصر . . وكان خراجا نزيفا ! . . وقال
ايفورى وهو ثابت الجنان : « اسفنج من فضلك ! » . . وراح
يتحسس الكيس محاولا وضع المشابك ، مفرغا - بقطعة من
الاسفنج - الفجوة المليئة بالدم ، دون أن يستطيع وقف

النزيف . وطافت برأس اندرو بغتة فكرة مرت به كالبرق :
 « يا إلهي ، انه لا يعرف الجراحة .. انه غير كفء بحال ! » .
 وغمغم طبيب التخدير ، وهو يضع أصبعه على الوريد الابهر ،
 وكأنه يعتذر : « اخشى .. يبدو يا ايفورى انه يحتضر ! »
 وترك ايفورى المشبك ، وملاً فراغ البطن بالشاش المعقم ،
 ثم أخذ يخطط الشق الكبير . ولم يعد ثمة تورم ، بل أن بطن
 « فيدلر » بدت مجوفة ، شاحبة ، فارغة ، لسبب واحد :
 هو أن التنسي كان قد مات !! .. وقال طبيب التخدير أخيراً :
 « أجل .. لقد مات ! »



وخاط « ايفورى » آخر غرزة ، وقطع الخيط بعناية ،
 ثم استدار نحو ادواته فوضع المقص بينها .. ولم يقو اندرو
 على أية حركة .. وسحبت مسنن بكستن الاغطية ، وهى
 مأخوذة شاحبة الوجه ، ثم بارحت الفرفة ، وقد راحت
 تحاول جاهدة أن تتمالك جاشها . وأقبل ممرض بالحفة
 المتقلبة ، وهو يجهل ما حدث .. وبعد دقيقة ، كان جسم
 هارى فيدلر قد أعيد الى حجرته . وقال ايفورى أخيراً
 بصوت أجش ، وهو يخلع معطفه : « ياله من نحس .. انها
 الصدمة الناشئة عن رد الفعل .. الا تعتقد هذا يا جراى ؟ » .
 فغمغم طبيب التخدير بكلمات مبهمه ، وهو منهمك فى وضع
 جهازه فى صندوقه . أما اندرو ، فقد ظل عاجزاً عن أن يفوه

بكلمة . وذكر بفتة - وقد اشتد وجله - أن مسز فيدلر كانت تنتظر في الطابق الاسفل . فقال ايغورى وكأنه قرأ ما جال بخاطره : « لا تنزعج يا مانسون .. سأتولى امر السيدة الصغيرة . هيا ، سأسوى لك المسالة ! »

وهبط اندرو السلم المؤدى الى قلعة الانتظار ، خلف ايغورى ، وكأنه فاقد الوعي .. كان لا يزال مشدوها ، منقبض الصدر ، يشعر بغثيان .. لم يكن بوسعه قط ان يبلغ مسز فيدلر النبأ الاليم . وكان ايغورى هو الذى استطاع مواجهة الموقف ، اذ قال مواسيا وهو يضع يده على كتفها : « لدينا يا سيدتى العزيزة .. لدينا نبأ سيء نقوله لك ! » .. وشبكت أصابع يديها ، وبدأ فى عينيها الفزع ممتزجا بالرجاء ، وتمتمت : « ماذا ؟ »

— ان زوجك المسكين يا سيدتى .. على الرغم من كل ما فعلناه من أجله ..

وتهاوت على مقعد وقد امتقع وجهها وعلته صفرة ، وغمغمت بصوت يعصر الفؤاد : « هارى ! هارى ! » . قمضى ايغورى يقول فى حزن : « كل ما يمكننى أن أقوله لك ، ثيابة عن الدكتور مانسون ، وجرأى ، ومس بكستن ، واصالة عن نفسى ، هو انه لم تكن ثمة قوة على الأرض تستطيع انقاذه .. ولو انه عاش بعد العملية .. » . ولم يتم عبارته ، بل هن كنفه فى حركة ذات معنى . فتطلعت متفرسة فى وجهه ، تحاول أن تفهمه ، وهى تشعر - حتى فى هذه اللحظة الرهيبة - بمواساته لها ، وطيبته نحوها . وهممت من خلال دموعها : « لم يكن يسمعك أن تقول لى شيئاً ادمى لسكينة نفسى مما قلت ! »

— سأرسل لك الممرضة .. اجتهدى فى أن تتجلدى ..

شكرا ، شكرا على ما تبدين من شجاعة !
 وبرح الصالون ، فسار أندرو في أعقابه ، في هذه المرة
 أيضا . وكان المكتب في طرف الردهة ، وقد خلا من كل
 انسان ، فواجه ايفورى وأخرج علبة سجائره وأشعل واحدة
 منها ، وجذب بضعة أنفاس . ولعله كان أشد شجوباً منه في
 الاوقات العادية ، بيد أنه كان ثابتاً ، متماسكاً ، لم يتزعزع .
 وقال في برود : « لقد انتهى الامر . . اننى آسف يا مائسون ،
 فلم أتصور أن يكون هذا الخراج نزيهياً . ولكن هذه - كما
 تعرف - أمور تحدث برغم كل الاحتياطات ! »

ولم يكن في الغرفة الصغيرة سوى مقعد واحد الى جانب
 المكتب . فتهالك أندرو على سياج المدفأة المكسو بالجلد ،
 وركز نظره محموماً على زهور امتلأت بها زهرية خضراء
 كانت في فراغ المدفأة الخاوى . . وأحس بسقام ، وبشرود ،
 وبأنه يوشك أن ينهار تماماً ، وهو لا يستطيع فكاً من طيف
 هارى فيدلر ، الذى سار بدون معين لينطرح فوق منضدة
 الجراحة ، وهو يقول : « لسوف تتحسن صحتى بعد العملية ! » ،
 فاذا به - بعد عشر دقائق - مسجى على المحفة ، جثة هامدة
 . . لقد مات غيلة ! . . وعرض أندرو على شفتيه ، وحجب عينيه
 بيده !

وتأمل ايفورى طرف سيجارته ، ثم قال : « انه لم يمت على
 المنضدة في الواقع ، بل أن الجراحة أنتهت قبل موته ، فلا
 ذنب لنا ، ولا داعى لتحقيق ! » . ورفع أندرو رأسه
 وهو يرتعش ، وقد أهاجه شعوره بضعفه في هذا الموقف
 الحزن ، الذى كان ايفورى يواجهه ببرود تام . وقال في غيظ
 بالغ : « هلا التزمت الصمت ، بحق المسيح ! . . أنت تعرف
 جيداً انك قتلته . انك لست جراحاً ، ولم تكن - ولن تكون -
 جراحاً في يوم من الايام ! . . انك أبشع جزار رأيتته في
 حياتى ! »

وساد صمت قذف ايفورى خلاله أندرو بنظرة باردة قاسية ، ثم قال : « لست أحب كثيرا هذه اللهجة يا مانسون ! » . فأطلق أندرو زفرة هزت كيانه هزا عنيفا ، وقال : « لا تحبها ؟ ! .. أعرف هذا جيدا ، بيد ان الذى قتلته هو الحق .. ان كل الأحوال - التى عرضتها عليك حتى الآن - لم تكن سوى عبث أطفال ، أما هذه ... فهى أول حالة خطيرة نعالجها معا . آه ! يا الهى ! .. كان من الواجب أن ادرك .. اننى لا أقل عنك ذنبا ! »

- استعد هذوءك ، أيها المتهوس الاحمق ! .. سيسمعونك .. فانتابت أندرو نوبة غضب أخرى ، وصاح بصوت مختنق : « وماذا لى سمعوا ؟ .. انك تعرف مثلى ان هذه هى الحقيقة . لقد كنت متهورا .. ان ما فعلته يكاد أن يكون اغتيالا ! » .. وبدا كأن ايفورى يوشك أن يلكمه فيسقطه فاقد الوعي وراء سياج المدفأة . وكان بتركيبه الجسدى وقوته قادر على ذلك . بيد أنه تمالك نفسه بجهد جبار ، وغادر الغرفة دون أن ينطق ببنت شفة ، وان كان وجهه الصارم البارد قد نم عن الحقد والاضغينة !

ولم يدر أندرو كم من الوقت بقى فى المكتب ، مسندا جبينه الى رخام المدفأة البارد ، بيد أنه نهض - أخيرا - وهو يفكر مهموما فى ما كان ينتظره من عمل .. وكانت صدمة هذا الخطب أشبه بقنبلة عنيفة ، أطاحت - وهى تنفجر - بكل شيء . كان يحس كما لو ان بطنه هو الآخر قد شق .. ومع هذا فقد مضى فى سبيله مضى الآلة ذات الاندفاع الذاتى .. مضى أشبه بجندى بأسل جرح فى حرمة الوغى جرحا بليغا ، ولكن حكم العادة راح يدفعه الى اداء واجبات كان يعرف ان الجيش يعتمد عليه فى آدائها .. وهكذا تمكن - كيفما اتفق - من اتمام الطواف على مرضاه ، ثم عاد الى داره مكتئبا حزينا ، فبلغها والساعة تقترب من السابعة ، وهو موعد

استشاراته المسائية .

وكانت قاعة الانتظار وحجرة العيادة مزدحمتين حتى الباب ، ولا موضع فيهما لقدم . وراجع - في وهن المحتضر - قائمة المرضى الذين جاءوا اليه بهذه الوفرة في هذه الامسية الجميلة من امسيات الصيف ، دليلا على تقديرهم لشخصه . وكان أكثرهم من النساء - وبينهن عدد كبير من عاملات « لورييه » - ومن اناس يترددون عليه منذ أسابيع ، تشجعهم ابتسامته ولباقة وأسلوبه في اقناعهم بالمثابرة على تناول أدويتهم .

وتهالك في مقعد عيادته ، وبدأ يؤدي واجباته المعتادة ، وهو يخفى مابه . . وقال للمريضة الاولى : « كيف أنت الآن ؟ . . نعم ، أعتقد أنك تبدين أحسن حالا . . نعم ، النبض أقوى كثيرا . الدواء يفيدك . أمل ، يا آنستي العزيزة ، ان تختملى مرارة مذاقه ! » . وخرج ليعطى كريستين زجاجة الدواء الفارغة . واجتاز الردهة متجها نحو مكتب استشاراته ، حيث وجه نفس الاسئلة التافهة ، مبديا نفس العطف الزائف ، ثم عاد الى الردهة ليأخذ الزجاجة بعد ان ملئت ودخل العيادة ، مواصلا - دون توقف - هذه الحركة الجهنمية المفروضة عليه .

وأحس بأنه يختنق ، وبأن الله لا يطاق ، ولكنه صمد ليعذب نفسه من ناحية ، ولأنه - من ناحية أخرى - لم يكن يستطيع التوقف بحال . ولم ينقطع - وهو يروح ويجيء من مكتب لآخر ، مشئت الوعي لفرط اللوعة - عن أن يسائل نفسه : « الى أين المصير ، بحق السماء ! الى أين ؟ . . »

وأخيرا ، أتم كل شيء في العاشرة والرابع ، متأخرا عن كل يوم ، فأغلق باب العيادة الخارجى بالمفتاح ، وعاد الى مكتبه حيث كانت كريستين تنتظره كالعادة ، متأهبة لاملأ القوائم ،

ولمساعدته في تدوين الاسماء بالسجل . ولاول مرة - منذ اسابيع - راح يتأملها . ويتفرس في وجهها بنظرات دقيقة ، بينما كانت تفحص القوائم التي في يدها . واذهأ - برغم فتوره - أن يرى كم تغيرت : كان وجهها مقطباً مكتئباً ، وشفتاها متراخيتين . ومع أنها لم تتطلع بعينيها نحوه ، الا انه أدرك انهما كانتا مليئتين بحزن قاتل !

وأحس وهو جالس الى المكتب - وأمامه السجل الضخم - بألم شديد في جنبه . على أن جسمه - هذا الغلاف الذي كان يضم كائنا منهارا - لم يش بشيء من هذا الألم الداخلي . وبدأت كريستين تملأ عليه الاسماء - قبل أن يتمكن من الكلام - فأراح يضع في مقابل كل اسم في السجل صليبا يرمز الى كل زيارة ، ودائرة ترمز الى كل استشارة ، وهو يحصى - في ذهنه - جميع ذنوبه .. حتى اذا تم كل شيء سألته بلهجة ، لحظ - في هذه اللحظة فقط - مبلغ ما تنطوى عليه من سخرية لاذعة : « كم ايراد اليوم ؟ »

ولم يجب ، وأنى له أن يجيب ؟ ! .. وبرحت كريستين الفرفة . وسمعها تصعد الى حجرتها ، وتغلق بابها في رفق .. واصبح وحيدا ، منهارا ، مكتئبا ، مستغرقا في تفكير عميق : « الى أين المصير ، بحق السماء ! الى أين ؟ » .. وفجأة ، وقع نظره على علبة التبغ التي امتلأت بدخل اليوم ، فعاوده فيض من المراة غمر كيانه ، وتناول العلبة فقذف بها الى أحد أركان مكتبه ، حيث سقطت فسمع لسقوطها دوى مكتوم .. وقفز ناهضا على قدميه ، وقد شعر بأنه يختنق ، ولا يقوى على ابتلاع أنفاسه .. وبرح المكتب ، وجري الى فناء الدار الخلفى ، حيث لفه الظلام تحت النجوم .. وهناك استند الى الجدار - وقد أخذ منه الإعياء كل مأخذ - وتولته نوبة قىء !

- ١٦ -

♦ وقضى الليل بطوله يتقلب في فراشه ، فلم يواته النوم الا في السادسة صباحا .. وصحا متأخرا ، فلم يهبط الا بعد التاسعة . وكان شاحب الوجه ، مثقل الجفون بالنوم . وتبين أن كريستين كانت قد تناولت افطارها وخرجت . ولم يكن هذا ليزعجه في شيء ، في الاحوال العادية . أما في هذا اليوم فقد احس ، في الم ، بمدى تباعدهما ! ولم يستطع تناول الفطور الذي أحضرته له مسز بنيت ، اذ استعصى على عضلات حنجرتة ان تبتلعه ، فاكتفى بقدح من القهوة . ثم بدا له ان يعد لنفسه قدحا من الريسكى بالصدودا ، وشربه على عجل ، ثم تاهب لعمله اليومي .

ومع ان تيار العمل كان لا يزال يجرفه ، الا ان حركاته بدت اقل آلية . وكان ثمة ضوء غامض مضطرب قد أخذ يبدد ظلمة الشك التي كانت تكتنفه ، فابصر نفسه على حافة الهاوية ، يوشك أن يتردى تهالفا ، وهو موقن من انه اذا سقط فيها ، فلن يكون له منها مخرج أبدا ! . وتجلد في حذر ، وفتح باب حظيرة السيارة ، فأخرج السيارة .. واتعبه هذا الجهد البسيط !

وكان عليه أن يذهب - قبل كل شيء ، في ذلك الصباح - الى مستشفى فيكتوريا ، حيث كان على موعد مع الدكتور ثوروجود ، لفحص ماري بولاند .. كان موعدا لم يشأ ان يخلفه ، بحال .. فاتخذ طريقه غير متعجل . والواقع أنه كان في السيارة أحسن حالا منه وهو يسير على قدميه ، فلقد ألف قيادتها حتى لقد أصبحت عنده أشبه بحركة آلية ! .. وبلغ فيكتوريا . وبعد أن ترك سيارته في الموقف ، صعد الى العنبر ، فحيا الممرضة براسه ، واتجه نحو سرير ماري .

وتناول بطاقتها - وهو في طريقه اليها - ثم جلس على حافة السرير الذى كانت تطلره بطانية حمراء . ولحظ الابتسامة التى استقبلته بها الفتاة ، وباقة الورد الكبيرة التى كانت بجانبها ، دون أن ينقطع عن النظر الى بطاقة الفحص فى غير ارتياح .

وقالت ماري : « طاب نهارك ، أليست هذه الزهور بديعة ؟ .. ان كريستين هى التى أحضرتها لى أمس ! » . فأجاب : « أجل ، انها رائعة ! .. كيف ترين نفسك يا ماري ؟ » . فتمتت : « أوه ! على خير مايرام » . وجابت عيناها عينيه لحظة ، ثم عادت الى مليئين بثقة حارة ، وقالت : « كيفما تكن الحال ، فاني أوقن من انه لن يطول مقامى هنا . انت ستشفينى فى وقت وجيز ! » .. وكان هذا الايمان - الذى تكشف عن كلماتها - وهذه النظرة التى راحت الفتاة ترمقه بها ، يزيدان من مرارته والله . وقال لنفسه : « اذا تطور الامر هذه المرة أيضا تطورا سيئا ، فسوف يكون ذلك ضربة قاصمة لى ! »

وجاء الدكتور ثوروجود - فى هذه اللحظة - يؤدى جرائته فى العنبر ، فما ان لمح أندرو ، حتى اتجه مباشرة اليه . وقال فى ود : « طاب نهارك يا مانسون . لكن .. ماذا بك ؟ .. أتشكو شيئا ؟ » . فقال أندرو وهو ينهض : « اننى فى خير حال . أشكرك ! » .. ورمقه ثوروجود بنظرة متسائلة ، ثم اقترب من سرير ماري ، وقال : « انى سعيد اذ دعوتنى لرؤية هذه المريضة معك . هاتى صور الاشعة آتتها المريضة ! » . وقضيا عشر دقائق يفحصان ماري معا ، ثم سار ثوروجود الى النافذة الاخيرة ، حيث لم يكن يتسنى لاحد أن يسمعهما ، وان ظللا مائلين أمام انظار من فى العنبر . وقال أخيرا : « وبعد ؟ » . فسمع أندرو صوته ، وكأنما كان ينبعث من

عالم آخر : « لست أدري شعورك يادكتور ثوروجود ، على انه يبدو لى ان سير المرض لا يدعو الى الاطمئنان » . فقال ثوروجود وهو يداعب لحيته الصغيرة : « هناك ظاهرة ، او اثنتان .. » . فقال اندرو : « يخيل الى ان المرض قد امتد شيئا ما ! » . ولكن ثوروجود قال : « أوه ! .. لا أرى ذلك يا مانسون » . وعاد اندرو يقول مبررا رأيه : « ان درجة الحرارة أكثر تقلبا » . فقال زميله مفكرا : « أممم ! .. ربما ! » - معذرة اذا أبدت رأيي ، فمع تقديري التام لمركز كل منا ، الا ان لهذه الحالة أهمية بالغة لدى .. الا ترى مع حالتها هذه ، ان هناك انسدادا في الاوعية الرئوية يتطلب جراحة ؟ .. انت تذكر اننى كنت متلهفا على معالجة مارى - اعنى المريضة - على هذا الاساس ، حين جاءت !

والقى ثوروجود نظرة جانبية على مانسون ، ثم قطب جبينه ، وقال : « كالا يا مانسون .. آسف ، لست اعتقد أن هناك محلا لاجراء عملية من هذا النوع .. لم أر هذا حين جاءت ، ولست أراه اليوم ! »

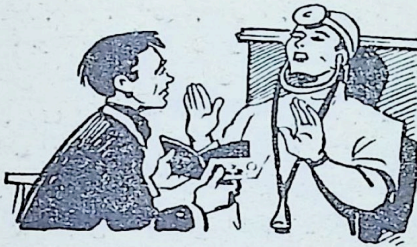
وسادهما صمت لم يجد اندرو كلمة يقولها خلاله ، فقد كان يعرف ثوروجود ويعرف عناده الشديد .. وكان في غاية الاعياء - جسميا وروحيا - فلم يقو على مواصلة نقاش لا يؤدى الى نتيجة ، بل اصفى - صارم الوجه - الى زميله وهو يبسط رأيه الخاص فى المرض .. وعندما فرغ ثوروجود واستأنف جولته حول الاسرة الاخرى ، اقترب اندرو من مارى ، وقال لها انه عائد لرؤيتها فى الغد ، ثم برحها . وقبل ان يغادر المستشفى ، طلب الى البواب ان يتصل بمنزله تليفونيا ، فيذكر انه لن يعود فى موعد الغداء .

وكانت الساعة تقترب من الواحدة ، وهو لا يزال مهموما ، مفرقا فى التفكير فى نفسه ، وقد بساورتها رغبة طفيفة فى

الاكل . فتوقف بالقرب من جسر (باترسى) ، امام مشرب صغير للشاي ، وطلب قهوة وشرائح بالزبد . غير انه احتسى القهوة ولم يمس الشرائح ، اذ أن امعاءه ثارت لمجرد التفكير فى الاكل . وفطن الى أن الساقية كانت تنظر اليه فى دهشة ، ثم قاءت : « هل الشرائح غير جيدة ؟ .. سأتى لك بغيرها » . ولكنه اوما برأسه رافضا ، وسألها عن الحساب .. وبينما كانت تسجله فى دفترها ، راح أندرو يحصى أضرار فستانها السوداء اللامعة .. ما أطول الزمن الذى انقضى منذ تفرس فى ثلاثة أضرار من العقيق، فى إحدى حجرات الدراسة بمدرسة فى بلينيللي !

وكان فى الخارج ضباب خفيف يلف النهر . وتذكر اندرو أن لديه موعين بعد الظهر ، فى شارع (ويلبيك) ، فأنجسه الى هناك فى بطء .. وألقى ممرضته « مس شارب » عكرة المزاج ، كعادتها كلما رجاها أن تحضر يوم السبت .. ومع هذا ، فقد سألته هى الأخرى ، عما اذا كان يعانى الما .. ثم اردفت بلهجة اعذب - اذ كانت تكن للدكتور هامبتون احتراما خاصا - أن فريدى طلبه تليفونيا مرتين منذ وقت الغداء .. وما ان برحت الغرفة حتى جلس الى مكتبه ، وأخذ يحملق أمامه شارد البال

ووصل أول مرضاه فى الثانية والنصف . وكان شابا مريض القلب ، من وزارة المناجم ، ارسله اليه « جيل » .. واشتكى الشاب من اضطرابات فى صمامات القلب ، فتوفر أندرو على فحصه بعناية اقتضته وقتا طويلا ، ثم استبقاه فى الحاح ليشرح له العلاج تفصيلا . حتى اذا فرغ ، أخرج الشاب حافظة نقوده الصغيرة ، فقال أندرو بحرارة : « لا تدفع



الآن ، أرجوك . انتظر حتى أرسل لك مطالبتي ! » . وما كان يعتزم أن يرسلها أبدا ، إذ لم يعد يتهاك على الكسب ، بل ارتد الى احتقار المال ، فاشاع هذا في نفسه قوة خارقة !

ثم جاء المريض الثانى . . وكانت عانسا في الخامسة والأربعين ، تدعى مس « باسدين » . وكانت من أكثر المعجبات به وفاء . . فغاص قلبه لرؤيتها . . كانت ثرية ، محبة لذاتها ، دائمة القلق على صحتها . . كانت نسخة طبق الاصل لمسز « ريبون » - التى زارها مرة مع « هامبتون » في مستشفى شيرنجتون الخاص - وان كانت أصغر منها سنا . . واستمع اليها متضايقا ، مسندا رأسه الى يده ، وهى تبسط له في اسهاب وتفصيل كل الاعراض التى أحست بها منذ آخر زيارة لها قبل بضعة أيام . وما لبث أن رفع بفته رأسه قائلا : « فيم جئت تريننى يامس باسدين ؟ » . فامسكت ولما تتم جملتها ، وقد ظل وجهها ينم عن الارتياح ، بيد أن فمها تدلى ببطء ، وبقي فاغرا . . فقال أندرو : « أوه ! أعرف أن هذه غلطتى ، فقد قلت لك أن تعودى . ولكن الحقيقة أنك لا تصانين شيئا على الاطلاق ! » . فهتفت في دهشة ، وهى لا تكاد تصدق سمعها : « دكتور مانسون ! »

وكان هذا صحيحا تمام الصحة . فلقد تبين - فى بصرية قاسية - ان كل أمراضها المزعومة مردها الى المال ، فهى لم

تعمل طوال حياتها يوما واحدا ، بل كانت تدل نفسها ،
وتتعالج ، وتسرف في التغذية . واذا كانت لا تنام ، فأنما كان
هذا راجعا الى انها لم تكن تقوم بأى جهد . . عقلى أو عضلى .
لم يكن لديها ما تعمله غير فصل « الكوبونات » عن سنداتها ،
والتفكير فى ثروتها ، وتقريع وصيقتها ، واستعراض ما تأكله
هى وكلبها المدلل . . وتمنى أندرو أن تبرح الغرفة وان تسلك
مسلك العقلاء ، فتعزف عن تناول كافة الاقراص والمنومات
وما اليها ، وتعطى من مالها للفقراء والمساكين ، وتساعد
الآخرين ، وتنسى ذاتها تماما ! . . ولكن هيهات ، هيهات أن
ترضى بهذا ، ومن العبث طلبه منها . . كانت روحا ميتة ،
وكذلك كان هو . . والله فى عونہ !

وقال فى رصانة : « آسف يا مس باسدين ، فليس بوسعى
ان اقدم لك اية خدمة . اذ اننى قد . . ربما غادرت لندن .
على انك بلا شك ستجدين فى هذا الحى أطباء آخرين يسعدهم
كثيرا أن يكونوا فى خدمتك ! » . . وفقرت فاما عدة مرات
كالمسكة خارج الماء ، ثم ارتسمت على وجهها علائم وجل
حقيقى ، اذ ايقنت تماما أنه قد افقد عقله . ولم تتمهل لمجادلته ،
بل نهضت فجمعت على عجل أشياءها ، وبرحت الغرفة
مهرولة . وتأهب أندرو للعودة الى داره ، وأغلق ادراج مكتبه
على نحو ما يفعل انسان يقوم بعمل حاسم . ولكن ممرضته
دخلت مندفعة - قبل أن ينهض - وقد ارتسمت على شفقتها
ابتسامة : « ان الدكتور هامبتون يريد مقابلتك ، وقد جاء
بنفسه بدلا من أن يتكلم تليفونيا ! » . وان هى الا دقيقة حتى
دخل فريدى . وأشعل سيجارة ، وتهالك فى مقعد . . وكان
مظهره يدل على انه جاء لفرض معين . وما لبث أن تكلم
بلهجة ودية ملحوظة !

قال فريدى : « آسف اذ آزعجتك فى يوم السبت ايها الصديق ، بيد اننى عرفت انك هنا ، فجئت اراك . اصغ الى يا مانسون ! . لقد علمت بجراحة الامس ، وابدأ فاصارك باننى جد مسرور . لقد آن لك أن تكون على حذر من ايفورى العزيز هذا ! » . وهنا اخشوشن صوته وهو يمضى قائلا : « أحسب أنه يحسن أن تعرف يا عزيزى أن العلاقات بينى وبين ايفورى وفريدمان قد فترت . لقد تلاعبا بى .. كان بيننا نحن الثلاثة اتفاق نفيد منه كثيرا . أما الآن ، فاننى شبه واثق من انهما يفتالاننى فى جزء مما يخصنى . فضلا عن أن الكيل قد قاض بى ازاء جهل ايفورى الجزار ! .. انه ليس جراحا وانت محق تماما اذ تقول هذا ، فهو لا يحق الا عمليات الاجهاض .. انك لم تكن تعرف هذا ، اليس كذلك ! .. ولعلك الآن تصدقنى ، فعلى اقل من مائة ميل من هنا ، توجد داران للاستشفاء ، لا تمارس فيهما سوى هذه العمليات فحسب .. ببراعة ، وفى الخفاء طبعاً . ويخرج ايفورى من هذا بنصيب الاسد . وفريدمان لا يفضل به شئ . انه ليس سوى متجرب فى المخدرات ، وان لم يكن فى دهاء ايفورى . وسينتهى به الامر يوما الى المثل أمام مجلس جمعية الاطباء ! .. والآن استمع لى جيدا يا صديقى ، فاننى اكلمك لمصلحتك . اريدك على أن تعرف ما يبطن هذان الرجلان ، لاننى اود ان تبعد عنهما وتقترب منى . لقد كنت ساذجا جدا ، فلم تأخذ نصيبك من الكعكة . الا تعرف أن ايفورى حين يتقاضى مائة جنيه عن جراحة ، يعطى زميله منها خمسين .. وهذا يجلب له عمليات كثيرة ، أتدرك ؟ .. فماذا اعطاك انت ؟ شيئا تأفها ، خمسة عشر جنيها أو ربما عشرين . هذا لا يكفى يا مانسون ، لا سيما بعد جريمة الاغتيال التى ارتكبها هذا الجاهل أمس ، ولو كنت مكانك ما احتملت هذا بعد الآن . انى لم اقل بعد لهما شيئا ، لكنى اعرف ما سافعله ، فاليك خطي

يا عزيزى : لنضعهما يترديان ، وليقم بيننا - نحن الاثنين - تعاون وثيق قوى . فنحن - قبل كل شيء - صديقان منذ أيام دراستنا في الجامعة ، اليس كذلك ؟ . انى احبك كثيرا ، وقد اعتدت ان اعجب بك دائما . ويمكننى ان اعلمك اشياء كثيرة ! »

وتوقف فريدى ليشعل شيجارة اخرى ، ثم بسط - في ابتسامة ودية لم تفارقه - ما يستطيع ان يفعله كأحد طرفي التعاون الذى كان يقترحه : « قد لا تصدق الاالعيب الباهرة التى لعبتها . . اليك آخر حيلة منها : حقن ، ثمن الواحدة منها ثلاثة جنيهات ، وهى ليست سوى ماء تقى . فلقد جاءتنى مريضة - ذات يوم - تطلب ان احقنها بالدواء الذى اعتادت ان تحقن به . وكنت قد نسيت طلب المحلول اللعين ، فلكى لا اغضبها ، ملأت الحقنة بالماء المقطر . . وفى اليوم التالى ، جاءت تقول لى ان الحقنة كانت افضل مفعولا من اية حقنة اعطيت لها من قبل . فمضيت اكرر ما فعلت . ولم لا ؟ . . ان العبرة دائما بيقين المريض وبزجاجة الماء الملون . لاحظ جيدا اننى اعرف - عند الحاجة - كيف اجعلهم يتلعون كل المركبات الصيدلية . فانا احذق المهنة ! آه ! احذقها تماما ، ولكننى عاقل ، فاذا اتفقنا اتفاقا حقيقيا ، انت بدبلوماتك وانا بخبرتى ، لظفرنا بزبدة الدسم . . وهذا يتطلب تعاوبا بين اثنين ، اذكرك ؟ . . ان الحاجة تدعو دائما الى رأى ثان ، وأنا ارمق جراحا شابا مدهشا - يفوق ايفورى كثيرا - ويمكننا بعد قليل ضمه الينا . بل من الممكن - اذا اقتضت الحال - ان يكون لنا مستشفانا الخاص ! »

وظل أندرو رصينا لا تشى ملامحه بشيء . . وما كان ساخطا على هامبتون ، وانما كان مستاء من نفسه . فما كان بوسع شيء ان يريه الى اى مدى تردى ، وماذا فعل ، والى اين

مصيره ، قدر ما أراه اقترح هامبتون هذا .. وفطن أخيراً إلى أن الأمر يقتضيه جواباً ، فغمغم : « ليس بوسعى أن أتمشى معك يا فريدى ، لقد .. لقد سئمت فجأة كل هذا ، واعتقد أنني سأبقى حيثما أنا لبعض الوقت . ان فى هذه البقعة الصغيرة من لندن ثعالب كثيرة . ان هناك كثيراً من الأطباء يحاولون أداء عملهم باخلاص ، ويمارسون المهنة بشرف وأمانة .. أما الباقون فانهم ثعالب . هؤلاء هم الذين يعطون حقناً عديمة الفائدة ، ويستأصلون اللوز والزائدة الدودية التى لاخطر منها على الإطلاق ، ويتقاذفون مرضاهم كأنهم كرات فى أيديهم ، ويفتسسون الاتعاب فيها بينهم ، ويمارسون الاجهاض ، ويروجون الادوية الزائفة .. انهم يجرون بلا انقطاع وراء الجنية ! »

واحتقن وجه هامبتون تدريجاً ، ثم انفجر قائلاً : « بحق الجحيم ، وما رأيك فى نفسك ؟ » . فأجابه أندرو فى ألم : « أعرف يا فريدى اننى لست خيراً منهم . لست أرود ان نختلف معاً ، فلقد كنت على الدوام من خيرة أصدقائى ! » . فقفز هامبتون قائلاً : « هل فقدت عقلك ... أم ماذا ؟ » فقال أندرو : « ربما .. على اننى سأحاول الا احصر تفكيرى فى المال والنجاح المادى فحسب ، فليس هذا مما يثبت مقدرة الطبيب . وعندما يريج الطبيب خمسة آلاف جنيه فى السنة ، فانه لا يمكن ان يكون أميناً . ثم فيم السعى لكسب المال على حساب أولئك الذين يتألمون ؟ » . فصاح هامبتون ساخطاً : « يالك من غبى ابله ! » . ثم استدار وبرح المكان .. فعاد أندرو الى مقعده وحيداً مكتئباً ، ثم نهض أخيراً ، فانصرف الى داره .

وأحس وهو يقترب من البيت بضربات قلبه تشتد ، وكان الوقت قد تجاوز السادسة ، وخيل إليه أن اعباء هذا اليوم الفصيب قد بلغ ذروته ، إذ أخذت يده ترتجفان بشدة وهو يدير المفتاح في القفل .

وكانت كريستين في الصالون الصغير . فارتجف حين أبصر وجهها الشاحب الهادي . ولكم ود لو أنها راحت تناقشه الحساب . . لو أنها سألته باهتمام كيف قضى هذه الساعات بعيدا عنها ! . . غير أنها اقتصرت على القول في غير مبالاة : « كان لديك عمل كثير . . اتريد شيئا قبل استشارتك ؟ » . فأجاب : « لن تكون هناك عيادة في هذا المساء » . فحملقت فيه قائلة : « ولكن اليوم يوم السبت ، وقد اعتاد مرضاك أن يكونوا في هذا اليوم أكثر منهم في سواه » . فلم يجب بأكثر من أن كتب ورقة بأن العيادة مغالقة هذا المساء ، وذهب فعلقها على الباب . . وكان قلبه يخفق حتى ليكاد ينفطر . . وحينها عاد ألفى كريستين في مكتب استشاراته ، أشد شحوبا وأكثر شرودا .

وسألته في لهجة غريبة : « ماذا في الامر ؟ » . فاطال النظر إليها ، والالم الذي كان يعصر قلبه يشتد ، ثم هتف فجأة ، في انفعال طاغ لم يقو على كبحه : « كريستين ! » . . وكان كل



ما في نفسه قد تمثل في هذه الكلمة البسيطة .. وخر امام زوجته جاثيا على ركبتيه ، وانخرط في البكاء !

— ١٧ —

♦ وكان صلحهما أروع حدث وقع لهما منذ تبادلوا الحب . وظل اندرو في اليوم التالي — وكان يوم أحد — مستلقيا الى جانب كريستين ، كما كان يفعل أيام ابرالو ، وهو يتكلم ويتكلم وكأنه نسي الاعوام التي مضت ، ففتح لها قلبه . وكان رنين الاجراس يدوي في جو يوم العطلة — في الخارج — فيبث في النفس سكينه وطمأنينة . ولكن نفس اندرو لم تهدأ ، فلم يكف عن القول ساخطا على نفسه : « كيف بلغت هذا المدى ؟ .. اكنت مجنونا يا كريس ، أم ماذا ؟ .. اننى عندما أهود الى التفكير في الامر ، لا اكاد اصدقه . أتردى مع هذه الزمرة ، بعد أن عرفت ديني وهوب ؟ يا الهى ! اننى جدير بأن أعدم ! » . فقالت كريستين تسرى عنه : « ان هذا كله يحدث بسرعة فائقة يا حبيبى ، واى انسان معرض لان ينزلق فيه ! » — كلا يا كريس ، في الواقع .. اننى كلما فكرت فيه أحسست بأن عقلى يغب عنى . ولكم كانت هذه الفترة بشعة — ولا بد — بالنسبة لك ! .. يا الهى ، يجب أن ألقى أقسى صنوف العذاب !

وابتسمت .. ابتسمت عن شعور صادق ، فهفا بفؤاده ان يرى وجهها وقد فارقتة علائم الفتور الثلجى ، وعاد نظرا مرحا طافحا بالود .. وراح يردد في نفسه : « رباه ! اننا نعود معا الى الحياة ! .. » وما لبث أن قال في تصميم وعزم : « ليس أمامى سوى طريق واحد أسلكه » .. وأصبح — برغم انفعاله وهواجسه — يحس بأنه قوى ، متحرر من الاوهام التي ضللت تفكيره ، متأهب لان يعمل .. واردف قائلا : « يجب أن نرحل من هنا . لقد تورطت هنا كثيرا يا كريس .. كثيرا جدا . ان

كل شيء هنا يذكرني بنزواتي ، ومن يدري ، ربما جرتي مرة أخرى إليها . سنبيع العيادة بسهولة ، ثم .. أوه يا كريس ! عندي فكرة رائعة ! » . فتهفت : « وما هي يا غرامى ؟ »

وانفجرت أسارير وجهه ، وابتسم لها مترددا في عطف وحنان ، ثم قال : « منذ كم من الوقت لم تنادينى بهذا النداء ؟! .. لكم يسعدنى هذا ! أجل ، لقد كنت استحق ما جرى .. أوه ! لا تدعينى يا كريس أفكر في ذلك الوقت ! .. ان هذه الفكرة .. هذا المشروع جال بخاطرى وأنا استيقظ هذا الصباح . كنت قد عدت الى التفكير مشمئزا في « هامبتون » حين طلب منى الاشتراك معه في تكرين ذلك التعاون المزرى .. وفجأة اوهضت الفكرة في رأسى ، فسالت نفسى : « لماذا لا يكون تعاوننا شريفا ؟ » .. انه أمر شائع بين الاطباء في أمريكا ، ولقد رددته مستبلمان على سمعى كثيرا ، مع انه ليس طبيبا .. أما هنا فيبدو لى أن الاطباء ليسوا من انصار هذا الاسلوب . أترين يا كريس ؟ .. بوسعنا ان نؤسس - ولو في مدينة صغيرة من مدن الاقاليم - مستوصفا تعمل فيه جماعة صغيرة من الاطباء ، فيمارس كل منهم الناحية التى اختص بها .. والآن اصفى الى يا حبيبتى ، لماذا - بدلا من الاشتراك مع هامبتون وايفورى وفريدمان - لماذا لا آخذ دينى وهوب معى فنؤلف ثالوثا طبيبا ؟ .. اذ يقوم دينى بكافة العمليات الجراحية - وانت تعرفين كم يجيد الجراحة - وأنهض أنا بكل ما يدخل في نطاق الطب العام ، ويكون هوب بكتريولوجيا .. أترين الميزة ؟ .. ان كلا منا اخصائى في عمله ، وسنضم معلوماتنا بعضها الى بعض ! .. !مالك لم تنسى مناقشات دينى ومناقشاتى أيضا حول النظام السخيف الذى يسود طبنا العام ، وكيف أن من يمارسه يتعثر ، وهو يحمل على منكبيه عبء كل شيء .. انه امر محال . ولكن الطب

الجماعى هو الحل الموفق السعيد لهذه المشكلة .. انه شيء وسط بين الطب الرسمي والجهود الفردى .. والسبب الوحيد الذى يمنعنا من تطبيق هذا النظام هنا ، هو أن كبار الاطباء يحبون الاستئثار بكل شيء ! لكن ، ألا يكون بديها يا حبيبتي تكوين جبهة واحدة ، محصنة تماما من الناحية العلمية ، ومن الناحية .. أجل اننى لاجرؤ على أن أقولها : من الناحية الاخلاقية .. فرقة من فرق الطليعة تعمل على تبديد الاوهام ، وتحطيم الاصنام القديمة .. وربما اثارها ثورة عارمة في هيئتنا الطبية ! »

وكانت تنظر اليه وخدها الى الوسادة ، وعيناها تومضان . ثم هتفت : « اننى اذ اسمعك تتحدث على هذا النحو ، اذكر الايام الخوالى . ليس بوسعى أن أصف لك سرورى بهذا ! .. لكأننا نبدأ من جديد حياتنا كلها .. اننى سعيدة يا حبيبى .. سعيدة ! » . فقال بوجوم : « ان على ان أصلح ما أفسدت ، وما اكثره ! .. لقد كنت ابله ، وأسوأ من ابله .. لن أستطيع أن أنسى هارى فيدلر المسكين ، ولست أريد ان انساه . لا بد ان أعمل شيئا حقيقيا تعويضا عن هذا الخطب ! .. ان وزرى فى هذا الامر يا حبيبتي ، لا يقل عن وزر أيفورى ، ولست أتمالك نفسى من التفكير فى اننى فرطت فيه بسهولة ، بيد اننى ساءهل يا كريس كالمحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، وأحسب ان دينى وهوب سيخفان لمساعدتى .. أنت تعرفين آراءهما ، فان دينى يتوق بكل جوارحه الى العودة لحياة الطبيب العامل ، على خشونتها . اما هوب ، فاذا أعددت له معملا صغيرا ، استطاع أن يقوم فيه ببحوث شخصية الى جانب تحضير أمصالنا ، وبذلك يكون فى ركبنا أينما ذهبنا ! » وقفز عن السرير ، وأخذ يذرع الحجرة متحمسا كهده فى الماضى ، يتجاذبه الابتهاج بالتطلع الى مستقبل مشرق ، والحسرة ووخز الضمير كلما تصور الماضى .. وازدحم رأسه

بالافكار يقلبها في غمرة من الشك والامل ، ثم صاح : « ان لدى امورا كثيرة ينبغي تسويتها ، ومن بينها امر يجب ان اعني به عناية خاصة يا كريس . اصغى الى يا حبيبتي ، ما رايتك لم تخرج بعد الغداء ، وبعد ان افرغ من بعض الخطابات ، فنقوم بجولة في الريف ؟ » . فتطلعت اليه في دهشة ، وسألته :
« لكن .. اليس لديك عمل ؟ »

— لن يكون هذا حائلا .. الحقيقة يا كريس ان ضميري مثقل كثيرا من ناحية ماري بولاند ، فهي لا تحرز اى تحسن في « فيكتوريا » ، وهذا يقلق بالى كثيرا . ان ثور وجود لا يبدى نحوها اى اهتمام حار ، ولا يفهم حالتها جيدا ، او هكذا ارى ، على الاقل . يا لله ! لسوف افقد عقلى اذا حدث شيء لماري بعد ان اخذت امرها على عاتقى امام بولاند .. انها — رغم بشاعة هذا القول اذ يصدر من الانسان عن مستشفاه — لن تشفى بحال في فيكتوريا ! .. يجب ان تذهب الى الريف ، الى الهواء الطلق في مصحة جيدة ! .. لهذا اريد ان نذهب الى ستلمان . ان (بيلفى) اروع واجمل مؤسسة صغيرة يمكن ان يحلم الانسان برؤيتها . ولو اننى استطعت اقناعه بقبول ماري .. اوه ! اننى لن اكون مرتاحا فحسب ، بل لسوف اشعر باننى عملت شيئا يستحق الذكر !

فقالت في تصميم : « سنذهب فور ان تكون مستعدا » . وسرعان ما ارتدى ملابسها ، وهبط يكتب خطابا مطولا لدينى وآخر لهوب . ولم يكن عليه ان يرى سوى ثلاثة من المرضى الممتازين .. وبعد ان تناول مع كريستين غداء خفيفا ، برحا الدار في طريقهما الى (وايكومب) .. وكانت النزهة ممتعة بالرغم من اثوتر والارهاق اللذين ظلا يلحان عليه ، فأيقن كما لم يوقن في اى وقت ، بان السعادة حالة نفسية ، معنوية بحت ، مستقلة عن المنافع المادية ، مهما يقل المتشائمون ..

لقد خيل اليه طوال هذه الاشهر التي راح يجري فيها وراء
الثروة والجاه ، والتي وفق خلالها الى أهدافه من كافة
الاعتبارات المادية .. خيل اليه خلال تلك الاشهر انه كان
سعيدا ، ولكنه لم يكن سعيدا ! .. لقد كان يعيش في
ما يشبه الدوامة : كما أصاب كثيرا طمع في أكثر ! ..
وقال في نفسه محسورا : هكذا هو المال .. المال الدنس ! ..
لقد قال لنفسه في البداية انه راغب في أن يحقق الف جنيه في
العام ، فلما كسبها ، راح يطمع في ضعفها كحد أقصى . ولكنه
لم يقنع حين وفق ، فاستمرت الحال على هذا المنوال . طمع
مطرد في المزيد ، حتى أشرف على الهلاك !

وراح يرمق كريستين بنظرات من طرف عينه .. لكم
تأملت من أجله ! .. أما الآن ، فان في اشراق وجهها الدليل
الكافي على صواب قراره .. لم يعد وجهها جميلا جدا ، اذ ان
الزمن والشدائد فعلت فيه فعلها وتركت عليه آثارها ، فاذا
العينان تحيط بهما بعض تجعدات قاتمة ، والخدان ذابلان
شيئا ما ، بعد نضرة ورواء . بيد انه ظل على عهده ، يعبر
عن الهدوء والصرامة ! .. واثر هذا الاشراق الجديد في نفس
أندرو تأثيرا عميقا ، فأحس بندم بالغ ، وأقسم ألا يأتي بعد
ذلك ما يحزن زوجه .

ووصلا الى وايكومب قرب الثالثة ، ثم سلكا طريقا جانبا
صغيرا يؤدي الى أعلى التل ، متجاوزين (لاسي جرين) .
وكان مصبح (بيلفي) يشغل موقعا خلابا - بعد هذه البقعة -
فوق ربوة صغيرة تشرف على الواديين .. وهناك ، استقبلهما
ستلمان في مودة . وكان رجلا متحفظا ، قليل الكلام بطبعه ،
لا يسرف في عواطفه الا نادرا ، ولكنه ابدى سروره لزيارة
أندرو ، بان راح يطلعه على كل ما في منشأته من جمال ، وأظهره

على مداها .. وكان المصح صغيرا ، ولكنه كان رائعا بلا مرء ، وبه جناحان اقيما بحيث يواجهان الجنوب الغربى ، ويصل بينهما مبنى رئيسى خصص للإدارة . وفوق ردهة الدخول والمكاتب ، كانت ثمة قاعة للعلاج مجهزة ايما تجهيز ، وقد جعل جدارها الجنوبي كله من الزجاج .. وكانت وسائل التدفئة والتهوية فى المصح ، من أحدث طراز .

ولم يتمالك أندرو نفسه - وهو يطوف بأقسام المصح - من أن يقارن بين هذه المؤسسة الحديثة ، وبين الابنية العتيقة التى مضت عليها مئات السنين ، والتى تشغلها مستشفيات لندن ، و .. وتلك الدور القديمة ، التى اسىء تحويلها وتجهيزها ، وزعموا انها مستشفيات خاصة ! .. واذا اطلع ستلمان ضيفه على كل شيء ، قدم لهما الشاى . وعند ذلك تقدم أندرو فجأة بطلبه : « يخجلنى يا مستر ستلمان أن أسألك خدمة .. فهل لك أن تقبل هنا احدى مرضاى ؟ .. انها فتاة مصابة بالسل فى مرحلته الاولى ، وقد تتطلب حالتها اجراء عملية جراحية ! .. وهى ابنة صديق من أعز اصدقائى ، زميل طبيب أسنان .. انها لا تحرز تقدما حيث هى الآن ! »

وبدا العجب فى عينى ستلمان ، وقال : « ما احسبك تقصد ارسال مريضة الى ؟ .. ان اطباء هذه البلاد لا يفعلون هذا ، وان كان الاطباء فى أمريكا يجازفون ويفعلونه . انك تنسى اننى هنا لست سوى معالج زائف ، يدير مصححا للتهويش ، واننى احدى أولئك المهرجين الذين يجعلون مرضاهم يسبغون حفاة تحت الندى ، قبل أن يفتروا بجزر غير ناضج ! » فقال أندرو من غير أن يتسم : « ما سألتك أن تضحك منى يا سيدى العزيز ، بل أن امر هذه الفتاة يهمنى الى أقصى حد .. اننى قلق من ناحيتها ! »

- ولكنى أخشى ، وهذا هو الواقع ، ألا يكون فى المصح مكان

لها يا صديقي العزيز ، فلدى - على الرغم من عدااء هيئاتكم الطبية - قائمة طلبات طويلة جدا !.. من الغريب حقا ان يريد الناس منى أن أعالجهم وأنف الاطباء راغم .

وغمغم أندرو ، وقد أحدث رفض ستلمان في نفسه خيبة أمل مريرة : « كنت اعول كثيرا على هذا .. آه ، لو اننى رفقت الى احضار مارى الى هنا ، لتخففت من عبء ثقیل . ان مؤسستك هى خير مؤسسة فى انجلترا لعلاج المرضى ، وليس فى قولى أى رياء ، فأنا أعرف الامر جيدا . اننى حينما أفكر فى ذلك العنبر القديم الذى تنام فيه مارى فى مستشفى فيكتوريا .. » وانحنى ستلمان يتناول شطيرة بالخيار ، من فوق المنضدة التى كانت امامهم . وكان له اسلوب خاص ، اذ يتناول الاشياء بأطراف أصابعه ، كأنه قد غسل يديه منذ لحظة فهو يخشى أن تتسخ من جديد . ثم قال : « اذن فهى تمثيلية ساخرة صغيرة تدبرها !.. ولكن ، لا ، لا ، ما ينبغي أن أقول هذا ، فانك بادى القلق حقا ، وسوف اساعدك . سأقبل مريضتك هنا ، بالرغم من أنك طبيب ! » .. ولوى شففيه حين تبين أن أندرو لم يتهلل ، وقال : « سترى مدى تسامحى ، فليست أرى بأسا فى مزاوله المهنة اذا ما دعت الظروف . لماذا لا تبسّم ؟ الا ترى اننى امزح ؟ .. لا بأس ، فانك اكثر استنارة من معظم زملائك الاطباء ، بالرغم من أنك لاتسيغ المزاح .. ليست ادى أية غرفة خالية حتى الاسبوع القادم ، يوم الاربعاء فيما اعتقد . احضر لى مريضتك فى الساعة الثامنة من صباح الاربعاء ، وأعدك بأن أعمل كل ما فى وسعى من أجلها ! »

فهتف أندرو متلعثما : « لست ، لست أدري كيف أشكره .. انى .. » . واحمر وجهه خجلا وعرفانا بالجميل . فقال ستلمان : « لا تشكرنى ، ولا تسرف فى التأدب الى هذا الحد ، اننى أفضل منظرك عندما تبدو كأنك تريد أن تحطم كل شيء . »

الم يقذفك مرة بالاطباق يا مسز مانسون ؟ .. ان صديقا من
اعز أصدقائي في أمريكا - وهو يمتلك ست عشرة صحيفة -
يحطم طبقا ثمنه خمسة سنتات ، كلما غضب . وفي
ذات يوم .. » . وروى لهما قصة طريفة ، وجدها مانسون
غير سائغة ! وفيما كان اندرو عائدا مع كريستين ، وقد رف
نسيم المساء ، قال لها : « مهما يكن من أمر ، فهذه مسألة
سويت يا كريس ، وقد تخففت من أحد الأعباء التي تثقلني .
اننى على يقين من أن هذا المصح هو خير ما يلزم لمارى ، فان
ستلمان رجل عظيم ، وأنا أحبه كثيرا . ان مظهره لا يوحى
بشيء ، ولكنه - فى الواقع - فولاذ مضغوط ! .. ترى هل
يقدر لنا - دينى وهوب وأنا - أن يكون لنا مستوصف من
هذا النوع ؟ .. ستقولين أنه حلم جامع ، ولكن من يدرى ؟ ..
اننى لا أفنأ أفكر فى أن بوسعنا - لو انضم دينى وهوب الى -
ان نتخذ لنا مستوصفا فى الريف .. وقد نكون جد قريبين
من إحدى مناطق التعدين ، مما يتيح لى أن استأنف أبحاثى
عن استنشاق الفجار . فما رأيك يا كريس ؟ »
وكان جوابها أن مالت بجنبها اليه ، ومنحته قبلة حارة ،
غير عابئة بالخطر الذى كانا يتعرضان له ، والسيارة تنطلق
بهما فى الطريق الخلوى !



— ١٨ —

♦ استيقظ اندرو في صباح اليوم التالي مبكرا ، بعد ليلة نعم فيها بنوم هادىء ، فأحس بأنه ممتلىء قوة ، متأهب لعمل أى شىء . وذهب لتوه الى التليفون ، فعهد بالتصرف فى عيادته الى مؤسسة « فولجر وتيرنر » للمبادلات الطبية فى شارع آدم . وكان مستر « جيرالد تيرنر » ، المدير الحالى للمؤسسة العريقة ، هو الذى أجابه . ولم يلبث أن خف المدير الى (تشيسبورو تيراس) كـرغبة أندرو . حتى اذا فحص الحسابات - فحسا دام ضحى اليوم كله - أخبره بأنه لن يجد أقل صعوبة فى بيع العيادة سريعا . . . وأردف مستر تيرنر مداعبا غليونه : « لا بد لنا يا دكتور من أن نذكر فى اعلاناتنا سببا للبيع ، فسوف يتساءل أى مشتر بالضرورة : « لماذا يترك طبيب مثل هذا الكنز ؟ » . . . انها - فى الواقع يا دكتور - منجم ذهب ، فمنذ زمن طويل لم أر دخلا كهذا لعيادة . . . هل نقول : لاسباب صحية ؟ » . فابتدره اندرو : « لا ، بل قولوا الحقيقة ، قولوا . . . اوه ! ، قولوا لاسباب شخصية ! »

وكتب مستر تيرنر فى مذكرته مسودة اعلان : « تترك لاسباب شخصية بحث ، لا صلة لها بالمهنة » . فقال أندرو مختتما : « تذكر جيدا اننى لا اطلب ثروة ، وانما ابغى ثمنا مناسباً فقط . فهناك عدد من مرضاى قد لا يجيئون لمن يخلفنى ! »

واسلمته كريستين - اثناء الغداء - برقيتين . كان قد رجا دينى وهوب أن يجيباه تغرافيا . وقد قال دينى بايجاز ، فى البرقية الاولى : « مهجـب بمشروعك . وسأصل مساء غد » . أما البرقية الثانية ، فقد جاءت فيها هذه الدعاية اللاذعة : « هل كتب على أن اقضى حياتى مع مجانيين ؟ . . . تمناز مدن

الإقليم الأنجليزية بالحنات ، والكائناتيات ، واسواق
الخنازير . . هل قلت « معمل » ؟ - التوقيع : دافع ضرائب
محقق »

وذهب اندرو بعد الغداء الى فيكتوريا . ولم يكن الوقت
وقت الزيارة المخصص لعنبر ثوروجود ، ولكن هذا كان يلائم
خطته تماما ، اذ لم يشأ اثاره متاعب أو عقبات ، وكان يشفق
- بوجه خاص - من أن يضايق زميله الذي كان لطيفا معه ،
برغم عناده وبالع اهتمامه بالحقائق والحجامين في الزمن
الفاير ! . . . وجلس اندرو على سرير ماري ، وشرح لها
خطته ، فقال وهو يداعب يدها مطمئنا اياها : « هذه غلطتي
منذ البداية . . . كان يجب أن أقدر أن هذا المستشفى ليس
بالمكان الذي يلائمك ، وستلمسين الفارق حينما تكونين في
(بيلفي) . . انه قارق كبير يا ماري . على أنك عوملت هنا
احسن معاملة ، فلا داعي لآلام أحد ، وليس عليك سوى
أن تقولي أنك تريدن مبارحة هذا المكان في يوم الاربعاء
القادم . . . واذا كان يضايقك أن تفعل هذا بنفسك ، فسأرجو
إبائك أن يكتب معربا عن رغبته في أن تكوني بجانبه . وهناك
كثير من المرضى ينتظرون خلو أي سرير هنا ، فلن يشر الامر
اية صعوبة . واذا ذاك ، سأصحبك بنفسى بالسيارة الى
(بيلفي) ، وستكون معى ممرضة ، وكل ما يلزم . . »
وعاد الى داره وهو يشعر بأنه قد أنجز عملا جديدا ، الى
جانب ما أنجز من أعمال ، مرتبيا انه قد بدأ يخرج من المازق
الذي كان فيه . . . واخذ - في ذلك المساء - يتخلص من
مرضاه الزمنيين ، مضجعا دون اشفاق بلطفه ونسحره .
فقال اثنى عشرة مرة في ساعة واحدة : « يجب أن تكون هذه
الزيارة آخر زيارة لك . فانت الآن احسن حالا ، وليس من
الخير تعاطي الادوية باستمرار ! . »
واذ قفل هذا ، أحس بأنه أكثر ارتياحا ، اذ بات يوسعه

ان يقول - بنزاهة وصراحة واصرار - كل ما يعتقد ، وهذا ترف أباه على نفسه منذ زمن بعيد . وعاد الى كريستين وكأنه حدث غريب . فغمغم : « لكم أحس الآن بأننى خير من ذى قبل ! .. يا الهى ، كيف أقول هذا ؟ .. أفنسيست ما حدث : فيلدر ، و .. وكل ما عملت ؟ » . ودوى جرس التليفون فى تلك اللحظة ، فذهبت كريستين تلبى النداء . وبدا لاندرو انها مكثت طويلا ، حتى اذا عادت ، كانت بادية الانقباض من جديد . وقالت : « يطلبونك فى التليفون ! » . فهتف : « من .. ؟ »

وأدرك على الفور انها فرانسيس لورنس ، فساد الغرفة صمت ثقيل ، ثم قال لاندرو والكلمات تتواثب من فمه : « قولى اننى لست هنا . اننى سافرت . كلا ، انتظرى ! » .. وكانت سحنته تعبر عن عزم وتصميم ، واندفع فجأة وهو يقول : « سأكلهما بنفسى ! » .. وعندما عاد بعد خمس دقائق ، ألفاها جالسة فى ركنها المعتاد - حيث الاضاءة جيدة - وقد انهمكت فى التطريز . وأختلس النظر اليها ، ثم حول عينيه عنها ، وذهب الى النافذة فمكث عندها بآدى الضيق ، ويداه فى جيبه . وكانت طقطقة ابر « التريكو » تمضه ، وتبعث فى كيانه خورا ، وتجعله أشبه بكلب مكتئب منهار ، يعود الى بيته خفيض الذيل مشمئزاً ، أثر بضع مغامرات محرمة ! وأخيرا ، قال لكريستين وهو يوليها ظهره : « وهذا ايضا قد انتهى . ربما سرك أن تعرفى أن غرورى الباطل كان مبعث هذا الامر . غرورى ومصلحتى . فانا لم احب فى أى وقت سواك . يا للشقاء يا كريس ! لقد كان ذنبى وحيدى ! .. ان هؤلاء القوم يعتقدون أن كل الناس على شاكلتهم ، ولكنى لست كذلك ، ولهذا فأننى انفض عنهم بسهولة .. بسهولة بالغة . ودعيني انبئك بأننى طلبت « لى روى » ، حينما كنت بجانب التليفون . ومع انه كان بوسعى أن أعقد صفقة طيبة

معه ، فقد قلت له أن ليس لمنتجات « كريمو » أن تعول على خدماتي ، إذ زهدت في هذا أيضا يا كريس ، واقسم بالله أن أظل زاهدا ! »

ولم تجب كريستين ، بيد أن ابرها احدثت في الغرفة الساكنة صوتا قويا طربوا . . واضطر اندرو الى أن يبقى الى جانب النافذة طويلا ، ينظر في خجل الى صخب الشارع ، وإلى الاضواء وقد بدأت تتألق ، في تلك الامسية من امسيات الصيف . وحينما استدار أخيرا ، كان الظلام قد لف الغرفة ، بيد أن كريستين ظلت جالسة هناك ، تكاد بجسمها الصغير التحيل الا تبدو في مقعدها .

وفي اثناء الليل ، استيقظ مهموما ، وهو يتصبب عرقا ، واستدار نحوها ، وهو لا يبصرها ، وقد رزح تحت أهوال حلم تراءى له ، فهتف : « أين أنت يا كريس ؟ .. لشد ما أنا آسف . . آسف حقا ! .. سأعمل جاهدا على أن أكون حفيا بك في المستقبل . سرحل في اجازة فور فراغنا من هنا . يا الهى ، لكم أنا منهار الاعصاب . . أنا الذى رميتك بأنك مغلولة الاعصاب ! .. لسوف احرص على أن تكون لك حديقة يا كريس ، عندما نستقر فى مكان ما ، فأننى اعرف أنك تعبدن الحداثق . اذكرين يا كريس . . اذكرين أيام كنا فى (فيل فيو) ؟ »

وفي صباح اليوم التالى ، أحضر لها باقة كبيرة من الاقحوان . . وراح يحاول جاهدا أن يطلعها على مدى حبه لها ، لا بالبذخ الذى كانت تكرمه - فقد كان اندرو لا يزال يرتجف كلما ذكر يوم دعاه للعداء فى بلازا - وإنما بلفتات صغيرة ، وبصنوف الرعاية التى كاد ينساها ! .. ثم أحضر معه - فى

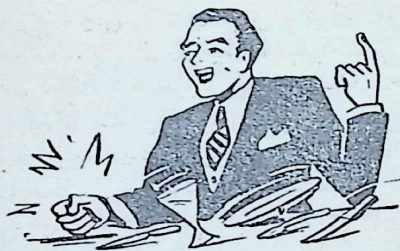
موعد تناول الشاي - كعكة من النوع الذي كانت تحبه ،
 وذهب - دون ما كلمة - فبحث عن نعلها في خزانة الملابس
 - في أقصى الردهة - فأحضرهما لها . واعتدلت كريستين
 في مقعدها مرتبكة ، محتجة في رفق: « لا ، يا حبيبى . لا تفعل
 هذا ، والا تسببت في ايلامى . . انك لن تلبث - بعد ثمانية
 ايام - ان تشد شعرك ، وان تلاحقنى في كل ارجاء البيت . .
 كما كنت تفعل قبلا ! » . فصاح بادی الالم والدهشة : « الا
 ترين ان كل شيء قد تبدل يا كريس ؟ . . سأصلح - منذ
 اليوم - ما أفسدت ! » . فابتسمت وهى تجفف دمعها ،
 وقالت : « حسنا ، حسنا يا عزيزى » . ثم اردفت في حمية
 مباغتة لم يعهدها فيها : « قلما يهمنى هذا ، ما دمنا معا . .
 لست أنشد أن تجرى ورائى ، بل كل ما أرغب فيه هو ألا
 تجرى وراء الاخريات ! »

وفى ذلك المساء ، وصل دينى في موعد العشاء ، كما وعد .
 وكان هرب قد اتصل به تليفونيا من (كمبريدج) ، وسأله
 أن يخبر الزوجين بعدم استطاعته الحضور الى لندن هذا
 المساء . . ومضى دينى يقول ، وهو يحرك رماد غليونه : « لقد
 قال لى أن أعماله تمنعه من الحضور ، ولكنى أعتقد أن
 صديقنا هوب يوشك أن يتخذ لنفسه زوجة ! . . مسألة
 غرامية ! . . محاولة لترويض البكتريولوجى ! » . فسأله
 أندرو متعجلا : « وهل تكلم عن مشروعى ؟ »

- أجل وأعجب به . ولكن هذا ليس بدى بال ، ففى وسعنا
 الاستيلاء عليه ، وحمله معنا . . وانا الآخر معجب بالمشروع ،
 وان كنت لا أتصور كيف نبت مشروع رائع كهذا فى راسك
 المخبول ، سيما فى الوقت الذى حسبت فيه انك قنعت بأن
 تكون بائع ادوية فى الويست اند ! . . قص على كل شيء !
 فشرح له أندرو الامر فى حماس متزايد ، ثم أخذا
 يتدارسان الخطة فى أدق تفاصيلها ، وفطنا فجأة الى مدى

تقدمهما في المشروع ، حينما قال دني : « في رأيي أن لا نختار مدينة كبيرة جدا . . بل ان المدينة المثالية - في رأيي - هي التي لا يبلغ عدد سكانها عشرين ألفا . . ففي مدينة كهذه ، يمكننا أن نسير قدما بالمشروع . انظر الى خريطة (ويست ميدلاند) ، تجد فيها عددا كبيرا من المدن الصناعية ، التي تضم كل منها اربعة أو خمسة أطباء يود كل منهم ان يقطع رقاب الآخرين ، وان ابدى لهم الود . . في تلك المدن يمكننا اعلاء فكرة التعاون بين الاخصائيين . ولن نسعى الى أن نكسب لانفسنا مكانة بالدعاية ، كل ما هنالك اننا سنصل الى هناك . . يا لله ، لكم أتوق الى رؤية رؤوسهم : اعني الدكتور « براون » والدكتور جونز والدكتور روبنسون . سنضطر الى ان نتحمل لعنات كثيرة ، وربما تأمرنا علينا وذبحونا . على انه لا بد لنا بالتأكيد من عيادة مركزية - كما تقول - يكون معمل هوب من ملحقاتها . . وقد يجوز ان نقيم عددا من الاسرة في الطابق الاعلى . . ولن تكون مؤسستنا فخمة في البداية ، بل لنكتف بأن نحول أحد المباني القائمة الى مستوصف ، بدلا من أن نقيم مبنى خاصا . . ولكني أرى اننا لن نلبث ان نرطد اقدامنا ! » .

وابتسم اذ رأى كريستين تتابع حديثهما لامعة العينين : « ما رأيك يا سيدتي ؟ . . هذا جنون ، أليس كذلك ؟ » . فأجابته مبهورة : « بلى ، بيد ان الاشياء الجنوبية هي التي يكون لها وزن عادة ! » . فذكر اندرو المائدة بعنف رج كل ما كان فوقها من أدوات ، وقال : « لقد أصبت والله يا كريس . . أجل ، هذا هو الشيء الذي له وزن . . أن الخطة جميلة ، ولكن المثل الاعلى الذي خلفها أجمل منها ! . . انه تفسير جديد ليمين أبقرات التي يقسمها كل طبيب . . تحقيق صادق للمثل الاعلى العلمي ، دون جشع ، ولا أساليب رخيصة ، ولا تذاكر طبية حاشدة بأسماء الادوية ، ولا ابتزاز



للاتعاب ، ولا احتكار للمرضى ، ولا .. آه ، اعطينانى - بحق السماء - شيئاً أشربه ، فان حبالى الصوتية لا تقوى على المضى ! »

وظلوا يتحادثون حتى الواحدة صباحاً . وكان انفعال اندرو دافقا ، جرف دينى برغم قوة شكيمته وجلده . وكان آخر قطار يقله قد برح منذ وقت طويل ، فنام فى غرفة الضيوف . ووعد - وهو يخرج مهرولاً فى اليوم التالى ، بعد الافطار - بأن يعود فى يوم الجمعة التالى ، وبأن يقابل هوب - فى هذه الاثناء - وبأن يبتاع خريطة كبيرة لويست ميدلند ، كدليل أخير على ابتهاجه . وصاح أندرو بآدى الظفر وهو يعود من الباب ، بعد أن ودع دينى : « ان المشروع يسير سيرا حسناً يا كريس .. ما أشد اغتباط فيليب . انه لم يقل شيئاً كثيراً ، ولكنى أكاد المس شعوره ! »

وفى هذا اليوم عينه ، تلقياً أول عرض لشراء العيادة . إذ تقدم راغب فى الشراء ، فلم يلبث ان تبعه آخرون . وصحب « جيرالد تيرنر » بنفسه أهم المشترين ، فراح يطرى الصفقة بكلمات انيقة ، حتى لقد نوه بهندسة بناء حظيرة السيارات .. وفى يوم الاثنين ، جاء الدكتور « نويل لورى » - وهو الذى

كان تيرنر قد صحبه - مرتين : جاء صباحا وحده ، وعاد مساء وبصحبه « تيرنر » .. وبعد انصرافهما ، اتصل تيرنر بأندرو تليفونيا ، وأسر اليه مبشرا : « ان الدكتور اورى معجب كل الاعجاب يا دكتور ، ويخشى ان نبيع العيادة قبل ان تتمكن زوجته من الحضور لمشاهدتها ، فهى على شاطئ البحر مع ابنائهما . وستعود يوم الاربعاء » .

وكان هذا هو اليوم المحدد لانتقال « مارى » الى (بيلفى) ، فرأى اندرو ان يكل أمر العيادة لتيرنر .. وتم تدبير أمر « مارى » ، فنتقرر أن تبحر المستشفى فى الساعة الثانية . وقد اتفق اندرو مع « مس شارب » على أن تصحبهما فى السيارة . وكان المطر ينهمر حينما يم - فى الساعة الواحدة والنصف - شطر شارع (ويلبيك) ، ليصطحب الممرضة . ووجدها مكفهرة المحيا ، اذ كان قد أخبرها انه سيستفى آخر الشهر عن خدماتها .

ولم يجد عناء - لحسن الحظ - فى المستشفى . فما ان وقفت السيارة أمام مقصورة البواب ، حتى خرجت منها مارى . وسرعان ما كانت داخل السيارة مع « مس شارب » ، وقد التفت ببطانية دافئة ، وتحت قدميها زجاجة ماء ساخن .. وبعد ان قطعوا بعض الطريق ، أسف اندرو اذ اصطحب ممرضته المكتئبة الموسوسة ، وراح يعجب من انه استطاع احتمال رؤيتها كل هذه المدة ! .. ووصلوا الى (بيلفى) فى الساعة الثالثة والنصف ، وقد انقطع المطر ، وتبددت الغيوم ، وتسالت حزم من أشعة الشمس الى الارض .. ومالت مارى الى الالام تجيل البصر - فى انفعال وتوجس - فى هذا المكان الذى جعلوها تعقد عليه أعذب الآمال !

وكان ستلمان فى مكتبه ، فما ان اقتيدت مارى الى سريرها ،

حتى اسرع اليه اندرو ليسأله ان يفحصها معه ، اذ كانت فكرة الجراحة تشغل باله . ودرس الامر معا - وهما يتناولان الشاي - ثم خفا الى غرفة ماري ، فاذا بها على سريرها ، شاحبة - من اثر الرحلة بالسيارة - وقلقة شيئا ما ، تنظر واجفة الى « مس شارب » التي كانت تقف في الطرف الآخر من الغرفة . وعرتها رعشة خفيفة حينما دخل ستلمان الذي فحصها بعناية فائقة ، وكانت طريقته اللطيفة ، الساكنة ، الدقيقة ، الهاما بالنسبة لاندرو .. لم يكن فيه شيء من الطبيب الدعي ، الذي يحاول أن يظهر مدى براعته .. والحق انه لم يكن يشبه الطبيب في عمله ، وانما بدا كرجل اعمال يعالج آلة حسابية اختلت .. كان يستعمل المسدع ، بيد أنه كان يعتمد على يديه - بوجه خاص - فيتحسس الفجوات التي بين الاضلاع ، وما فوق الترقوة ، وكأنه كان يستطيع - عن طريق لمسه الدقيق - أن يعرف حالة الخلايا الرئوية التي تعيش وتنفس تحت يديه !

وعندما فرغ ، لم يقل شيئا لماري ، ولكنه خلا باندرو خلف الباب وقال له : « جراحة ، ما في هذا شك ! .. كانت هذه الرئة خليقة بأن تتداعى من أسابيع . سأجرى العملية على الفور ، فاذهب وقل لها هذا ! » .. وبينما ذهب ستلمان يعد العدة لذلك ، عاد اندرو الى الغرفة ليخبر ماري بقرارهما .. وأنهى اليها النبأ بكل لباقة ، غير أن ضرورة اجراء الجراحة على الفور أزعجتها . فسألته في ألم : « أنت الذي ستجريها ؟ .. اننى أؤثر أن تجريها انت ! »

- لا عليك يا ماري .. انك لن تحسى بشيء ، وساكون حاضرا أساعده وأعمل على أن يسير كل شيء على مايرام ! والواقع انه كان يرجو أن يدع ستلمان يعمل وحده ، ولكنه اذ وجدها على هذه الحال من الانفعال ، وتبين أنها تعول عليه الى حد بعيد ، ذهب الى قاعة الجراحة يعرض على ستلمان

مساعدته ، لاسيما وانه كان - فوق كل شيء - يحس بانه مسئول عن وجود ماري في (بيلفى) .
وبعد عشر دقائق ، كانا على اهبة الاستعداد ، حتى اذا نقلت ماري الى القاعة ، خدوها اندرو تخديرا موضعيا ، ثم وقف بجانب المانومتر ، بينما اخذ ستلمان ينفذ الابرة ، مراقبا نفاذ الازوت المعقم الى غشاء الصدر الباطنى . . وكان الجهاز دقيقا كل الدقة ، وسنلهان من أساتذة هذا الفن بلا مرأ ، وآية ذلك ما أبداه من مهارة في تشغيل الجهاز واجراء العملية بدقة متناهية !

وبعد نوبة عصبية شديدة ، سرى القلق عن ماري ، فهداث شيئا فشيئا ، واستسلمت للجراحة في ثقة متزايدة . وفي النهاية ، ابتسمت لاندر و قد استعادت سكينتها تماما ، حتى اذا أعيدت الى غرفتها ، قالت : « لقد صدقتنى القول ، فانى لم أحس بشيء ، وكأن أحدا لم يفعل بى شيئا ! » . فhez كتفه ، وقال ضاحكا : « حقا ؟ » . على هذا النحو يجب أن تجرى الامور دائما : لا انزعاج ، ولا خوف من أن يقع أى امر رهيب . . ليت جميع العمليات تجرى على هذا النحو ! . . على اننا مع هذا قد أوقفنا حركة رثك ، وهى الآن تستريح . . وثقى من انها عندما تعود الى التنفس ، ستكون قد شفيت ! »

وصوبت اليه نظرها ، ثم أجالته في كل ارجاء الفرفة البديعة ، ثم أرسلته خلال النافذة الى الوادى الذى كان يبدو بعيدا . . وما لبثت ان قالت : « اعتقد انه سيطيب لى المقام هنا كثيرا . . انه لا يبذل جهدا ليكون رقيق الجانب - أقصد مستر ستلمان - بيد ان الانسان يلمس رفته بشعور خفى فى النفس . . ترى هل من الممكن ان اتناول الشاي ؟ »

— ١٩ —

♦ كانت الساعة تقترب من الساعة السابعة حينما غادر أندرو مصبح (بيلفى) . وكان قد مكث هناك اكثر مما قدر ، فقد جلس مع ستلمان - في شرفة الدور الاول - مستمتعا بالهواء المنعش ، وباللهجة الهادئة التى كان زميله يتكلم بها .. حتى اذا استقر فى سيارته عائدا الى داره كان ساكن النفس ، مطمئن البال بنحو خارق .. فقد قسى الصفاء عن سماته ان الذى كان لشخصيته وورصاته وعدم اكترائه بتفاهة الحياة اثر ملطف خفف من توتر أندرو وقلقه .. فضلا عن انه بات مرتاح الخاطر نحو ماري .. وراح يقارن بين القرار الاول - الذى اتخذه متسرعاً - بالحاقها بمستشفى متأخر ، وبين كل ما عمله من اجلها فى ذلك المساء . لقد جشده ذلك عناء ، واقتضاه تدبيرات ممضة ، مخالفة للاوضاع السائدة .. ثم انه لم يفتح ستلمان فى أمر النفقات ، وكان موقنا من ان « كون » لم يكن فى مركز يمكنه من سداد نفقات العلاج فى مؤسسة باهظة التكاليف مثل « بيلفى » ، ومن ثم فقد كان عليه هو ان يدفع قيمة المطالبة . على ان كل هذا تلاشى بجانب الارتياح والابتهاج اللذين أحسهما لبلوغه غايته ، فقد شعر أندرو - لأول مرة منذ شهور - بأنه وصل الى شىء يستحق فى رايه العناء الذى بذل فى سبيله . وانعش هذا روحه المعنوية ، وراى فيه بداية التكفير عما ارتكب !

وراح يقود سيارته ويبدأ ، مستمتعا بتلك الامسية المبهجة .. وكانت الممرضة « شارب » فى المقعد الخلفى ، واجمة لا تنبس ببنت شفة ، فلم يشعر بوجودها وهو مستغرق فى افكاره . بيد انه لم يلبث ان سألها - اذ بلغا لندن - عن وجهتها ، وتوقف كطلبها عند محطة « المترو » فى (نوتنج هيل) .. وسره ان تخلص منها ، فمع انها كانت ممرضة

ماهرة ، الا انها كانت متحفظة ، عبوسا ، لم يقدر لها ان تنسجم معه يوما . ومن ثم فقد قرر ان يرسل اليها مرتبها بالبريد في اليوم التالي ، تجنباً لرؤيتها ثانية !

ومن عجب ان مزاجه انقلب - حينما وصل الى شارع بادنجتون - اذ غشيه الحزن والاسى وهو يهر بجاذبوت أسرهِ فيدلر . وألقى نظرة من طرف عينه على « شركة التجديد ليهند » ، فاذا أحد العمال يفلق الابواب والنوافذ ، فسرت في جسده قشعريرة وهو يتمثل هذا العمل رمزا لما حدث ! . . وبلغ (تشيسبورو تيراس) منقبضا ، فأودع السيارة حظيرتها ، ثم دخل الدار مثقلا بحزن غريب .

وتلقته كريستين في البهو مبتهجة غاية الابتهاج . . كانت على العكس منه ، مفتبطة بالنبا الذي كانت تحمله اليه ، وقد لمعت عينها . قالت في مرح : « لقد بيعت العيادة بكل ما فيها وبالمبنى . . ولقد انتظارك طويلا يا حبيبى ، وانصرفا منذ لحظة . . أعنى الدكتور ومسز لورى . ولقد اضطرب لعدم وجودك كى تحدث زوجته عن العمل ، واضطر الى ان يتولى الحديث بنفسه . ثم قدمت لهما العشاء ، وواصلنا الحديث . وخيل الى أن مسز لورى قد ايقنت انك ولابد قد تعرضت بسيارتك لحادث ما ، فساورنى القلق أنا الاخرى . . ولكن ، ها انتذا يا حبيبى بخير . عليك ان تقابلهما غدا عند مستر تيرنر ، لتوقيع العقد . ثم . . آه ، لقد دفعا عربونا للوكيل ! »

وتبعها الى غرفة الطعام ، وكان العشاء قد رفع عن المائدة . . . ولا مراء فى انه اغتبط لبيع العيادة ، غير انه لم يقو فى تلك اللحظة على اظهار كثير من الابتهاج . بينما مضت كريستين تقول : « لقد تم كل شىء بسرعة ، لحسن الحظ . . اليس كذلك ؟ . . انهما يريدان استلام العيادة فى وقت قريب . آه ! لقد فكرت فى هذا كثيرا قبل مجيئك . هلا قمنا برحلة ،

فقضينا بضعة أيام في (قال اندريه) ، قبل أن نستأنف العمل ؟ .. أتذكر رحلتنا الأولى الى هناك ؟ .. ما كان أحلامنا يا عزيزي ، وكما كنا سعيدين يومئذ ! » .. وتوقفت عن الكلام ، وتأملته متسائلة : « لكن ، ماذا بك يا عزيزي ؟ » . فقال مبتسما ، وهو يجلس : « أوه ! لا شيء ! أنني متعب قليلا دون ريب .. ربما كنت ذلك لأنني لم أتناول غداء ! » . فهتفت مشدوهة : « كيف ؟ .. لقد كنت اعتقد أنك تغديت في بيلفي قبل أن ترحها ! » .. وألقت نظرة على المائدة ، ثم اردفت : « لقد أمرت برفع الطعام ، واذنت لمسز بنيت بالذهاب الى السينما » .. فقال مهرنا : « لا عليك ! »

— بل على . الآن أدرك لماذا لم تقفز فرحا عندما ابلفتك نأبيع العيادة . انتظر دقيقة ، وسأحضر لك شيئا تأكله . أترغب في شيء معين ؟ .. يمكنني تسخين شيء من الخضر ، أو قلى بعض البيض ، أم ماذا ؟

— بيض فيما أحسب يا كريس . أوه ! لكن لا تزعج نفسك ! .. ثم ، لا بأس بقليل من الجبن ، اذا تيسر !

وعادت بعد بضع دقائق ومعها صحفة عليها طبق به بيض مقلى ، وبعض الكرفس في قدح ، وخبز وزبد وبسكويت جاف ، وطبق من الجبن .. ووضعت كل شيء على المائدة . وفيما كان يدني مقعده ، جاءت بزجاجة شراب من « البوفيه » . ثم نظرت اليه بكل حنان ، وهو يتناول طعامه ، وقالت مبتسمة : « أتعرف يا حبيبى ، أنني كثيرا ما فكرت في .. أنا لو كنا قد أقمنا بشوارع (سيفن) في (ايرالو) ، لاكتفيننا بمسكن يتألف من حجرة ومطبخ ! .. ان الحياة المترفة ليست لنا . وما أسعدنى الآن اذ أعود زوجة رجل كادح ! » .. ومضى يأكل البيض ، فأحس بأنه بدأ ينتعش . بينما استطردت كريستين مسندة رأسها الى يديها كما لو فادتها :

— أتعرف يا حبيبى أنني فكرت طويلا منذ بضعة أيام ..

لقد كنت حتى الآن متبلدة العقل ، منطوية على نفسي تماما . ولكن كل شيء أصبح يبدو سهلا ، منذ أن اتحدنا من جديد .. منذ أن عدنا سيرتنا الاولى . ان الشيء الذي يحصل عليه الانسان بالكفاح هو الشيء الوحيد الذي له قيمة ، اما الشيء الذي يهبط عليك من السماء ، فلا يجلب لك أى سرور او ارتياح . هل تذكر ايام (ابرالو) ؟ .. لقد عشتها من جديد ، عشتها حقيقة بالفكر طيلة هذا النهار .. تلك الايام التي كان علينا فيها أن نذل معا صعبا كثيرة ؟ .. سنعيش مرة أخرى تلك الحياة عينها ، فهي الحياة التي تلائمنا يا حبيبي ! .. هكذا نحن ، واني لجد سعيدة بذلك !

ورمقها متسائلا : « أنت حقا سعيدة يا كريس ؟ » . فطبعت على خده قبلة خاطفة ، وقالت : « لم أسعد في أى وقت سعادتي هذه اللحظة ! »

وسادهما صمت ، شغل خلاله بوضع الزبد على قطعة من البسكويت . ثم رفع غطاء وعاء الجبن ليتناول شيئا منه ، ولكن رجاءه خاب ، اذ وجد في الوعاء جبنا جافا مما تستعمله مسز بنيت في الطهو . وما ان لمحتة كريستين حتى عجبت ، ثم راحت تؤنب نفسها : « أوه ، ويحى ! .. لقد سهوت عن الذهاب الى مسز سميث اليوم ! » . فقال أندرو : « لا بأس يا كريس ! » . ولكنها هتفت وهى ترفع الوعاء : « أبدا ! .. أننى أسبح هنا في الاحلام ، كنزيلة « بنسيون » لا تشغل بغير عواطفها ، وليس عندي ما تتعشى به عندما تعود متعبا ! .. اننى ادعك تموت جوعا . ساكون نهم الزوجة لرجل كادح ! .. لا يزال في الوقت متسع لآحضرك بعض الجبن على عجل ، قبل أن تغلق مسز سميث حانوتها ! »

— لا تكلفى نفسك هذا العناء يا كريس !
— أرجوك يا حبيبي .. اننى أصر على هذا ، فانت تعبد جين سميث ، وأنا .. أنا أعيدك !

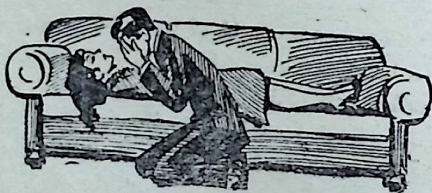
وقبل ان يعود الى المعارضة ، كانت قد خرجت . وسمع وقع قدميها وهى تعدو فى الردهة ، ثم صوت باب الشارع يغلق فى رفق . وأومضت عيناه بابتسامة خفيفة ، فقد كان ما فعلته كريستين من أصيل خصالها حقاً ! .. ووضع قدرا من الزبد على قطعة أخرى من البسكويت ، فى انتظار الجبن المرموق ، وفى انتظار عودة زوجته .. وكانت الدار ساكنة تماما ، اذ ان فلورين كانت نائمة فى القبو ، ومسز بنيت فى السينما . وشعر أندرو بأنه مسرور لبقاء مسز بنيت معهم فى حياتهما الجديدة .. وسرحت به الافكار : لقد كان ستلمان رائعا فى هذا المساء ، ولن تلبث مارى ان تبرا تماما .. والجو بديع ، اذ ان المطر قد انقطع قرب آخر النهار .. ولقد كانت عودته عبر الريف المنعش متعة حقيقية .. ثم ، شكرا لله ، فسوف تحظى كريستين بحديقة خاصة مرة أخرى .. ولسوف يصادف هو ودينى وهوب نجاحا فى (مدلناون) قد يتير عليهم ثائرة الاطباء الخمسة الآخرين ، الذين يعملون بها ، فيقتلونهم .. ولكن كريستين ستحظى - برغم هذا - بحديقتها المنشودة !

وأخذ يأكل - وهو شارد الذهن - بسكويتا بالزبد .. لتبطيء كريستين ماشاءت ، فقد سد رمقه . لا بد أنها تثرثر مع مسز سميث .. ان هذه العجوز الطيبة هى التى أرسلت اليه أول مريض . لو أنه فقط مضى فى الطريق السوى ، بدلا من ... على أنه قد اصلح من أمره أخيرا ، والحمد لله ! .. لقد عادا - هو وكريستين - فتقاربا ، وحظيا بالسعادة كما لم يحظيا بها فى أى وقت .. ما كان اعتدب ان سمعها تقول هذا منذ لحظة !

وأشعل سيجارة .. وفجأة ، دوى جرس الباب الخارجى برنين شديد ، فرفع عينيه ، ووضع سيجارته جانبا ، وذهب

الى الردهة .. وقبل أن يبلغها ، دق الجرس مرة اخرى .
 وفتح الباب ، فألقى هرجا ومرجا شديدين .. كان على
 الافريز حشد من الناس .. وجوه ورءوس اختلطت في
 الظلام ، على نحو مبهم .. وقبل أن يستبين جلية الامر ، ظهر
 امامه الشرطى الذى دق الجرس . انه « ستروتزرز » ،
 مواطنه وصديقه القديم ، الذى ينظم حركة المرور . وبهت
 اندرو لمنظره ، فقد بذت عيناه جاحظتين ، وهو يقول ، وقد
 تهدجت أنفاسه ، كأنه عدا طويلا : « لقد وقع مسز مانسون
 حادث يا دكتور .. كانت تندفع .. آه ، يا الهى ! .. وهى
 تبرح الحانوت .. فسقطت امام اتوبيس مباشرة ! »

وانقبض قلب اندرو انقباضا شديدا .. وقبل أن يتمكن
 من ان يفوه بكلمة ، باغته الجميع وامتلأ بهم بهو الدار .. وكانت
 مسز سميث تتحب .. وكان هناك سائق الحافلة ، وشرطى
 آخر ، وأناس غرباء ، يتناكبون جميعا ويدفعونه امامهم حتى
 مكتبه . وفى وسط الجمع ، كان جسم كريستين الحبيبة ، يحمله
 رجلان ، وقد مال رأسها الى خلف ، وبدت الرقبة الرقيقة
 بيضاء كل البياض .. ومن اصابع يدها اليسرى ، كانت اللفافة
 التى ابتاعتها من حانوت مسز سميث لا تزال تتدلى ..
 وأرقدوها فوق أريكة مكتب الاستشارات .. كانت جثة هامدة !



— ٢٠ —

♦ **انهار** أندرو تماما ، وظل أياما كثيرة فاقد الوعي ، إلا في فترات صحو كان يفتن فيها الى وجود مسز بنيت ودينى .. وتعرف على هامبتون مرة أو مرتين .. بيد أنه كان - في أغلب الوقت - يؤدى مطالب الحياة التى لا غنى عنها ، بصورة آلية ، مستغرقا بكل كيانه فى كابوس طويل من اليأس . وكان جهازه العصبى المنهار يحدد آلام هذا الخطب بأن راح يبعث امامه برؤى الموت ، ويشير ضميره ليخزه وخزا كان يقض عليه نومه ، فيستيقظ متصببا عرقا ، مرسلا صيحات مريرة .. ولم يع - الا بادراك مبهم - التحقيق الذى أجبرى ، وسخف الاجراءات البوليسية والقضائية ، وشهادة الشهود التى لم تكن ذات نفع .. ولقد راح يحملق فى وجه مسز سميث العريض ، تبلله العبرات دون انقطاع ، وهى تقول : «لقد كانت تضحك طيلة الرقت الذى أنفقتة فى حانوتى . وكانت تردد : أسرعى ، ارجؤك ، فان زوجى ينتظرنى ! »

وحينها سمع الضابط القضائى يعرب عن عطفه على الدكتور مانسون لمصابه الأليم ، أدرك أن الامر قد انتهى ، فنهض بنحو آلى ، وألقى نفسه سائرا مع دينى على افرين رمادى !

ولم يدر كيف دبرت اجراءات الجنازة ، فقد تمت كلها بطريقة غامضة ، لم يدر عنها شيئا . وعندما اتجه بسيارته نحو (كينسال جرين) ، ارتد فكره مستعرضا ما فات من الزمن .. حتى اذا صار بين القبور ، ذكر المنبسطات الشاسعة التى كانت الريح تعصف فيها ، خلف (فيل فيو) - فى أيرالو - حيث كانت الجياد الصغيرة ترتع هازة اعرافها الشعاء ! .. لكم كانت كريستين تحب التريض هناك ،

مستروحة النسمات تداعب خديها .. وها هي ذى ترقد في هذا المكان الموحش البشع !

وحاول أندرو في ذلك المساء - وقد نالت منه حالته النفسية كل منال - ان يهدىء من انفعالاته باحتساء الخمر ، ولكن الويسكى لم يزد الا سخطا على نفسه ، فظل يروح ويجيء في مكتبه حتى ساعة متأخرة من الليل ، مغمما بصوت مرتفع ، مخاطبا نفسه في لهجة الخمر : « لعلك حسبت أنك ستنجو ، وخلت أنك مفلت من الماضي .. لا وحق السماء ، ان تستطيع ! .. جريمة وعقاب ! .. جريمة وعقاب ! .. أنت مسئول عما حدث لها ، فعليك أن تشقى ! » . وانطلق في الشارع بطوله ، يسير مترنحا حاسر الرأس ، يحملق بعينين زائفتى النظرات ، في مصاريع حانوت « فيدلر » المغلقة . ثم عاد يغمغم من خلال دموعه متبلدا : « لاسبيل الى التفرير بالله .. لقد قالت لى كريس ذات يوم هذا : ان الله لا يخدع يا صديقى ! »

وصعد السلم خائر القوى .. وبعد لاي ، دلف الى مخدع زوجه البارد المهجور الموحش .. كانت حقيبة يدها فوق منضدة الزينة . فتناولها وضمها الى خده ، ثم فتحها وراح يتحسس كل ما كان فيها : بضع قطع نقود فضية وبرونزية ، ومنديل صغير ، وايصال بثمن مواد البدالة .. ووجد في الجيب الاوسط بعض الاوراق ، وصورة قديمة له التقطت في (بلينيللى) و ... اجل ، لقد تعرف عليها وقلبه يخفق .. تلك الكلمات انتى وصلته - في عيد الميلاد - من مرضاه في (ابرالو) : « مع الشكرات القلبية » .. لقد احتفظت كريستين بها منذ اعوام ! .. واختنقت في صدره الصبرات الباكية ، وسقط جاثيا على ركبتيه امام المضجع ، وانفجر في انتحاب مرير !

ولم يحاول دينى صده عن الخمر .. وخيل الى أندرو ان

صديقه لم يكن يبرح الدار ، لا من اجل العيادة - فان الدكتور لورى اصبح يتولى امرها ، واخذ يحضر ليتفقد قائمة الزيارات التى يجب ان تؤدى ، ولاعطاء استشارات لرواد العيادة ، برغم انه كان يقيم فى حى آخر - ولم يكن أندرو يعرف شيئا - أى شىء - عما كان يجرى ، ولا كان راغبا فى أن يعرف ، بل انه راح يتحاشى « لورى » ، اذ ان اعصابه كانت متوترة الى أقصى حد . وبات رنين جرس الباب يضاعف ضربات قلبه بنحو مزعج ، كما أن مجرد سماعه أية خطوات - على غير توقع - كان يثير ذعره ، حتى لتندى راحته عرقا . وأصبح يمكث فى غرفته وبين أصابعه مندبل ملفوف على شكل كره ، يجفف به - من حين لآخر - عرق يديه ، محذقا فى المدفأة ، موقنا من انه مضطر - اذا ما جن الليل - الى أن يواجه شبح الارق !

تلك كانت الحال التى الفاه عليها دينى فى غرفته ذات صباح ، فاقبل عليه قائلا : « انى اصبحت حرا والحمد لله ، وبوسعنا ان نرحل الآن ! » . ولم يدر بخلد أندرو أن يرفض ، اذ كان قد فقد كل قدرة على المقاومة . . بل انه لم يسأل الى أين كانا راحلين ، بل أخذ يحملق - فى تبدل وسكون - فى دينى وهو يعد له حقيبتيه . وبعد ساعة كانا فى طريقهما الى محطة (بادنجتون) .

وقضيا فترة ما بعد الظهر كلها ، فى قطار انطلق بهما عبر اقاليم الجنوب الغربى ، ثم بدلاه فى (نيو بورت) ، فاستقلا قطار (مونموث) الذى اقلهما الى (ايرجافينى) ، حيث نزلا . واستأجر دينى سيارة حملتهما عبر شوارع المدينة ، ثم اجتازت بهما نهر (أوسيك) ، موغلة فى الريف الذى بسط عليه الخريف ألوانه الخلابه . وقال دينى اذ ذاك : « هذه بقعة

كنت أجيء إليها للصيد .. ان دير « لانتوني » هو فيما اعتقد المكان الذي يلائمنا !»
وبلغا وجهتهما في الساعة السادسة ، فدلغا خلال طرق حفت بأشجار البندق . وكانت اطلال الدير تشغل مكانا في وسط أرض مربعة ، تكسوها اعشاب قصيرة : احجار رمادية منحوتة ، وبضعة من أقواس واقبية الدير ، وبجانبها بيت للضيافة بنى باكملة بالاحجار التي سقطت من مبنى الدير . وعلى مسافة قريبة من هذا البيت ، كان ثمة جدول ينساب في خرير عذب !

وفي صباح اليوم التالي ، اصطحب ديني « اندرو » الى نزهة في الخلاء .. وكان الجو جافا منعشا ، ولكن اندرو كان قد قضى ليلته مؤرقا ، فسرعان ما خارت قوته عند أول شاطئ ، وبدا - بعد قليل - راغبا في العودة ، غير ان صديقه قاوم هذه الرغبة ، والح عليه بمواصلة السير ، فجعله يقطع - في هذا اليوم الأول - ثمانية أميال .. ثم عشرة في اليوم التالي .. وفي نهاية الاسبوع كانا يقطعان عشرين ميلا في كل يوم . وكان اندرو يعود الى غرفته خائر القوى ، فيتهالك لفوره على سريريه وينام !.. ولم يكن يزعه في الدير أحد ، اذ لم يبق في الجيرة سوى نفر قليل من الصيادين ، فقد كان موسم الصيد يقترب من نهايته !.. وكانا يتناولان وجباتهما في قاعة الطعام الفسيحة ، المكسوة الارض بالاحجار ، وقد جلسا الى مائدة طويلة من البلوط ، امام مدفأة مزودة بالوقود .. اما الطعام فكان بسيطا ، جيدا .

وكانا يتكلمان لماا أثناء نزهاتهما . وكثيرا ما سارا نهارا بكامله دون ان يتبادلا اكثر من بضع كلمات . ونه يكن اندرو يعبر المناظر التي يمران بها أى التفات - في بادىء الامر - بيد أنه لم يلبث أن أخذ يتذوق - على ما كان به من وهن الشعور - جمال الغابات والقنوات والروابي التي كانت الزهور

البرية تكسو منحدراتها !.. ولم يكن يتمائل نحو الحالة الطبيعية بسرعة خارقة ، على انه أصبح - قرب نهاية الشهر الاول - قادرا على ان يحتمل مشقة نزهاتهما الطويلة ، وان يأكل وينام ويستحم بالماء البارد في كل صباح - كما لو ف عادته - وان يواجه المستقبل بدون وجل .. وادرك ان هذه البقعة النائية هي خير بقعة كان يمكن اختيارها لشفائه ، وان هذا النظام الغذائي الرهباني كان أكثر نظم التغذية نفعا له ! وعندما أقبلت أولى موجات البرد الشديدة، احسن لها دمه بمتعة سائفة .. وبدا اندرو يتكلم مع « دينى » . وكانت موضوعات أحاديثهما اول الامر تافهة . فقد كان عقله اشبه بمصارع يقوم بتدريبات بسيطة ، قبل أن ينهمك في تمرينات اعنف . فآخذ يتحفز في حذر لمواجهة الحياة من جديد . بيد انه استطاع ان يقف من « دينى » على سير الاحداث : لقد بيعت عيادته للدكتور لورى ، لا بكامل المبلغ الذى حدده تيرنر - اذ لم يستطع اندرو بسبب ظروفه تقديم خلفه لمرضى العيادة - وانما بمبلغ يقرب منه كثيرا . وقد اتم هوب أخيرا دراساته ، واستقر فى داره ببرمنجهام ، كما أصبح دينى حرا، اذ كان قد استقال من منصبه قبل أن يجرى الى دير «لانتونى» . وكانت النتيجة من الوضوح بحيث رفع اندرو فجأة رأسه ، وقال : « يجب أن استرد قدرتى على العمل فى أول العام ! » ومنذ ذلك اليوم ، أخذ يتكلمان جديا فى مشروعهما .. وبعد ثمانية أيام كانت سحنته الجافة المتبلدة قد تلاشت .. وشعر بأن من الغريب والمحزن أن يكون العقل البشرى قادرا على البرء من صدمة قاتلة ، كتلك التى أصابته . على انه لم يكن يملك شيئا ازاء الواقع .. كان يبرا فعلا .. ولقد كان يمضى من قبل فى تفاؤل وزهد ، كأنه آلة . أما الآن ، فقد أصبح يستشيق نسيم الحياة فى قوة حقيقية ، ويضرب الزهور البرية بعصاه ، ويتواهى امر رسائله بنفسه ، ويتنهم

عندما لا يحمل له البريد « الجريدة الطبية » . . وفي المساء ، كان يعكف مع ديني على خريطة كبيرة ، وقد استعانا بدليل ، ووضعنا قائمة بالمدن اخذا يراجعناها حتى حصرا اختيارهما في ثماني مدن : اثنتان منها في مقاطعة (ستافورد) ، وثلاث في (وارويك) .

وسافر ديني في يوم الاثنين التالي ، فظل اسبوعا متغيبا . . وفي هذه الايام السبعة ، عاودت اندرو - على حين غرة - رغبته القديمة في أن يمارس عملا شخصيا حقيقيا ، عملا يمكنه ممارسته مع هرب ودينى . . ونفذ صبره تماما ، فذهب عصر يوم السبت - سيرا على قدميه - الى (ابرجافنى) ينتظر آخر قطار قبل العطلة الاسبوعية . وعاد وقد خاب امله إذ لم يعد « دينى » من رحلته . . وعانى ليلتين ويوما أخرى في هذا الانتظار ، ثم فوجيء بسيارة صغيرة داكنة من طراز « فورد » ، واقفة امام الباب - وكان عائدا من نزهته - فرلج الدار يعدو ، ولمح - في قاعة الطعام - ديني وهوب يتناولان الشاي مع بيض بالجامبون ، وكريمة ، وسمك محفوظ ! وكان بيت الضيافة قد خلا - في آخر ذلك الاسبوع - لهم وحدهم ، فمهد فيليب ديني للحديث الجاد أروع تهديد ، بتقرير القاه أثناء هذا العشاء الفاخر . وكان وقع قطرات المطر والجليد على النوافذ يبعث طرقات منتظمة ، إذ أن الطقس كان قد برد دون شك ، ولكن هذا لم يشغل المجتمعين البتة ، فراحوا يتكلمون في شؤونهم . . كانت مدينتان من المدن التي زارها ديني - وهما (فرانتون) و (ستاندبورو) - تربة خصبة للتقدم الطبى ، على حد تعبير « هوب » ، إذ كانتا من المراكز نصف الزراعية ، وقد نشأت فيهما حديثا صناعة جديدة . . فقد أقيم أخيرا - في (ستاندبورو) - مصنع لانتاج « شاسيهات » السيارات ، كما أقيم في (فرانتون) مصنع لسكر البنجر . فأخذت الدور تنشا في أطراف

المدينيتين ، والسكان يتزايدون . بيد أن الخدمات الطبية في كل منهما لم تكن تسيطر الوضع الجديد ، فلم يكن في (قرانتون) سوى مستشفى صغير ، ولم يكن في (ستاندبورو) شيء على الاطلاق ، فكان المرضى يرسلون - في الحالات العاجلة - الى (كوفنتري) على مسافة خمسة عشر ميلا ! وكانت هذه المعلومات كافية لان ينطلقوا ككلاب الصيد صوب هدفهم . على ان ديني كان لديه مدن أخرى ادعى الى التشجيع . واطلع صاحبيه على رسم لستاندبورو ، كان قد انتزعه من دليل ليدلاند وقال : « يوسفنى أن أقول اننى سرقت من فندق ستاندبورو ، ويبدو لى أننا قد بدأنا فى هذه المدينة بداية حسنة ! » . فقال هوب نافذ الصبر ، بعد ان كان مازحا : « قل لى سريعا ، ما هذه العلامة ؟ » .



وقال ديني حينما أمالوا رؤوسهم الثلاثة الى الرسم : « ان هذا هو ميدان السوق .. وهم لسبب ما ، يسمونه هناك « الدائرة » . انه فى وسط المدينة تماما ، فوق المرتفع ، فى موقع بديع . انتما تعرفان هذا : صف من الدور والخوانيت والمكاتب ، النصف مخصص للمساكن ، والنصف متاجر .. كلها اقيمت من زمن طويل ، ويغلب عليها جميعا الطابع الجورجى ، بنوافذه الواطئة وابوابه الصغيرة .. وأبرز ادعياء الطب هناك رجل بدين بساذج ، وقد رأيتته .. انه احمر الوجه ،

كثيف اللحية ، يستخدم عند الاقتضاء اثنين من المساعدين ، ويقطن في الدائرة ! » . واستطرد ديني وهو يتكلم بلهجة ساخرة بعض الشيء : « وفي الجانب الآخر تماما ، في مواجهة نافورة صغيرة ، بديعة ، من الجرانيت - وسط « الدائرة » - توجد داران خاليتان بهما حجرات واسعة ، وارضياتهما في حالة جيدة ، وواجهاتهما جميلة . . وهما معروضتان للبيع . ويبدو لى . . » فصاح هوب وهو يحبس أنفاسه : « أما عنى ، فاني أقول في غير تردد ، أنه لا يروقى أكثر من معمل صغير ، في مواجهة هذه النافورة ! »

ومضوا يتحدثون ، فقدم ديني تفصيلات أخرى تثير الاهتمام . وخلص الى القول : « لا شك اننا سنرتبك كثيرا . . لقد تحققت فكرتنا على خير وجه في مدن أمريكا الكبرى ، بفضل انشاء منظمات دقيقة ، ورؤوس أموال ضخمة . أما نحن هنا - في ستاندبورو - فليس لدينا مدخرات كبيرة . . » فقال هوب وهو ينهض متثابرا : « ليساعدنا الله ايها الزميلان الحميمان ! »

وتقدموا يوم الاحد خطوة أخرى في مشروعهما ، بأن قرروا أن يمر « هوب » في عودته - يوم الاثنين - بستاندبورو ، ثم يلحق به ديني واندرو في يوم الاربعاء ، ويلتقيان به في الفندق ، على أن يتقضى أحدهم الامر سرا ، من سمسار الايجارات في المدينة . . وفعلا سافر هوب في صباح اليوم التالى . وكان لديه عمل كثير يشغله سحابة نهاره . فانطلق بسيارته « الفورد » قبل أن يفرغ صاحبه من تناول افطارهما . وكانت السماء ملبدة بالغيوم ، غير أن الريح كانت تنبئ بجو صحو مشرق . . وخرج اندرو وحده لمدة ساعة . . كان من الجميل أن يهود

فيحس بأنه متأهب للعمل ، وبأن لديه ما يفعله ، وعلى الأخص في تنظيم مشروع العيادة الشائق هذا . لم يكن قد أدرك بعد كل ما يمثلها هذا المشروع بالنسبة له .. حتى في هذه اللحظة التي أوشك فيها المشروع أن يتحقق !

وحينما عاد في الحادية عشرة ، كان البريد قد وصل ، فإذا به يضم عدة خطابات حرت إليه من لندن . وجلس إلى المائدة سعيدا بفكرة فضها وقراءتها ، بينما كان ديني يطالع صحيفة صباحية ، بالقرب من المدفأة .. وكان أول خطاب فضه من ماري بولاند ، وقد كتب بخط صغير ، وملاً صفحات كاملة .. وأشرق وجهه حتى لقد ابتسم . فلقد بدأت ماري بالاعراب له عن ودها له ، مؤملة أن يكون قد شفى تماما . ثم تحدثت باختصار عن نفسها ، قائلة أنها قد تحسنت كثيرا ، وقد أوشكت أن تستعيد صحتها تماما ، فأصبحت حرارتها - منذ خمسة أسابيع - عادية ، وأصبحت تستيقظ وتقوم ببعض التمرينات الرياضية باطراد مستمر يوما بعد يوم .. ونقد سمت حتى باتت تخشى أن لا يعرفها . ثم سألتها عما إذا كان سيحضر لرؤيتها ، وذكرت أن مستر ستلمان قد سافر إلى أمريكا لبضعة أشهر تاركا مساعده - مستر مارلند - ليحل محله .. واختتمت رسالتها بأنها لم تكن تدري كيف تشكر له أن أدخلها هذا المصح .. (يلفى) .

ووضع أندرو الخطاب جانبا ، وهو مشرق الوجه لفكرة شفاء ماري . ثم نحى عنه عددا من النشرات والاعلانات ، وتناول الخطاب التالي . وكان في غلاف من الحجم الكبير ، يدل مظهره على أنه خطاب رسمي ، ففضه وأخرج منه ورقة سميقة .. وسرعان ما farkته الابتسامة ، ونظر إلى الخطاب غير مصدق ، ثم شحب وجهه شحوب الموتى .. وظل دقيقة ممضعة بدون حراك ، مركزا نظره على الورقة !

وتتم أخيرا ، في صوت خفيض : « ديني ! .. انظر هذا ! »

- ٢١ -

♦ عندما غادرت مس شارب سيارة اندرو - في محطة (نوتنج هيل) - قبل شهرين ، استقلت الممرضة « المترو » الى ميدان (اكسفورد) ، ثم يمت - سيرا على قدميها - شطر شارع (الملكة آن) . وكانت على اتفاق مع صديقتها « ترنت » - الممرضة التي تعمل عند الدكتور هامبتون - على أن تقضيا السهرة في مسرح الملكة ، حيث يمثل لويس سافورى - فنانها المفضل - في مسرحية « الدوقة تعلن عن نفسها » .. ولما كانت الساعة تشير الى الثامنة والرابع ، والتمثيل يبدأ في التاسعة الا ربعا ، فلم يكن لدى مس شارب من الوقت الا ما يلزم للمرور على صديقتها واصطحابها ، لتصلا الى المسرح في الموعد .

وامتعضت وهي تستعيد في ذاكرتها حوادث النهار ، وغلى الدم في عروقها غضبا للاهانة التي لحقتها . فصعدت قفزا سلم المنزل رقم ١٧ - حيث عيادة هامبتون - ودقت الجرس .. وفتحت لها مس ترنت الباب وتلقته عاتبة ، ولكن صديقتها شددت على ذراعها ، ثم قالت في سخط : « اكم انا آسفة يا عزيزتى ! ياله من نهار قضيته ! .. سأشرح لك هذا فيما بعد . دعيني فقط ادخل لاضع أشيائى ، ثم نسرع الى المسرح حتى نصل في الميعاد ! » ..

وبينما كانت الممرضتان معا في الردهة ، هبط « هامبتون » السلم انيقا في بذلة السهرة ، فتوقف حين رآهما ، اذ ان فريدى لم يكن يضيع فرصة لابتداء فتنته ، بل كان يحصر أشد الحرص على أن يحبه الجميع ، وعلى أن يظفر من اعجاب الناس بكل ما يستطيع ! .. وقال في مرح ، وهو يتناول سيجارة من علته الذهبية : « هالو ، مس شارب . يبدو أنك متعبة ! .. ولماذا أنتما متأخرتان ؟ الم تقل لى مس ترنت انكما

تعزّمان مشاهدة تمثيلية هذا المساء ؟ » . فأجابته مس
شارب : « أجل يا دكتور ، غير أنى تأخرت الى جانب مريضة
من مرضى الدكتور مانسون » . فهتف فريدى : « آه ؟ ! »
وكان الاستفهام واضحا فى لهجته ، فكان هذا كافيا بالنسبة
للمريضة التى استولى عليها الشعور بأنها فريضة جور وحيف ،
والتي كانت تفيض أندرو بقدر ما كانت تعجب بهامبتون ..
فاندفعت فجأة ، غير متمالكة نفسها ، وقالت : « لم ار
يا دكتور فى حياتى شيئا كهذا .. يأخذ مريضة من مستشفى
« فيكتوريا » ويذهب بها خفية الى هذا (البيلفى) ، ويجعلنى
انتظر هناك ساعات بينما كان يجرى جراحة بالاشتراك مع
شخص غير مؤهل اطلاقا ! »

وراحت تروى قصة ماجرى فى أصيل ذلك اليوم ، وهى
تحبس بعناء ما كان الغضب يدفعه الى عينيها من دموع ،
حتى اذا فرغت ، ساد الصمت ، وبدا وجه فريدى غريبا .
وقال أخيرا : « هذا بغيض حقا . على اننى ارجو الا تفوتكما
التمثيلية . اسمعى ياترن ، استقلا سيارة اجرة على نفقتى ،
وقيدى الاجرة فى قائمة مصروفاتك ! .. والآن اسمحالى ،
يجب أن اذهب » . فقالت مس شارب وهى تلاحقه بنظرة
ملؤها الاعجاب : « يا له من رجل رقيق الحاشية . هلمى
نستقل السيارة يا عزيزتى ! »

واتخذ فريدى طريقه الى النادى وهو بادى التفكير . فمئذ
ان اشتبك مع أندرو ، تخلى عن زهوه - تحت حكم الظروف -
وزاد علاقته بفريدمان وايفورى توثقا واحكاما ، فتعشى ثلاثتهم
معا فى ذلك المساء . وفى أثناء العشاء قال ، راغبا فى تسليية
رقيقة واصلاح ما بينه وبينهما ، اكثر منه سىء النية : « يبدو
لى ان مانسون منذ فارقنا يقوم ببعض حيل السمسة ،
فقد بلفنى انه يجلب مرضى لهذا المستشفى » . فهتف ايفورى
وهو يضع شوكتة : « ماذا ؟ » . فقال هامبتون وهو يؤول

القصة وفق هواه : « بل انه يتعاون معه ، على ما فهمت ! » .
وهنا سألته ايفورى في خشونة مباغتة : « أصحيح هذا ؟ »
فقال فريدى بلهجة المغيظ : « لقد عرفت هذا من ممرضته ،
اذ قالت له منذ نصف ساعة ! »

وساد الصمت برهة مضى ايفورى يأكل خلالها ، وهو منكس
البصر . بيد أن هدوءه الظاهري كان يخفى حنقا شديدا ،
اذ انه لم يفتقر قط لمانسون عبارته الاخيرة اثر جراحة
فيدلر . ومع أنه لم يكن مرهف الحس ، الا انه اوتى صلف
الرجل الذى يدرك عجزه وقصوره فيحاول ان يخفيهما في
حماس وغيرة .. كان يعرف بينه وبين نفسه أنه جراح غير
كفاء ، ولكن أحدا لم يقل له ذلك من قبل ، بمثل هذا العنف
الجراح الذى بدر من مانسون ، ومن ثم فقد أصبح يكره
مانسون لانه قال له هذه الحقيقة المؤلمة ! .. وكان صاحبا
يتحادثان معا منذ برهة ، حينما رفع رأسه ، وسأل : « ممرضة
مانسون هذه .. أيمكنك الحصول على عنوانها ؟ » . فكف
فريدى عن الكلام مع فريدمان ، وتطلع اليه قائلا : « طبعا » .
فمضى ايفورى يقول فى برود : « يبدو انه لابد من عمل شيء
فى هذا الامر . الحق يا فريدى اننى لم أهضم - فى أى
وقت - صديقك مانسون ، ولكن هذه ليست المسألة . اننى
انظر الى الناحية الخلقية فحسب .. لقد كلمنى جادسبى
عن ستلمان هذا ، فى سياق حديث له معى أخيرا ، اذ كنا
مدعويين العشاء فى « مايفلاي » . وكانت الصحف قد بدأت
تحدث عنه .. أقصد عن هذا الستلمان ، فنشر غيبى جاهل
من رجال الصحافة قائمة بحالات الشفاء التى حققها ستلمان
هذا .. حالات أخفق فيها الاطباء . وانتما تعرفان اساليب
الدعاية المستترة .. ولقد غضب جادسبى من هذا الامر ،
واعتقد أن « كرانستون » - الذى يؤازر ستلمان - كان من
مرضى جادسبى ، ثم تركه الى هذا المهرج . ترى ماذا يحدث

لو أنه وجد بين زملائنا من يناصرون هذا الدخيل البشع ؟ ..
بالشيطان ! اننى كلما فكرت فى هذا ازددت استياء ..
سأتصل على الفور بجادسبى .. أيها الساقى ، سل - من
فضلك - ان كان الدكتور جادسبى فى النادى ، فاذا لم يكن
هناك ، فقل لموظف الاستعلامات أن يتصل تليفونيا بداره
لمعرفة ما اذا كان هناك ! »

وأحسن هامبتون بشيء من الضيق يخالف ما طبع عليه .
فهو لم يكن يضر ضغينة أو سوء قصد لاندرو الذى أحبه
دائما على طريقته السطحية الانانية . فغمغم : « لا تقحماني
فى هذه المسألة ! » . ولكن ايفورى صاح به : « كف عن
الحماسة يا فريدى ! .. انسمح راضين لهذا السيد أن يجلسنا
بالوحد ؟ » .. وما لبث الساقى ان عاد قائلا ان الدكتور
جادسبى كان فى داره ، وانه لم يكن مرتبطا بشيء فى ذلك
المساء .. فذهب ايفورى لمقابلته . ومع انهما لم يكونا صديقين
- بما لهذه الكلمة من معنى - الا أنهما كانا على صلات طيبة
ضممت الطبيب الشهير على أن يقدم لضييفه خير نييذه
وسيجارا فاحرا . وسواء كان الدكتور جادسبى على علم
بسمعة ايفورى او لم يكن ، فانه كان يعرف مركز ذلك
الجراح فى الاوساط الاجتماعية ، مما كان يحدو بموريس
جادسبى الى أن يعامله كزميل و ند له .

واذ شرح ايفورى الغرض من زيارته ، لم يحاول جادسبى
اخفاء اهتمامه . فمال الى الامام ، وراح يتحدث بهينيه
الصغيرتين فى ايفورى ، مصفيا الى القصة فى انتباه .. حتى
اذا انتهت صاح فى استياء غير مألوف : « بالشيطان ! » .
ثم أردف قائلا : « اننى أعرف مانسون هذا ، فقد مكث عندنا
بعض الوقت فى مجلس العمل . وأؤكد لك انه سرنا كثيرا ان

نتخلص منه . انه بخيل حقيقى ، لم يؤت من الذوق ما اوتيه
 اى ساع من سعاة المكاتب . . . وها انتذا تروى لى انه انتزع
 مريضة من « فيكتوريا » وارسلها الى ستلمان ! . . لابد انها
 كانت احدى مريضات الدكتور ثوروجود ، وسنرى ما يقوله
 ثوروجود فى هذا الصدد ! »

وهنا قال ايفورى : « الانكى من هذا انه ساعد ستلمان فى
 الجراحة فعلا ! » . فقال جادسبى فى حذر : « اذا صح هذا ،
 فان الامر يفند من اختصاص المجلس العام للاطباء ! » .
 فتظاهر ايفورى بالتردد ، ثم قال : « لقد كان هذا رأى
 تماما ، ولكنى تراجعته . فانت تدرك اننى كنت اكثر منك
 صلة بهذا الفتى لفترة من الزمن ، فلم استسغ ان اتقدم
 بالشكوى شخصيا » . ولكن جادسبى قال بلهجة حاسمة :
 « ساتولى انا الامر . واذا تأيد ماقلت لى ، فسأتقدم بالشكوى
 شخصيا ، فان تقاعسى عن العمل فورا ، اخلال بالواجب فى
 رأى . . ان الامر حيوى يا ايفورى ، فان خطر هذا الستلمان
 على مهنتنا اكثر من خطره على الجمهور . واظننى قلت لك
 من قبل - ونحن نتعشى معا فى ذلك المساء - ما أعرفه عنه .
 انه يهدد كياننا ، علمنا ، تقاليدنا . . يهدد كل ما نمثل .
 ولن يحمينا سوى حكم يصدر باقصائه عن البلاد ، واذا ذلك
 يبنى بكارثة ، لعدم حصوله على المؤهل العلمى المطلوب . ثم
 انتبه لهذا جيدا يا ايفورى ، لقد احتفظنا لمهنتنا - والله
 الحمد - بحق توقيع شهادات الوفاة . فاذا استطاع هذا
 الشخص او غيره - ممن هم على شاكلته - ان يكفل لنفسه
 تعاون افراد من المهنة معه ، فعلينا العفاء . . ومن حسن
 الحظ أن المجلس العام للاطباء يقضى دائما بأقصى العقوبة فى
 مثل هذه الحالات . أتذكر قضية « جارفيز » ، ذلك المجرى
 الذى وجد قبل بضعة اعوام طبيا منحطا يمارس التخدير
 لمرضاه ؟ . . لقد حذف اسم ذلك الطبيب من قائمة الاطباء فى

الحال . اننى كلما فكرت فى هذا المهرج ستلمان ، ازدادت تصميميما على ان اجعل من هذه المسألة رادعا . فاسمح لى بان اتصل تليفونيا بشوروجود ، ثم استجوب تلك الممرضة غدا ! » ونهض فاتصل بالدكتور ثوروجود تليفونيا . حتى اذا كان الغد ، استمع بحضوره الى اقوال مس شارب ، وحصل منها على اقرار وقعته باسمها . . وكانت شهادتها قاطعة الى حد انه اتصل على الفور بمحاميه السيدين « بون » و « ايفرتون » فى ميدان (بلومسبرى) . . ولقد كان يكره ستلمان ، لا ريب فى ذلك ، بيد أنه راح يستعذب كذلك التفكير فى المنافع التى يرجح ان يجنيها اذ يظهر بمظهر الذائد عن القوانين الخلقية لمهنة الطب !

وعندما ذهب « أندرو » الى « لائترنى » وهو جاهل بما كان يدبر ، راحت الدعوة المقامة ضده تسير فى طريقها المرسوم . . ومن الصحيح ان فريدى - وقد أقحم اسمه فى التحقيق الذى أجرى عن موت كريستين - اتصل تليفونيا بايفورى ، محاولا صده عن تقديم الشكوى ، ولكنها كانت قد قدمت فعلا ! . . وان هى الا أيام ، حتى فحصها مجلس التاديب ثم ارسل باسمه خطابا الى أندرو يعلنه بالحضور امام المجلس فى جلسة نوفمبر ، للرد على الاتهام الموجه اليه . . وهذا الخطاب هو الذى أمسكه أندرو - فى ذلك اليوم - وقد شحب وجهه ،



وتولاه القلق لما كان في أسلوبه القانونى من نذير : « حيث أنك أنت - أندرو مانسون - ساعدت في الخامس عشر من أغسطس ، عمدا وعن علم تام ، المدعو ريتشاردستلمان - وهو شخص غير مؤهل - في القيام بعمل طبى ، وانضمت اليه بوصفك من أعضاء المهنة في اجراء هذه الجراحة .. وحيث أنك بذلك تكون قد اتيت فعلا مشينا في حق المهنة .. » !

— ٢٢ —

♦ **حدد** اليوم العاشر من نوفمبر لنظر القضية ، فقدم اندرو الى لندن قبل هذا الموعد بثمانية ايام . وكان بمفرده ، فقد رجا ديني وهوب أن يتركاه لنفسه تماما . ونزل مكتبيا اكتبابا مريرا في فندق « الميوزيوم » .. ومع أنه كان متمالكا نفسه في الظاهر ، الا انه كان يأسا ، تتنازعه نوبات قاتمة من الاسى والتردد ، لم تكن راجعة الى شكوكه بالنسبة للمستقبل فحسب ، وانما كانت منبعثة كذلك من ذكريات حياته العملية كلها ، تلك الذكريات التى راح يتمثلها واضحة جليلة . ولو ان هذه الضائقة حلت به قبل ستة اسابيع ، لالفته متبلدا وقد برح به الالم لموت كريستين ، ولاستقبلها بخور وعدم اكتراث .. أما وقد استعاد نشاطه ، وغدا على أهبة الاستعداد للعمل ، متطلعا اليه بصير نافذ ، فقد أحس بالصدمة احساسا قويا مريرا ، فاذا به منقبض الفؤاد ، واذا بأماله الوليدة تنهار .. وتبين ان هذا معناه القضاء المبرم عليه ! .. وراحت هذه الخواطر - وخراطر غيرها لم تكن اقل منها ايلاما - تتراثب في ذهنه وتقض مضجعه ، وتهز كيانه هزا عنيفا . فما كان ليصدق أنه - هو أندرو مانسون - يقف هذا الموقف الرهيب ، الذى يفزع منه الاطباء قاطبة . لماذا يقدم للمحاكمة التأديبية ؟ .. ولماذا يريدون اقضاء اسمه عن قائمة زملائه ؟ .. انه لم يأت أى فعل مشين ، ولم يخن مهنته ، وما كان يبغي

بكل ما فعل سوى شفاء ماري بولاند من مرض صدرى .
ووكل امر الدفاع عنه الى « هورنر » وشركائه ، المحامين
فى (لينكولنز ان فيلدز) ، فقد زكاهم لديه دينى متحمسا ..
ولم يكن « توماس هورنر » يوحى لناظره - لاول وهلة -
بأنه مخام مرموق ، فقد كان صغير الجسم ، احمر الوجه ، يضع
على عينيه منظارا ذهبيا .. وكان - بسبب اختلال فى دورته
الدموية - عرضة لنوبات من اندفاع الدم فى بشرته ، مما
كان يبيديه بمظهر المغرور بنفسه ، وهو ما لم يكن يوحى بالثقة
فيه .. ومهما يكن من امر ، فان هورنر ابدى آراء حاسمة
بصدد سير الدعوى . فعندما اراد أندرو فى غمرة حنقه - اثر
اعلانه بالدعوى - ان يسرع الى سير روبرت أبى صديقه
الوحيد ذى النفوذ فى لندن ، لفت هورنر نظره - بإيماء ذات
معنى - الى ان أبى كان عضوا فى مجلس التأديب .. وكذلك
عارض هورنر بشدة ما كان أندرو متحمسا لعمله ، اذ كان
يريد الابراق لستلمان يسأله العودة فورا من امريكا ..
**فان حضور هذا الرجل - الذى يمارس الطب دون أن يحمل
المؤهل الواجب - كان كفيلا بأن يثير نائرة المجلس ..**
ولهذا السبب عينه ، رأى هورنر ان يمتنع « مارلند » - مدير
(بيلفى) الحالى - عن الظهور .

ولقد أدرك أندرو تدريجا ان وجهة النظر القانونية فى الامر ،
كانت تختلف تماما عن وجهة نظره ، فاحتج فى قوة بمنطقه
الصارم وهو فى مكتب هورنر ، حتى لقد تقطع جبين المحامى
واضطر الى أن يقول : « ان كان لى ما اطلبه منك يا دكتور ،
فانما هو الا تستخدم عبارات كهذه فى جلسة يوم الاربعاء .
أوكد لك ان شيئا ما لا يمكن أن يفسد علينا قضيتنا أكثر
منها » .. فتوقف أندرو عن الحديث متوتر الاعصاب ، وحملق
فى هورنر لحظات ، ثم قال : « ولكننى أريد ان يعرفوا الحقيقة
.. أريد أن أريهم أن شفاء هذه الفتاة ، هو خير ما عملت منذ

سنتين .. فبعد ان ظلت شهورا اجتذب المرضى بطريقة
مزرية ، شهياً وراء المال ، اذا بى احقق - فى آخر الامر - عملا
جميدا حقا .. وهذا هو الذى من أجله .. أجل ، من أجله
ينتهوننى ! »

ونظر اليه « هورنر » منزعجا - من خلف عدستى منظاره -
وقد تصاعد الدم الى وجهه ، من جراء انفعاله ، وقال : « أرجوك
يا دكتور ، أرجوك .. انك لا تدرك خطورة مركزنا ، فلزام
على ان اغتنم هذه الفرصة لاقول لك ان احتمال نجاحنا ضعيف ،
حتى لو سارت الامور سيرا حسنا ، اذ ان السوابق ضدنا تماما :
« كينت » فى سنة ١٩٠٩ ، و « لارندن » فى سنة ١٩١٢ ، و « فولجير »
فى سنة ١٩١٩ .. كلهم حذف اسمائهم لتعاونهم مع
أشخاص لا يحملون « ديلرما » . وفى قضية « هيكسام »
الشهيرة فى سنة ١٩٢١ ، حذف اسم هذا الطبيب اذ ساعد
المجبر « جارفيز » ، وتولى التخدير فى جراحة اجراها هذا
المجبر .. لذلك أحب ان أرجوك ان لا تفعل سوى هذا :
أجب على الاسئلة بنعم أو لا ، واذا استحال عليك هذا ،
فأوجز قدر ما تستطيع . ويجب ان انبهك صراحة الى ان
اندفاعك بعبارة من نوع هذه العبارات التى اسمعنيها منذ
لحظة ، كفيل بضياع قضيتك ، واقصائك عن الهيئة الطبية ! »
واحس أندرو - وهو كالمشده - بأن عليه ان يحاول
ضبط نفسه ، وان يستسلم لاجراءات المجلس ، كما يستسلم
المريض لموضع الجراح .. بيد انه كان من العسير عليه ان
يقنع نفسه بالتزام هذا الموقف السلبي .. بل ان مجرد
التفكير فى أن من واجبه العدول عن كل محاولة لظهار براءته ،
وان عليه ان يجيب بنعم أو لا فحسب .. كان مجرد التفكير
فى هذا يحمله فوق ما يطيق !

وفي مساء الثلاثاء - التاسع من نوفمبر - بلغت حمى الارتقَاب ذروتها ، فألقى أندرو نفسه سائرا في اتجاه حانوت فيدلر ، دون أن يدري كيف تسنى ذلك ، إذ كان مسوقا بدافع غريب لا شعوري .. كانت ترسب في أغوار عقله هذه الفكرة القائلة التي لم تستطع الفكك منها ، وهي أن كل الخطوب التي رزى بها في الأشهر الأخيرة ، إنما كانت عقابا له على موت هاري فيدلر .. ولقد خلص الى هذه النتيجة على نحو غير ارادي .. وقلب وجوه الراى على شتى الاعتبارات ، دون أن تفارقه ، إذ كانت تتبع من أعماق جذور أيمانه القديم .. واحس بأنه مدفوع - بقوة لا قبل له بمقاومتها - صوب أرملة فيدلر ، وكأنما مجرد رؤيتها من شأنه أن يعينه على تخفيف آلامه ، بوسيلة خارقة ما !

وكانت الامسية معتمة رطبة ، والشوارع خالية الا من بعض المارة . وأحس احساسا غامضا بأنه غريب في هذا الحى الذى كان فيما مضى معروفا فيه .. لم يعد شبحة المعنم غير ظل بين ظلال أخرى تتواثب جميعها تحت المطر المنهمر ! .. وبلغ الحانوت وقت الاغلاق تماما ، وكان أحد العملاء يبرحه .. وبعد تردد دخل ، فاذا مسز فيدلر وحدها خلف عداد تقود المصبغة ، تطوى معطفا تسلمته منذ لحظة .. وكانت ترتدى ثوبا أسود ، واسع الرقبة شيئا ما ، وقد أظهرها الحداد أصغر سنا مما كانت ! .

ورفعت رأسها بفتنة فرأت أندرو ، واذا بها تصيح وقد اشرق محياها : « دكتور مانسون ! .. كيف انت يا دكتور ؟ » .. وأدرك أنها لم تظن الى ما كان يعانيه ، فأجاب بغممة موجزة ، وهو واقف عند مدخل الحانوت ، يتساقط ماء المطر من أطراف قبعته .. وهتفت مسز فيدلر : « تفضل يا دكتور ! .. أوه ! لكم انت مبتل ! يا لرداءة الطقس ! .. » فقاطعها بصوت مخنق : « لقد كنت أريد أن أزورك منذ أمد

طويل يا مسز فيدلر .. كثيرا ما تساءلت عن احوالك ! «
— لا بأس بها يا دكتور .. وأنا استعين الآن بعامل شاب
لاصلاح الاحذية . تفضل ، وأسمح لى بأن أعد لك قدحا من
الشاي !

وهز مانسون رأسه قائلا : « انما كنت مارا من هنا .. » .
وأمسك لحظة ، ثم قال فى أسى بالغ : « لابد انك تفتقدين هارى
كثيرا » . فقالت : « اجل .. لقد حزنت كثيرا ، فى بادىء
الامر .. ولكن المرء سرعان ما يألف .. » ففهم : « اننى ألو
نفسى .. الى حد ما .. أواه ! لقد كانت صدمة مفاجئة لك .
وكثيرا ما أحسست بأنك ولابد حاقدة على ! »

— أوه ! كلا ، كيف تقول هذا فى حين انك بذلت كل ما فى
وسعك .. اذ جئت الى هنا ، وأستدعيت أفضل جراح ؟
فقال بصوت أجش ، وفى جسده قشعريرة تسرى : « ولكن
.. لو أنك سلكت طريقا آخر .. لو أن هارى ذهب الى أحد
المستشفيات العامة .. » . فقاطعتة قائلة : « ما كنت لاسلك
غير هذا المسلك يا دكتور ، وقد حصل هارى على خير مايمكن
الحصول عليه بالمال .. حتى فى جنازته .. ليتك رايت اكايل
الزهور ! .. فكيف أحقد عليك ؟ .. أواه ! كم رددت هنا
انه لم يكن فى الامكان ان يتولى شأن هارى طبيب ابرع ولا
اكثر اخلاصا منك ! » .. وأدرك — وهو ماضى فى حديثه —
ان من العبث أن يعترف لها بما اقترف ، اذ أنها كانت تأبى
أن تصدقه .. كانت لديها صورة وهمية عن ميتة زوجها
الهادئة ، المحتومة ، التى كبدتها كثيرا ، وكان من القسوة
انتزاعها من هذه الاوهام التى كانت تتشبث بها راضية !

وقال اخيرا : « لكم انا سعيد اذ رايتك يا مسز فيدلر . لقد
اردت — كما قلت لك — أن أقف على احوالك ! » . وشد
على يدها متمنيا لها ليلة سعيدة ، ثم انصرف .

* * *

ولم يحس - اثر هذا الحديث - شيئاً من السكينة التي كان ينشدها ، بل ان المله تضاعف ، وازدادت همومه . فما الذى كان يتغنيه اذن ؟ .. الصفح على طريقة القصص والروايات ؟ .. ام السخط والالتهام ؟ .. وتبين - فى مرارة - ان الارملة أصبحت أكثر اجلالاً له منها فى أى وقت مضى . وداخله بغتة - وهو يسير فى الشوارع المبتلة بالمطر - يقين بأنه خاسر قضيته فى اليوم التالى ، وراح هذا اليقين يشترد ويستبد به .

ومر - غير بعيد من فندقه - بكنيسة فى شارع صغير هادئ .. وكانت مفتوحة الابواب ، فاذا به يقطع سيره تحت دافع داخلى ، ثم يرتد ادراجه ويلجها .. وكانت الكنيسة مظلمة ، ساخنة الهواء ، وكأنما اقيمت فيها - منذ لحظات - صلاة أو قداس .. ولم يكن يدرى اية كنيسة هى ، لا ولا حفل بأن يعرفه ، وإنما جلس فوق مقعد فى الصف الاخير ، وركز بصره على الهيكل .. وجال بخاطره ان كريستين كانت - فى اوقات فتور علاقتهما - قد عادت تفكر فى الله .. ولم يكن يوماً من رواد الكنائس ، ولكن ، ها هو ذا فى كنيسة لا يعرفها ! .. ان المحن تجذب الناس الى هذا المكان ، وتردهم الى الصواب ، والى التفكير فى الله !



وظل جالسا ، منحني الظهر - كرجل يستريح في نهاية رحلة طويلة - والافكار تتدفق على ذهنه ، فراح يتمتم بدعوات كانت صادرة عن حنين روحه ، فلم يقصد بها الدعاء : « لا تسمح اللهم بأن يحذف اسمي . . اللهم لا تدعهم يطردونني ! » . ولعله ظل نصف ساعة في هذا الاستغراق الغريب ، ثم نهض وعاد الى الفندق مباشرة .

واستيقظ في صباح اليوم التالي ، وقد استبد به القلق اكثر من ذي قبل ، برغم انه نعم بنوم عميق . . وارتدى ملابسه بيدين مرتعشتين بعض الشيء ، وهو يلوم نفسه لنزوله في هذا الفندق الذي أعاد الى ذهنه ذكريات امتحانه ، فاذا به يحس نفس الوجع الذي أحسه حينذاك ، مضاعفا مائة مرة ، حتى انه لم يستطع تناول افطاره . . وكان موعد نظر قضيته في الساعة الحادية عشرة ، وقد أوصاه هورنر بأن ييكر في الذهاب . . وتبين انه في غير حاجة لاكثر من عشرين دقيقة ، ليصل الى (هالام ستريت) ، فأخذ يطالع صحف الصباح في بهر الفندق ، وهو شارد الذهن ، متوتر الاعصاب . وما لبث ان استقل سيارة أجرة .

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة تماما ، حينما وصل الى المجلس ، فاندفع الى القاعة ، دون ان يحفل بتبين أبعادها ، أو المنصة التي جلس حولها الاعضاء برئاسة سير جينر هاليداي . . وكان الأشخاص الذين دعوا للشهادة في قضيته ، يجلسون في نهاية القاعة . . ومن عجب انهم بدوا اشبه بممثلين ينتظرون أدوارهم للظهور على المسرح . . كان هناك هورنر ، وماري بولاند يصحبها ابوها ، والمرضة شارب ، والدكتور ثوروجود ، والسيد بون ، والمرضة مايلز المختصة بعنبر ثوروجود في المستشفى . . وأجال اندرو بصره في

المساعد المصطفة ، ثم أسرع بالجلوس الى جانب هورنر .
فبادره المحامى غاضبا شيئا ما : « أحسبني قلت لك أن تحضر
مبكرا .. ان القضية الاخرى توشك ان تنتهى ، وكل تأخير
امام هذا المجلس يؤدى الى عواقب وخيمة ! »

والم يجب اندرو بشيء ، اذ كان هورنر على حق ، فان
رئيس المجلس كان ينطق بالحكم فى القضية السابقة مباشرة
لقضيته .. وكان الحكم يقضى بادانة المتهم وحذف
اسمه من قائمة الاطباء . ولم يستطع اندرو تحويل نظره عن
الطبيب الذى وجد متلبسا بجريمة « غامضة » .. كان
شخصا يرتدى ملابس رثة ، تبدو عليه الفاقة والعوز ، ويدل
مظهره على أنه كافح كفاحا مريرا فى سبيل كسب عيشه ..
وشاهد اندرو اليأس القاتل الذى ارتسم على محياه وهو
يسمع الحكم بادانته ، تصدره عليه هذه الجمعية الجليلة
القدر من زملائه ، فارتعدت فرائضه وارتعش ! .. على أن
الوقت لم يسمح له بأكثر من أن يشعر برثاء مقتضب نحوه ،
ثم نوديت قضيته على الفور ، فانقبض قلبه اذ حان دور
تقرير مصيره !

وتلى قرار الاتهام من الفه الى يائه ، ثم نهض السيد
« جورج بون » - محامى المدعى - فبدأ مرافقته .. وكان
رجلا نحيل الجسم ، واضح القسمات ، يرتدى حلة رسمية
« ردينجوت » ، حليق الوجه تماما ، يثبت على أنفه منظارا
تدلى منه شريط اسود انيق .. ودوى صوته قويا ثابتا ،
وهو يقول : « سيدى الرئيس ، سادتى .. ان القضية التى
امامكم لا تتعلق - فيما يبدو الى - بأية نظرية طبية من
النظريات التى تتضمنها المادة ١٨ من التشريع الطبى ..
بل أنها على العكس ، مثل واضح فتعاون أحد أعضاء مهنتنا
مع شخص غير مؤهل .. وهو اتجاه الاحظ ان المجلس قد
وجد - منذ عهد قريب - ما يدعو الى مقاومته .

« رالى حضراتكم وقائع الدعوى : فى الثامن عشر من يوليو ، قبلت المريضة « مارى بولاند » - وكانت مصابة بسيل رئوى - فى قسم الدكتور ثور وجود بمستشفى فيكتوريا للأمراض الصدرية . وقد مكثت فيه حتى الرابع عشر من سبتمبر ، تحت ملاحظة الدكتور ثور وجود . ثم غادرت المستشفى - فى ذلك التاريخ - بحجة أنها تريد العودة الى دارها . . . وأقول « بحجة » ، لان المريضة لم تعد الى أهلها - يوم مفادرتها المستشفى - وانما التقت فى مبنى المستشفى بالدكتور مانسون الذى صاحبها - على الفور - الى مؤسسة تدعى (بيلفى) ، يزعم القائلون بأمرها - فيما أحسب - أنها تشفى الأمراض الرئوية . وما ان وصلت المريضة الى المؤسسة ، حتى ألزمت الفراش وفحصها الدكتور مانسون بالاشتراك مع صاحب المؤسسة ، السيد « ريتشارد ستلمان » ، الذى لا يحمل أى شهادة طبية ، وهر - على ما بلغنى - أجنبى . وبعد الفحص تقرر نتيجة للتشاور - وأحب ان ألفت نظر المجلس الى هذه الكلمة - تقرر نتيجة للتشاور بين الدكتور مانسون والسيد ستلمان ، اجراء جراحة للمريضة . فتولى الدكتور مانسون اجراء التخدير الموضعى ، وتم الحقن على يدى الدكتور مانسون والسيد ستلمان .

« والآن يا حضرات السادة - وقد أوجزت لكم الوقائع - اقترح سماع الشهود . الدكتور أوستاش ثور وجود من فضلك ! »

ونفض هذا الطبيب وتقدم ، فبادره « بون » قائلا : « ان حاول يا دكتور ثور وجود احراجك ، فنحن نعرف تماما سمعتك - بل نبوغك - فى الامراض الرئوية . ولست أشك فى أنك ربما أحسست بالعطف نحو زميلك الشاب ، ولكن اليس صحيحا ان الدكتور مانسون ألح عليك - فى يوم الثلاثاء ١٠ سبتمبر - فى أن تفحص تلك المريضة : مارى بولاند ؟ » .

فاجاب ثوروجود : « بلى » .

— اليس صحيحا أيضا انه رجاك ملجا — اثناء هذا
الفحص — أن تمارس علاجا أبيت أن تقره عليه ؟
— كان يريد اجراء عملية « بنيموتراكس »
— حسن جدا . وقد رفضت أنت من أجل مصلحة
المریضة وخیرها ؟

واذ قال ثوروجود : « هو ذلك ! » ، عاد بون يسأله :
« وازاء رفضك ، هل اتخذ الدكتور مانسون موقفا خاصا
أيا كان ؟ » . فقال : « الواقع .. » ، وسكت مترددا ، فاهاب
به بون : « أرجوك يا دكتور .. انسا ندرک تماما حرج
موقفك ، ولكن .. » . واذا ذاك ، قال ثوروجود : « لقد كان
في ذلك الصباح مضطربا ، وبدا كأنه لم يقبل قرارى » . وعاد
بون يقول : « شكرا يا دكتور ثوروجود . هل كانت لديك
أسباب تدعوك الى الاعتقاد بأن المريضة كانت مستاءة من
العلاج الذى كان يمارس لها فى المستشفى ؟ » ، وارتسمت
على وجهه — لهذه الفكرة — ابتسامة مائعة ، ثم استطرد :
« أو انه كان لديها ما تشكو منه ، سواء من ناحيتك أو من
ناحية المستخدمين ؟ »

— لم يكن هناك شيء من هذا اطلاقا .. بل ان المريضة
كانت تبدو دائما راضية سعيدة !

فقال بون : « شكرا يا دكتور ثوروجود » . ثم تناول
البطاقة التالية ، وقال : « والآن .. المريضة مايلز من
فضلك ! » . فعاد ثوروجود الى مقعده ، وتقدمت المريضة ،
فبادرها « بون » قائلا : « أيتها المريضة مايلز .. فى صباح
يوم الاثنين الثانى عشر من سبتمبر — أى بعد يومين من هذا
الفحص الذى أجراه الدكتور ثوروجود بالاشتراك مع الدكتور
مانسون — هل حضر الدكتور مانسون لزيارة المريضة ؟ » .
فاجابت : « نعم » . فعاد يسألها : « وهل كان هذا موعد

زيارته المألوف ؟ » ، فاجابت : « لا » . فاستطرد : « وهل فحص المريضة ؟ » . فاجابت : « لا .. بل انه جالس فقط يتحدث معها » .

— حسن جدا أيتها المريضة .. ولقد كان الحديث طريلا وجديا — على ما ذكرته في اقرارك الرسمي — ولكن .. قولى لنا بطريقتك هذه المرة ، ما الذى حدث بعد انصراف الدكتور مانسون مباشرة ؟

— بعد حوالى نصف ساعة ، قالت لى المريضة رقم ١٧ — اعنى مارى بولاند — « لقد فكرت جيدا أيتها المريضة ، وقررت مغادرة المستشفى .. لقد كنت جد كريمة معى ، ولكننى أريد الخروج يوم الاربعاء القادم » !

فقاطعتها بون بقوة : « يوم الاربعاء القادم .. شكرا أيتها المريضة ، فهذه هى النقطة التى أردت تحديدها . يكفى هذا الآن ! » .. وانسحبت المريضة مايلز ، بينما بدت على وجه المحامى علائم الارتياح ، وقال : « المريضة شارب من فضلك ! » . وساد الصمت ريثما تقدمت . ثم قال بون : « مس شارب ، هل تستطيعين أن تذكرى لنا بالتحديد ، ما الذى فعله الدكتور مانسون عصر الاربعاء ١٤ سبتمبر ؟ » . فأجابته : « أجل ، فقد كنت فى صحبته »

— أحسبني أفهم من لهجتك أنك صحبته على مضض منك .

— أجل ، عندما عرفت اين كنا ذاهبين ، وان ستلمان هذا لم يكن طبيبا ..

فقال بون : « أحسبك صدمت ؟ » . وكان جوابها : « نعم هو هذا ، فانا لم أعمل — فى حياتى كلها — الا مع الاطباء .. مع أطباء حقيقيين .. مع اخصائيين ! » . وهنا قال بون : « حسن جدا .. والآن هناك نقطة يا آنسة ، أريد أن أسمعك تحديد دينها لتزوير المجلس : هل تولى الدكتور مانسون حقيقة

مساعدة السيد ستلمان في اجراء هذه العملية ؟ » . فُجِبت مؤكدة : « أجل .. لقد فعل » . وهنا مال « أبى » الى الامام، ووجه سؤالاً عن طريق الرئيس : « هل كنت في ذلك الوقت قد أنذرت باعفائك من خدمة الدكتور مانسون يا مس شارب ؟ » . فغمغمت وقد احمر وجهها واضطربت : « أجل .. أحسب ذلك ! »

وحينما عادت الى الجلوس بعد لحظة ، أحس اندرو بشيء من الانتعاش : ان « أبى » في القليل مازال يعطف عليه ! .. بينما تحول « بون » نحو منصة المجلس وقد أثارت المقاطعة ، وقال : « سيدى الرئيس . يمكننى المضى في استجواب المريد من الشهود ، غير انى أعرف تماما قيمة وقت المجلس . وأعتقد يا سادتى بالاضافة الى هذا انى قدمت الادلة القاطعة فى الدعوى . يبدو انه ليس هناك أى شك فى أن المريضة « مارى بولاند » - بالاتفاق التام مع الدكتور مانسون - قد انتزعت من عناية أخصائى جليل القدر ، فى مستشفى من أفضل مستشفيات لندن ، ونقلت الى تلك المؤسسة التى لا يطهران اليها، الامر الذى يشكل فى ذاته اخلافاً خطيراً بالواجب المهني ! .. وان الدكتور مانسون قد تعاون بذلك عمداً مع صاحب تلك المؤسسة ، غير المؤهل اطلاقاً ، فى اجراء عملية خطيرة حذر منها الاخصائى المسئول أدبياً عن المريضة ، وهو الدكتور « ثورجود » .

« سيدى الرئيس ، سادتى : أعتقد ان الامر ليس كما يبدو لاول وهلة أمر حادث فردى منعزل ، أو اخلافاً عارض ، وانما هو مخالفة مدبرة عن عمد وسبق اصرار للتشريع الطبى . » .. ثم جلس السيد « بون » ، مسروراً من نفسه ، ونظف زجاج نظارته .. وساد صمت لبضع لحظات ، ظل خلالها اندرو مثبتاً نظره على الارض ، لا يتحول عنها . لكم أحزنه أن تعرض قضيته على هذا النحو من التحيز والغرض ، وأن

بعامل معاملة قطاع الطريق ! .. وأخيرا تقدم محاميه وتاهب لمخاطبة المجلس . بدأ « هورنر » كعادته منفعلا أحمر الوجه ، وكان يجد مشقة في ترتيب أوراقه . ولكن حالته هذه استدرت عليه فيما يبدو عطف المجلس . وقال له الرئيس : « تفضل يا سيد هورنر » .. فتنحج ، ثم بدأ مرافعته فقال : « سيدى الرئيس ، سادتى : صدقونى اذا قلت لكم انى لا اعترض على ما أبداه السيد بون فى مرافعته ، فلست افكر فى مناقشة الوقائع ، على أن طريقة تفسيرها تعيننا على نحو خطير . وهناك بالاضافة الى هذا بعض نقط تكميلية تلقى على القضية ضوءا يفيد منه موكلى كثيرا . فمثلا لم يذكر حتى الآن بالتحديد أن مس بولاند كانت فى أول الامر من مرضى الدكتور مانسون ، والواقع أنها استشارته يوم ١٠ يولية قبل أن ترى الدكتور ثوروجود . ومن ناحية أخرى فان الدكتور مانسون كان يهتم بأمرها اهتماما شخيصيا ، لانها ابنة أحد أصدقائه الخلاء . ومن أجل هذا اعتبر نفسه دائما مسئولا عن صحتها . . . ويجب أن نعترف صراحة بأن الدكتور مانسون قد ارتكب خطأ جسيما ، ولكنى بكل احترام أرى أن عمله لا ينطوى على شيء مشين أو على أى قصد سيء .. ولقد عرفنا انه كان هناك خلاف طفيف فى الرأى - بالنسبة للعلاج - بين الدكتور ثوروجود ومانسون . ونظرا لعطف الدكتور مانسون البالغ على المريضة ، فقد كان من الطبيعى تماما أن يعود فيتولى الاشراف على العناية الطبية التى ينبغى بذلها لها . ولا شك انه لم يكن يريد بحال تكدير صفو زميله الذى يكبره سنا . وهذا ، دون غيره ، هو الذى حمله على سلوك سبيل التحايل الذى سلكه والذى افاض فيه السيد بون .. » وهنا توقف « هورنر » وأخرج منديله وسعل . ولونظرت اليه لالفيته يتحفز لتذليل عقبة أصعب وأعتى ، وما عثم ان قال : « نصل الآن الى مسألة التعاون مع السيد ستيلمان فى

مصحة (بيلفى) . ولا شك ان اعضاء المجلس لا يجهلون اسم السيد ستلمان . فهو بالرغم من انه لا يحمل دبلوما ، رجل ذو سمعة طبية ، بل ويؤكدون انه توصل الى شفاء حالات مرضية في ظروف خارقة .

وهنا قاطعه الرئيس في رصانة : « ماذا يهكك ان تعرف يا سيد هورنر في هذه الامور وانت لست طبيبا ؟ »

فقال هورنر بقوة : « اعترف بهذا يا سيدى ، والذي اريد قوله هو ان السيد ستلمان على ما يبدو رجل له قدره ومكانته . ولقد اتصل بالدكتور مانسون منذ سنوات مهنئا اياه بأبحاثه عن الرئتين ، ثم تقابلا بعد ذلك في صعيد لا يمت الى المهنة بأية صلة - حينما قدم السيد ستلمان الى هنا لاقامة مؤسسته - ومن هنا نشأت عند الدكتور مانسون تلك الفكرة التى قد تكون مؤسفة ، فليس مما يدعو الى الدهشة ان يبحث الدكتور مانسون عن مكان يمكنه شخصيا ان يضع فيه مس بولاند تحت العلاج . . ومن هنا فكر فى الافادة من التسهيلات التى تقدمها له مصحة (بيلفى) . وقد وصف صديقى السيد بون مؤسسة (بيلفى) بأنها « لا بطمان اليها » . وفى رأى انه قد يهم المجلس سماع شهادة فى هذا الصدد . مس بولاند . . من فضلك . »

وحينما نهضت « مارى » ، اتجهت اليها انظار اعضاء المجلس فى تطلع شديد ، على الرغم من أنها كانت متوترة الاعصاب لا تحول عينيها عن هورنر ولا تلقى نظرة واحدة على أندرو ، (فقد كانت تبدو موفورة العافية وفى حالة صحية طبيعية !)

وقال هورنر : « مس بولاند، قولى لنا بصراحة : هل شكوت من شيء - أى شيء - مدة اقامتك تحت العلاج فى (بيلفى) ؟ »

- كلا ، على العكس .

وأدرك اندرو على الفور انها قد لقت الدرس مقدما ،
وأفهمت كيف ينبغي أن يكون مسلكها . . فقد أجابت في غير
مغالة او اندفاع . وعاد هورنر يستجوبها :

— أى انك لم تعانى نتائج سيئة ؟
— بالعكس ، ان حالتى الآن افضل .
— تريدان القول ان العلاج الذى عولجت به هو نفس العلاج
الذى قرره الدكتور مانسون عند ما زرته لأول مرة يوم . . .
يوم . . . يوم ١١ يولية ؟
— نعم .

وهنا سأل الرئيس : « أهذا دليل قاطع على ماتقول ؟ »
فقال هورنر فى اعتداد : « يكفينى هذا من الشاهدة
يا سيدى » . . وفيما كانت « مارى » تعود الى مقعدها ،
بسط يديه نحو منصة هيئة المجلس فى حركة توسل مألوفة
منه ، وقال : « الذى أريد اثباته ايها السادة هو ان العلاج
الذى بوشرفى (بيلفى) كان فى الواقع علاج الدكتور مانسون ،
وقد مارسه آخرون بطريقة قد تكون خاطئة . وانى أقرر انه
لم يحدث تعاون بالمعنى المهنى لهذه الكلمة بين ستلمان
والدكتور مانسون فى هذا الشأن . »

وهنا نهض اندرو وقد أحس احساسا واضحا بان كل
الانظار تتجه اليه . وكان شاحب الوجه ، مشدود القسمات ،
يستشعر فى تجويف معدته فراغا وبرودة . وسمع هورنر
يوجه اليه هذا السؤال :

— ألم تقبض يا دكتور مانسون أى أجر على هذا التعاون
الذى نحن بصددته مع ستلمان ؟
— البته !

— أى أن ما فعلته لم يكن بأى دافع خفى ، او لغرض يمكن
أن تلام عليه ؟
— كلا إطلاقا .

— ألم تقصد نقد زميلك الدكتور ثور وجود ؟
 — كلا ، لقد كانت علاقتنا حسنة جدا ، غير اننا اختلفنا في
 الراى بالنسبة لهذه الحالة ، وهذا كل ما فى الامر .
 وبادر هورنر الى القول : « حسن جدا . ومن ثم يمكنك
 بكل اخلاص ان تقرر امام المجلس انك لم تقصد بآى حال
 مخالفة التشريع الطبى ، وانه لم يخطر ببالك ان تأتى عملا معيبا
 بآى صورة من الصور . »
 — هذه هى الحقيقة تماما .

وابتلع هورنر أنفاسه فى ارتياح وهو يومئ الى أندرو
 بالتصراف . ذلك انه مع احساسه بضرورة طلب هذه
 الشهادة كان يخشى اندفاع موكله وهو يدلى بأقواله ، التى
 انتهت دون ان يحدث مايكدر . وكان يرى بعد هذا انه لو
 لخص الدعوى بأيجاز فلربما كان له أمل ضئيل فى النجاح .
 وعلى ذلك قال وفى نبراته كل معانى الندم : « لا أريد الاطالة
 على المجلس . لقد حاولت اثبات أن الدكتور مانسون انما وقع
 فقط فى خطأ يؤسف له . وانى أناشيد ليس فقط عدالة
 المجلس بل رأفته أيضا . وأود أخيرا أن الفت انتباه حضراتكم
 الى جدارة موكلى بالعطف . ان وراءه ماضيا فى خدمة المهنة
 من حق أى انسان أن يعتز ويفخر به . ونحن جميعا نعرف
 حالات ارتكب فيها رجال لامهون غلطة واحدة ، ولعدم استعمال
 الرأفة معهم تحطم مستقبلهم . وآمل الا يكون هذا هو
 الشأن فى الدعوى التى ستقضون فيها بعد قليل . انى أطلب
 منكم هذا بالحاح »

كان لدفاع هورنر ونبراته الوادعة وقع بديع على هيئة
 المجلس ، غير ان « بون » نهض على الفور وخاطب الرئيس
 قائلا : « أرجو ان تسمح لى ياسيدى بتوجيه سؤال أو
 سؤالين للدكتور مانسون » . ثم استدار وأومأ الى أندرو
 بنظارته داعيا إياه الى النهوض ، وقال : « لم يبد لى جوابك

الاخير يادكتور و اضحا تماما . قلت انك لم تكن تعرف ان
مسلكك معيب في كثير او قليل ، ومع هذا فانت لا تجهل ان
السيد ستيلمان لا يحمل دبلوما طبيا ما ؟ ! »
نظر اندرو الى بون من اسفل . كان المرقف الذي وقفه
منه هذا المحامي الشديد التدقيق في الجزئيات قد جعله يحس
طوال الجلسة انه اتى امرا شائنا . على ان ضوءا بدد ظلمة
نفسه ، فاجاب بصوت واضح :

— اجل ، كنت اعرف انه ليس طبيا .

واذ ذاك ارتسمت على شفتي بون ابتسامة ارتياح اضاءت
وجهه ، وقال بلهجة لازعة : « .. ومع هذا مضيت في
طريقك .. ! »

فأعاد اندرو بحرارة مفاجئة هذه الكلمة فيما يشبه رجع
الصوت ، و اضاف : « كلا ، بل ليس الامر على هذا النحو .. »
ثم استطرد يقول بعد ان تنفس ملء رئتيه : « لقد اصفيت
اليك يا سيد بون وانت توجه لي اسئلة كثيرة .. فاسمح لي
ان اوجه لك سؤالا : هل سمعت عن لويس باستور ؟ »
فاجاب بون مندهشا : « نعم ، منذا الذي لا يعرف هذا
العالم ! ؟ »

— حسن جدا ، انت تقول منذا الذي لا يعرف هذا الاسم
الشهير .. ولكن الارجح يا سيد بون انك لا تعرف — واسمح لي
ان اعرفك — ان هذا الرجل الذي يعد أعظم اساتذة الطب
العلمي ، لم يكن طبيا .. كذلك « ايرليتش » لم يكن طبيا ، وهو
الذي أعطى الطب دواء من اشهر واميز الادوية . وكذلك
« هافكين » الذي حارب الطاعون في الهند بنجاح لم يلفه اى
طبيب من حملة الدبلومات ! .. وكذلك ايضا « متشنيكوف »
الذى لا تفرق عبقريته سوى عبقرية باستور .. الخ ..
ومعذرة يا سيد بون ان ذكرتك بهذه الحقائق الاولى ، فانها
قد تثبت لك ان اى انسان يحارب المرض دون ان يكون مقيدا

في جدول الاطباء ليس بالضرورة محتالا او غيباه !
وساد الصمت بغتة . كانت المناقشات قد دارت حتى الآن
في جو من الرسمية الكثيبة والتفاهة الجوفاء ، كما لو كان في
محكمة صغيرة من محاكم الاقاليم . اما الآن فقد اعتدل جميع
الاعضاء في مقاعدهم وأخذ « آبي » بنوع خاص يرمق اندرو
بنظرات حادة غير مألوفة . وانقضت برهة قبل ان يشهق
هورنر مخفيا وجهه بيده ، شهقة ألم وحزن . انه يحس ان
القضية قد ضاعت ! ومع ان بون كان جد مغيظ ، فقد جهد
ان يتماسك .. وقال : « نعم ، نعم هناك بعض أسماء لامعة ،
نحن نعرف هذا . ولكنك دون شك لا تقارن « ستيلمان »
بها ! »

فصاح اندرو في حدة وقد اشتد غضبه : « لم لا ؟ .. انهم
ليسوا لامعين الا لانهم قد ماتوا ! لقد كان « فيرشو » يسخر
من « كوك » في حياته ، ويسبه .. ونحن الآن لا نشتمه .
اننا نهاجم رجالا مثل « سباهلنجر » و « ستيلمان » . وهذا
مثل آخر يجب ان نتدبره : ان سباهلنجر مفكر عظيم وعالم
أصيل ، انه ليس طبيبا ولا يحمل اى دبلوم في الطب ، بيد
انه عمل للطب أكثر مما عمل آلاف من حملة الدبلومات ،
من أولئك الذين يجوبون الشوارع بالسيارات ويتقاضون
ما يطلبون من أتعاب ، في حين يهاجم سباهلنجر ويحقّر ويتهم
ويترك ينفق ثروته في أبحاث وتجارب علاجية ، ثم يناضل
بعد ذلك في تعاسة وشقاء ! »

فقال بون مستهزئا : « هل نفهم من هذا انك معجب
بستيلمان اعجابك بهؤلاء ؟ »

— أجل ، انه رجل عظيم ، رجل كرس حياته كلها لاسداء
الخير للبشرية . لقد كان عليه أن يحارب الحسد وعدم التبصر
وسوء الفهم ، وتغلب عليها جميعا في بلاده . أما في بلادنا
فالظواهر انها تستعصى عليه ! على انى مقتنع بانه كافح السل

كما لم يكافحه أحد يعيش في إنجلترا . انه ليس من أعضاء المهنة ، ليكن ، بيد ان كثيرين ممن ينتمون اليها كافحوا السل طوال حياتهم دون ان يحققوا ذرة من الخير !

وكان لهذا الحديث أثره في القاعة المرتفعة الفسيحة . وبرقت عينا « ماري بولاند » المركزتان على أندرو ببريق الإعجاب الممتزج بالقلق . واخذ هورنر - وقد أمضه الالم - يجمع أوراقه في بطاء ويعيدها الى حافظته .. بينما تدخل الرئيس قائلا لاندر : « هل تعي ماتقول ؟ »
- تماما !



وكان أندرو يضغط بيديه ظهر مقعده ضغطا شديدا ، مدركا انه قد اندفع دون وعي منه في حماقة ورعونة خطيرة ، وان كان مصرا على التمسك في قوة بآرائه الى النهاية . كان يلهث في عصبية شديدة وقد غمرت كيانه جراحة فريدة . ان كان لا بد لهم من شطب اسمه من المهنة ، فليزودهم بالاسباب .. ومن ثم مضى يقول :

- لقد أصفيت الى كل ما قيل اليوم في شأني ، ولم اكف من التساؤل : أي سوء فعلت ؟ .. لا أريد أن اعمل مع مهرجين ، ولست أومن بالادوية التجريبية ، ولهذا لا افتح نصف النشرات العلمية التي تملأ صندوق خطاباتي مع كل بريد . أعرف اني أتكلم في شيء من العنف ، غير اني لا أملك

نفسى من ذلك . نحن لا نقدر الحرية التقديس الواجب ،
واذا نحن ظللنا على عقيدتنا بأن كل شيء على خير ما يكون في
مهنتنا ، وأن لا شيء خارجها ذو قيمة ، فان هذا سيقنل
التقدم العلمى . سنصبح مجرد شركة صغيرة تحمى تجارتها !
لقد حان الوقت لترتيب البيت ، ولست اعنى الترتيب الظاهرى
السطحى . بل فلنأخذ الامور من بدايتها . فكروا فى مدى
قصور التعليم الذى يتلقاه طبيب ما . اننى - على سبيل
المثال - حينما حصلت على دبلومى ، كنت أشكل خطرا عاما .
كان كل ما اعرفه أسماء بعض الامراض وأسماء الادوية
المفروض أن أصفها لشفائها ، بل لم اكن كفتا لاستعمال الاداة
التي تستخدمها مولدة ! ان كل ما استطعت معرفته إنما عرفته
بعد تخرجى ، ولكن كم من الاطباء لا يستزيدون من المعرفة
سوى ذلك النزر اليسير الذى يحصلون عليه من ممارسة
المهنة ! ان الوقت يعوز هؤلاء المساكين ، فلهم مرهقون بالعمل .
هذا هو عيب منظمنا . يجب أن ننقسم الى جماعات علمية ،
وينبغى أن تكون هناك دراسات تواصل بعد التخرج . علينا
بذل غاية الجهد ليكون العلم فى المقام الاول ، لانهاء عهد زجاجة
الدواء الروتينى ، لاتاحة الوسائل لكل طبيب للدرس والمساهمة
فى الابحاث . وماذا أقول عن الروح التجارية . . عن أنواع
العلاج غير المجدية - وان كانت مريحة ! - وعن العمليات التى
تجرى بدون ضرورة ، وعن سبيل الادوية الجاهزة شبه العلمية ،
عديمة الفائدة ، التى نستهملها ؟ . ألم يحن الوقت لنبد بعض
هذه العادات ؟ ان الهيئة الطبية برمتها لا تعرف التسامح ، ولا
تريد بحال التخلى عن شيء من امتيازاتها ! . . ومن ناحية
تشكيلنا فنحن جامدون لا نفكر البتة فى التقدم ، فى تطوير
اسلوبنا . نقول اننا سنفعل بعض الاشياء ولكننا لا نفعل
شيئا . اننا منذ سنين نتأوه اما للظروف والاحوال التعسفة
التي تعمل فيها ممرضاتنا ، وللأجور الضئيلة كل الضالة التى

نعطيهم اياها . ومع هذا فانهم ما يزلن يستغلن ، واجورهن كما هي . وليس هذا سوى مثل واحد من امثلة كثيرة تقال . والذى افكر فيه تفكيرا حقيقيا ابعد مدى من هذا . نحن لا نعمل على الاكثار من الباحثين . الدكتور هيكسام الذى مارس التخدير بشجاعة ، كمساعد للمجبر جارفيس ، ذلك الطبيب الذى كان قد شطب اسمه من السجل الرسمى فى مستهل حياته العلمية ، وبعد عشرة اعوام - عالج وشفى خلالها مئات من المرضى الذين اعيوا اكبر جراحي لندن ، ومنح لقب فارس ، وذاعت عبقريته - بعد عشرة اعوام رجعنا على اعقابنا وعيناه طبيبا فخريا ! . . وفى ذلك الوقت كان هيكسام قد مات كسير القلب ! . . وانا اعرف انى ارتكبت اخطاء عديدة خطيرة فى معالجة مرضاى ، وانى آسف عليها ، ولكنى لم أخطئ مع « ريتشارد ستيلمان » ولست نادما على ما فعلت معه . كل ما اطلبه منكم هو ان تنظروا الى « ماري بولاند » : لقد كانت مصابة بسيل رئوى حينما ذهبت الى ستيلمان ، وقد شفيت . واذا كنتم تنشدون مبررا لمسلكى المشين فهو هنا ماثل امامكم فى هذه القاعة !

.. واختتم بذلك كلامه فجأة وجلس . وحول مائدة المجلس اضاء وجه « أبى » بنور فريد ، بينما كان بون مايزال واقفا ينظر الى مانسون بأحاسيس معقدة . ثم فطن فى غل الى انه أعطى هذا الطبيب الدعى قدرا كافيا من الحبال يشنق بها نفسه ، فانحنى امام الرئيس وعاد الى مقعده .

وساد القاعة صمت غريب ، ثم نطق الرئيس بالمباراة المألوفة ، قال : « أرجو ان ينسحب الغرباء جميعا . »

وخرج أندرو مع الآخرين جميعا . انه الآن مهموم ، يحس برأسه يدور ، وجسمه كله يرتعش فى اعياء ، اشبه ما يكون بالة ارهقت . كان جر قاعة المجلس يخنقه ، ولم يطق وجود هورنر ، وبولاند والشهود الآخرين . انه يخشى على الاخص

عبارات التائب الكئيبة التي سيوجهها اليه محاميه . وهو يدرك انه تصرف كأبله ، كخطيب أحقق تعس . انه يرى الآن أن أمانته كانت محض جنون . أجل ، كان جنونا ان يلقي في المجلس خطبة على نحو ما فعل ، كما لو لم يكن طبيبا بل خطيبا من خطباء الهواء الطلق في (هايد بارك) ! .. وأخيرا ، بعد لحظة سوف لا يكون طبيبا . سيشطبون اسمه ، لا أقل ولا أكثر !

وذهب الى دورة المياه وليس له سوى رغبة واحدة ، هي أن يخلو الى نفسه . وجلس على حافة أحد المغاسل ، وأخرج بحركة آلية سيجارة . غير أن الدخان لم يكن له أى طعم في فمه الجاف ، فسحق السيجارة بقدمه . أنه لامر محير . منذ لحظات قال في حق مهنته أشياء كثيرة قاسية حقيقية ، ورغم هذا فكم يكون محزنا طرده منها ! .. وفكر في أنه قد يجد وظيفة عند « ستيلمان » ، بيد أن هذا ليس نوع العمل الذي يصبو اليه . لا ، انه يريد أن يتعاون مع دينى وهوب ، أن يتبع ميله الخاص ، أن يمزق بضربة رمح الغلاف الذي يحوى التبلد والروتينية . غير أن بلوغ هذا الهدف يقتضيه أن يظل داخل نطاق المهنة ، اذ لا يمكن في انجلترا ، لا يمكن ، لا يمكن أبدا النجاح من خارج نطاق المهنة . والآن سيكون على دينى وهوب أن يصنعا وحدهما حصان طروادة ! .. واحس بفيض من المرارة يفور كيانه ، وامتد أمام ناظره مستقبل مظلم . انه يحس منذ الآن بأكثر الاحاسيس ايلاما له ، وهو الاحساس بطرده ، مضافا اليه الشعور بضياعه وفنائه . انها النهاية !

ونفض على صوت وقع اقدام في المشي فلهق بالآخرين ، وقد نال منه الاعياء كل منال ، ودخل قاعة المجلس وهو يحدث نفسه في صرامة بأنه لم يبق له سوى شيء واحد ، هو الا ينزل عن كبريائه . انه يتمنى بكل جوارحه الا تبدو عليه اماراة واحدة

من امارات الضعف او الخضوع . كان ثابت النظر الى الارض في اصرار ، لا يرى احدا ولا يلقي نظرة على المنصة ، بل ظل ساكنا لا يتحرك . ان الضجيج المألوف في القاعة يعود فيسمع مدويا يصم الاذان من حوله : طقطقة الكراسي فوق الارضية ، السعال ، التهامس .. بل حتى صوت قلم يتحرك على الورق .. وفجأة ، ساد صمت .. وتصلب أندرو . قال لنفسه : « هذه هي اللحظة الحاسمة ! » .. وتكلم الرئيس في ببطء مؤثر ، قال :

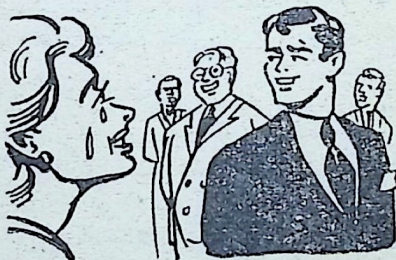
— أندرو مانسون .. لقد فحص المجلس بكل عناية الاتهام الموجه اليك ، وأقوال الشهود المؤيدة له ، ويرى المجلس — على الرغم من الظروف الخاصة التي أحاطت بالقضية ، ومن أسلوبك الشاذ كل الشذوذ في ابداء اقوالك — أنك تصرف بحسن نية ، وبرغبة صادقة في ان تتقيد بروح القانون الذي يتطلب التحلي بأسمى الصفات في السلوك المهني . وبناء على ذلك أبلغك أن المجلس لا يرى لزاما عليه تكليف سكرتير الارشيف بشطب اسمك من سجلاتنا !

ذهل أندرو لحظة ، ولم يفهم . وبغطة عرته قشعريرة ! انهم لم يطردوه ! انه طليق ، برىء .. وقد رد اعتباره !

ورفع رأسه مرتعدا نحو منصة المجلس ! .. ومميز من بين جميع الوجوه المتقاربة التي تحولت اليه ، وجها واحدا هو وجه « روبرت آبي » ، وقرأ في عينيهِ شيئا ضاعف من اضطرابه . فقد أدرك — في ومضة خاطفة كالبرق — انه هو الذي انقذه . لم يعد الآن ثمة ما يدعو لاصطناع عدم المبالاة . وغمغم بصوت خافت ، موجه الكلام الى الرئيس ، (مخاطبا في الحقيفة آبي) : — شكرا يا سيدى .

فقال الرئيس : « رفعت الجلسة » . ونهض أندرو ، وللحال التف حوله اصدقائه : كرون ومارى ، والسيد هورنر — مذهولا — وأناس لم يرهم من قبل ، راحوا

يشدون على يده بحرارة . ولم يدر كيف ألفى نفسه في الشارع و « كون » مايفك يضربه على كتفيه مغتبطا .
ومن عجب أنه في غمرة اضطرابه العصبى سكن الى صخب سيارات الاوتوبيس تروح وتجيء ، والى سيل العربات المألوف ، وقد أخذت تعاوده من وقت لآخر في ابتهاج غامر نشوة الفرح ببراءته التى لا يكاد يصدقها ! وخفض بصره على حين غرة فلمح



مارى ترفع اليه عينيها ، تترقرق فيهما الدموع ما تزال .. ثم قالت :

— لو أنهم مسوك بأى سوء بعد كل هذا الذى فعلته معى لقتلت .. أجل لقتلت ذلك الرئيس الطاعن فى السن !

وصاح «كون» وهو لايقوى على ضبط نفسه : « بحق السماء لست أعرف ماذا كان يقلقك يا ابنتى . منذ اللحظة التى اندفع فيها مانسون ، هذا المحنك ، ادركت انه سيفحهم ! »

وابتسم اندرو ابتسامة شاحبة ، امتزجت فيها الحيرة بالقبطة ، ووصلوا ثلاثتهم الى فندق (الميوزيوم) بعد الواحدة بقليل . وكان دينى ينتظرهم فى الردهة ، فتقدم نحوهم رصينا باسم . كان هورنر قد أبلغه النبأ تليفونيا ، غير انه لم يكن لديه ما يعلق به عليه ، فاقصر على القول :

— انى جائع ، ولا يمكننا تناول طعام هنا ، هيا معى جميعا نتغدى معا .

وذهبوا الى مطعم (كرونوت) دون ان يبدو على وجه دينى اثر لاي انفعال . وبالرغم من انه تحدث مع «كون» فى موضوع السيارات ، فقد احتفى بالحادث السعيد فى ابتهاج . وفى النهاية قال لاندرو :

— قطارنا يبرح فى الرابعة ، وهوب ينتظرنا فى فندق ستانبورو . لقد حصلنا على الدار بقيمة معتدلة . لدى جولة اقوم بها وسألتقى بك فى محطة اوستن فى الرابعة الا عشرا . نظر أندرو الى دينى معتزا بصداقته ، ذاكر كل ماهو مدين له به منذ اللحظة التى تقابلا فيها فى عيادة (بلينيللى) الصغيرة .. ثم قال اندرو بغتة : « ولو كان اسمى قد شطب ؟ » فأجاب فيليب ، هازا رأسه : « لكنه لم يشطب ، وسأسهر على ألا يحدث لك هذا بهال ! »

وحينما تركهم دينى لبتاع ما يلزمه ، سحب اندرو كون ومارى الى قطارهما فى محطة (بادنجتون) ، ودعاهما من جديد للحضور لزيارته فى (ستانبورو) ، فأكد له كون انهما سيذهبان فى الربيع ، فور انتهائه من اصلاح عربته الصغيرة . وحينما تحرك القطار ، كانت ما تزال امام اندرو ساعة من الزمن ، يملكها وحده . انه يعرف تماما ما يبغيه . وقفز فى احدى السيارات العامة ، وما هى الا لحظات حتى كان فى (كنسال جرين) . دخل المقبرة وخشع طويلا امام مشوى «(كريستين)» ، سابحا فى ذكراها ، مستغرقا فى نجواها . وكان الاصيل بهيجا ، والهواء اعليلاً منعشاً ، يتخلله ذلك النسيم اللاذع الذى كانت تعبه !

وكان فوقه ، على غصن شجرة عارية، عصفور يزقزق مرحا .. وحينما برح المقبرة أخيرا ، بحث الخطي خشية التأخر ، كانت ترصع السماء الممتدة أمام ناظره كتلة مضيئة من السحاب ، تخالها زخرفة ناتئة فى قمة جدار قلعة !

(تمت القصة)



تسهيلات جديدة في
شروط تقسيط منتجات

الدفعة الأولى

تخفيض الدفعة الأولى من ٢٠ ٪ إلى
١٠ ٪ للشلاجات والأثاثات المعدنية

١٠٪

قسطاً شهرياً

تقسيط ثمن المطابخ الانسيابية وأجهزة تكييف
الهواء والشلاجات الكهربائية على ٢٣ شهراً

٢٣

قسطاً شهرياً

تقسيط ثمن الأثاثات المعدنية
الأخرى على ١٥ شهراً بدلاً من ٩ شهور

١٥



عزیز فی الفانی ہے ..

تزين له الانزلاق الى طريق النجاة الرخيص السهل ،
على حساب الشرف والمبادئ والمثل العليا .. حتى جمعه
الظروف بفريق من نملاء الذين "نجموا" من هذا
الطريق ، فصبوا له الفخ الأكبر كي يسير في كابرهم !
فهل يحرفه التبار ؟

وماذا يكون موقف الزوجة من هذا الصراع الذي يحتمل في أعماق زوجها .. وهذه المحنة التي يتعرض لها ؟ .. هل تدفعه إلى الهاوية ، طمعا في المال ، والشهرة ، والمتعة ، والترف ؟ .. أم تنقذه من هذا الصير ، بأي ثمن ، وأية تضحية ؟ وماهي المأساة الفاجعة التي ينتهي إليها هذا الصراع ؟ لهذا ما نقرأه في فصول هذا الجزء الأخير من القصة المحتمة ، الذي يد يدك .

مطبوعات کتابی

الترجمة الكاملة للأمانة لشوامخ الكتب العالمية

